الحياة فرص

تأليف
أبي عمار محمد بن عبد الله باموسى
القائم على دار الحديث ومركز السلام العلمي - اليمن - الحديدة

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنعمَ علينا وجعل في العُمر فُسحة، وفي الحياة مُهلة، أحمدُه سبحانه وأشكرُه على كل نعمةٍ وقُربة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جمع قلوبَ المؤمنين على المحبَّة والأُلفة، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه خيرُ قُدوةٍ وأُسوة، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبِه وسلم، الذين كانت صُحبتُهم لنبيِّهم أجلَّ صُحبةٍ وأعظمَ فُرصة.

أما بعد: فإن الله سبحانه وتعالى بمنه وكرمه قد يجعل من الحروب تصحيحًا للدروب، وقد يجعل المحنة منحة، والغصة فرصة، والبلية هدية.

هذا وإن الله سبحانه وتعالى قد شاء لي أن أفارق - كارهًا - دعوتي، ومركزي، ومكتبتي، وأوطاني، وأهلي، وطلابي، وخلاني، وهم مهجتي وأشجاني، وأفراحي وأحزاني، ومشاعري وكياني، إلى مكة المكرمة، فَأَذْهَبَ حَرَّ هذا بَرْد هذا.

فمكة خير البلاد وأعظمها، وأفضل الأماكن وأشرفها، اختارها الله ﷻ لِمَقَرِّ بيته الحرام، ومأوى لأفئدة عباده الكرام، وجعلها الله مثابة للناس وأمنًا.

مكة الحبيبة، البلد الذي تربيت فيه منذ نعومة أظفاري، وتلقيت فيه تعليمي النظامي، والاختياري في الحرم الذي كان بالقرب من داري، وبعد الغيبة رجعت إلى مكة الحبيبة وأنا أحن إليها حنين الطفل الذي فقد أمه وهو في أَمَسِّ الحاجة إليها، فحب مكة قد خالط دمي ولحمي وشحمي وعظمي.

مكة لها في قلبي حُبَّان: حب القداسة، فهي أحب البقاع إلى الله تعالى نصًّا وإجماعًا.

والحب الثاني: هو الحب الجِبِلِّي، حب الوطن الذي تربيت فيه وترعرعت وعشت فيه أحلى أيام حياتي، وحين وصلت مكة سكنت عند صديق بجوار البيت

العتيق، في شِعب من شِعاب مكة وهو شِعب عامر، وبالتحديد في رأس جبل السودان المطل على الحرم، وهنا تذكرت قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «وددت أني في شِعب من شِعاب مكة لا يعرفني أحد»(١).

واغتنمت هذه الفرصة والحمد لله، وكتبت كتابي هذا «الحياة فرص» على غير مثال سابق فيما أعلم، حيث لم أر من كتب في هذا الموضوع قبلي.

وقد بينت في مقدمة الكتاب معنى الفرصة، وبينت أن الله في كتابه المحكم أمر باستغلال الفرص، وكذا نبيه ﷺ في صحيح سنته، وأجمع العلماء والحكماء والعقلاء على استغلال الفرص في كل باب من أبواب الخير، وأن ضياع الفرص يعد من السَّفه والطَّيش والرُّعونة، ثم ذكرت صورًا من استغلال الفرص عند الأمم الماضية، وثنَّيت بذكر صور من استغلال الفرص عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وثلثت بذكر صور من استغلال الفرص عند السلف الصالح من التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى عصرنا هذا، ثم ذكرت نبذة من فضائل الأعمال التي تدهش العقول وتحير الفحول، ثم بعد هذه الجولة الممتعة في بستان الكتاب ذكرت فصلًا رائعًا بعنوان «ما هو مشروعك في الحياة»، ثم ذكرت أقسام الناس في استغلال الفرص، وذكرت حِكَمًا وأشعارًا في الفرص، وذكرت فوائد وفرائد وشوارد منتظمة قد لا تجدها في غير هذا الكتاب مجتمعة، فهو لُبَابٌ في بابه لكل ذي لب، وسيستفيد من هذا الثمر المستطاب كل موفق من أولي الألباب، والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

ولا حول ولا قوة إلا بالله الملك الوهاب.

وكتبه / أبو عمار محمد بن عبد الله باموسى

القائم على دار الحديث ومركز السلام العلمي بالحديدة ـ اليمن

مكة المكرمة حرسها الله ٢٢ /١١/ ١٤٣٧هـ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٦).

تمهيد ومدخل للكتاب

إن الحمد لله، نحمده تعالى، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إخواني في الله، إننا نسمع كثيرًا ونقرأ كثيرًا كلمة الحياة فرص، **فما هي الفرصة؟**

قال في المعجم الوسيط(١): «يقال: انتهَزَ فلانٌ الفُرْصَة: اغْتَنَمها، وفَازَ بها».

وقال ابن القيِّم(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ: «المبادرة: انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتى إذا فات طلبها، فهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتُها بادر إليها، ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقتَ كمال نضجها وإدراكها».

---

(١) «المعجم الوسيط» (٢ / ٦٨٢).

(٢) «الروح» (ص:٤٠٤).

والخلاصة أن الفرصة: هي الشيء النادر حدوثه، أو الذي لا يتكرر كثيرًا، أو قد لا يتكرر أبدًا.

أيها الفضلاء، أيها النبلاء، أيها العقلاء: كثيرًا ما نسمع ونقرأ في مختلف الوسائل الإعلامية بعض الإعلانات والدعايات التجارية، عن عقارات، أو معارض، أو مُجمّعات تجارية فيها من العُروض والتخفيضات التي تلفت الأنظار، لا سيما إذا رافقها بعض العبارات الجذابة كقولهم: «لا تدع الفرصة تفوتك»، وقولهم: «فرصة العمر»، وقولهم: «آخر فرصة»، وقولهم: «فرصة لا تعوض»، وقولهم: «حقق أحلامك، ولا تدع الفرصة تفوت»، وقولهم: «اغتنم الفرصة الأخيرة»، وقولهم: «اغتنم الفرصة وتسوَّقْ قبل انتهاء فترة العرض»، ونحوها من كلمات وعبارات تجارية رنانة، لقد أصبحت هذه الكلمة لها رنين، ولها بريق ولمعان، ولها عشاق ومحبون، نسمعها دائمًا وأبدًا في السفر والحضر، وفي الأسواق والمجالس والأعراس والمناسبات والمحافل، بل نسمعها حتى في العزاء وفي المساجد، وفي كل مكان، نسمعها من أرباب الدنيا وتجارها، ومن أصحاب الثراء والمال، بل نسمعها حتى من الفقراء المُعْدَمِين، تربَّى عليها الصغير وشاب عليها الكبير، يركض الناس وراء هذه الكلمة ركض الوحوش في الليل والنهار، وفي الصحة والمرض، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، لسانهم يلهج بهذه الكلمة «الحياة فرص»، لكن يا ترى ماذا يقصدون بهذه الكلمة «الحياة فرص»؟

إننا نجد كثيرًا من الناس قد قَصَر وحَجَرَ استخدام كلمة «الفرصة» على النواحي المادية، فقلَّما تستخدم هذه الكلمة في مكانها الحقيقي لتمثل فرصة العمر على حقيقتها، وقلَّما تستخدم كلمة «الفرصة» لأمر الآخرة قبل أن تغرق الباخرة.

إنهم يقصدون فرصًا في الدنيا للدنيا، منكم وإليكم هذه بضاعتكم ردت إليكم، إنها بضاعة مزجاة وفرصة ضائعة، حديثهم - معشر الأعزاء - في الليل والنهار فلان

اشترى عقارًا بكذا، وباعه بكذا وكذا، وربح وأصبح من الأغنياء، لأن الحياة فرص، وفلان اشترى سلعة بكذا، وباعها بأرباح باهظة، وأصبح من الأثرياء، لأن الحياة فرص، وفلان لا يضيع الأموال وهو حريص على جمعها، يجمع الدرهم الأبيض لليوم الأسود فأصبح تاجرًا غنيًا ثريًا، لأنه استغل الحياة وكدح وتعب فيها، والحياة فرص، وفلان أصبح مديرًا، أو مسؤولًا، أو...الخ؛ لأنه استغل الفرصة، والحياة فرص.

وهكذا – عباد الله – هذه هي تغريدات المجتمع وهذا حديثهم، مجالسهم عامرة بذكر أخبار الدنيا، والمال والعقار والسوق والأسعار، ومن ارتفع، ومن انخفض، ومن خسر، ومن ربح في تجارة الدنيا الخاسرة، هذا هو حديثهم وهذه هممهم إلا من رحم الله.

وهناك طائفة من الناس على النقيض من ذلك تمامًا، قالوا كما قالت الطائفة الأولى الحياة فرص!

ولكن ما هي الفرص التي يجب أن نستغلها؟

قالوا: إن قيمة كل الفرص في الحياة تنشأ من قيمة فرصة العمر نفسه، فالذي يدرك قيمة العمر يمكن أن يستغل الفرص التي تتاح له من خلال هذه الحياة، والذي لا يدرك قيمة العمر لا يمكن أن يستغل الفرص على الوجه الصحيح، وهذا أمر طبيعي، لأن الذي لا يدرك قيمة الشيء لا يهتم به، والذي لا يهتم بالشيء لا يستغله.

هذه الطائفة قالت: لابد من استغلال الحياة، والعمر، واللحظات، والدقائق، والثواني، والأنفاس في التجارة مع الله بالعمل الصالح، لأن الحياة فرص.

فالذين عرفوا قيمة الحياة، وفرصة العمر، مجالسهم عامرة بالصفقات التجارية

الأخروية، إما في قراءة القرآن، أو السنة النبوية، أو العلم الشرعي، أو التسبيح، أو التهليل، أو الصلاة، أو الاستغفار، أو الصيام، أو القيام، أو الصدقة، أو الأمر بالمعروف، أو النهي عن المنكر، أو في خدمة الناس، أو في خدمة الدين، فهم قد أعلنوا حالة الاستنفار والطوارئ وساعة الصفر في فعل الخيرات وترك المنكرات، قلوبهم مع الله، وجوارحهم مع الله، وأوقاتهم كلها لله، ولسان حالهم: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

تجد حديث هؤلاء عن المستقبل الحقيقي، عن حسن الخاتمة، وعن سوء الخاتمة، عن القبر، والقيامة، والبعث، والنشور، والصراط، والميزان، والصحف، والجنة، والنار.

الله أكبر، هؤلاء هم والله، وبالله، وتالله، الذين عرفوا حقيقة هذه الكلمة «الحياة فرص»، فعاشوا في سعادة وراحة وسرور وبهجة وأنس ورضى واطمئنان لو يعلم الملوك وأبناء الملوك والأثرياء ما هم فيه من السعادة لجالدوهم عليها بالسيوف! وصدق الله القائل: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

والقائل: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وصدق ﷺ القائل: **«مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ»** «حسن» **رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والحاكم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما** [(١)].

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٥٧)، و«مستدرك الحاكم» (٣٦٥٨)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٩)، و«صحيح الجامع» (٦١٨٩).

فأهل الطاعة في جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

قال ابن القيم[١] رَحِمَهُ اللهُ:«سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ».

أيها النبلاء: لقد انقسم الناس في استغلال الفرص إلى ثلاثة أقسام، حسب تقسيم القرآن الكريم[٢].

القسم الأول: لم يستغل فرص الحياة، بل فرَّط وضيَّع.

والقسم الثاني: توسط.

والقسم الثالث: سابق وسارع وفاز، لأنه يعلم أن الحياة فرص.

وكلهم ذكرهم الله في محكم التنزيل فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾: أي ثم أعطينا بعد هلاك الأمم القرآن مَن اخترناهم من أمة محمد ﷺ.

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ بفعل بعض المعاصي.

﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو المؤدي للواجبات، المجتنب للمحرمات.

﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: مسارع مجتهد في الأعمال الصالحة فَرْضِها ونفلها مع تركهم للمعاصي والمنكرات، هذا الذي استغل الحياة بحق، لأن الحياة فرص، فسارع وسابق واستجاب لقول الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن

---

(١) «الوابل الصيب» (ص:٤٨).

(٢) سوف أذكر تقسيمًا آخر بطريقة أخرى في آخر البحث بإذن الله.

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

ولقوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]. ولقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٤٨].

ولقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ أي: في الدنيا، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي: في الآخرة. ولقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١].

ولقوله تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

فالمنافسة في الخير يا عباد الله من صفات الأخيار، بل من صفات أصحاب النفوس الكبيرة، والهمم العالية، لا كما يظن البعض أن المسابقة والمنافسة هي للأولاد الصغار، ولأصحاب النفوس الصغيرة، فها هما شيخا الإسلام وأفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ يتسابقان في الخير.

فقد جاء عند أبي داود والترمذي بسند يحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا[1].

الله أكبر، هذا هو السباق، أما اليوم فكثيرًا ما نسمع كلمة سباق، أو مسابقات

---

(١) «سنن أبي داود» (١٦٧٨)، و«سنن الترمذي» (٣٦٧٥)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (١٦٧٨)، و«صحيح سنن الترمذي» (٣٦٧٥)، و«المشكاة» (٦٠٣٠)، وصححه شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيح المسند» (٩٨٨)، و«ذم المسألة» (٦٠)، و«صعقة الزلزال» (٢/ ٧٦).

تتردد على الألسنة، لكنه سباق الدراجات، وسباق السيارات، وسباق الخيل، وسباق القوارب... إلى آخر هذه المسميات، وكلها تتعلق بالتسابق على الدنيا والتنافس والتباري في الرغبة في تحصيل مُتَعِها الزائلة، وحظوظها الفانية، والتكالب على تحصيل أسبابها وزخرفها وزينتها، وقليل منا من عرف أن هناك سباقًا آخر دعا ربنا ﷻ إليه، وحثَّ عباده عليه، وهو سباق أرَّق مضاجع الصالحين، وشغل فكرهم، فصاموا نهارهم، وقاموا ليلهم، وسالت دموعهم، طمعًا في الفوز بهذا السباق والظفر به، إنه «سباق نحو الجنان»، سباق من أجل الفوز بجنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

أيها العقلاء: لقد حثنا معلم الخير ﷺ على اغتنام الفرص، وكان ﷺ يغتنم الفرص اغتنامًا ليس له نظير.

قال العلامة الألباني[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان ﷺ يهتبل[٢] كل فرصة ليبلغ الناس العلم والدين، وحين زار اليهودي اغتنمها فرصة، وقال له: يا غلام! قل: لا إله إلا الله...»[٣]. اهـ.

وقد أمرنا ﷺ باغتنام الفرص، **ومنها قوله ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ»** أي: اغتنم خمس فرص قبل خمس غصص[٤].

---

(١) «موسوعة الألباني في العقيدة» (٩/ ٢٠).

(٢) اهتبل الفُرْصةَ: اغتنمها، سمِع كلمةً فاهتبلها، اهتبل فرصة انخفاض الأسعار فاشترى دارًا. انظر «تاج العروس» (٣١/ ١٠٩)، «معجم اللغة العربية المعاصرة» (٣/ ٢٣٢١).

(٣) رواه البخاري (١٣٥٦) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) غُصَص: جمع، مفرده غُصَّة.

١- ما اعترض في الحلق من طعام أو شراب، لم يستطع الكلامَ كأنّما في حلقه غُصَّة، قال تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٣]، غُصَّة الموت: سكرته.

=

فقد خرَّج الحاكم في المستدرك[١]، بسند يصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**».

معنى الحديث: اظفر على وجه المغالبة، وقهر النفس، خمسَ نِعَم قبل خمس مِحَن، فإن النعمة لا تدوم على ما هي عليه في جميع الأحوال، لأنه كما يُقال: دوامُ الحال من المُحال، فالشباب يَبلى ويذبل، والصحة تضعُف وتذوى[٢]، والمال ظل زائل سرعان ما يذهب ويزول وينتقل من مورث إلى وارث، والفراغ نعمة من النعم التي يُغبن فيها الإنسان، وسرعان ما تأتي الشواغل على حين غفلة، فيجد المرء نفسه عاجزًا عن تحقيق مآربه وأحلامه، بل وحتى الواجبات التي عليه، لِفَواتِ وقت الفراغ، وضياع الفرصة التي لم يَغتنمْها.

والحياة أنفاسٌ معدودة تنقطع بالموت في وقت ربما لا يكون في الحسبان، فيندم المرء على ضياع العمر فيما لا ينفع، ولا يُجْدِيه ذلك الندمُ شيئًا، فالفرصة إذا لم تُنتهَز فهي غُصّة.

قال خالد بن مَعْدان رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا فُتح لأحدكم باب خير، فليسرع إليه، فإنه

=

٢- حزنٌ وهمٌّ وغمّ شديد متواصل (تجرَّع غُصَصَ الحزن والأسى).

٣- ألم (في حلْقِه غُصَّة). انظر «معجم اللغة العربية المعاصرة» (٢/ ١٦٢٣).

(١) «مستدرك الحاكم» (٧٨٤٦)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٠٧٧).

(٢) قال في «المعجم الوسيط» (١/ ٣١٨): «ذوى» الْعود وَغَيره ذيًا، وذويًا، ذبل وييبس وَضعف، وَيُقَال: ذوى عود فلَان شاخ فَهُوَ ذاو، وَهِي ذواية.

لا يدري متى يُغلَق عنه »[١]. اهـ.

فاغتنم الفرص كما يقول لك من جعله الله بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا ﷺ، فهو ﷺ يأمر وينادي باغتنام الفرص، والأوقات، واللحظات، والدقائق، والثواني، فيقول: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ**» أي: خمسًا من الفرص، قبل أن تأتيك خمسٌ من الغصص.

إنها دعوة من رسولنا محمد ﷺ، دعوة لاغتنام واقتناص الفرص العظيمة التي يهيئها الله ﷻ لنا في الحياة، فهلّا عملنا بها؟

فكم من فرصة مضت مع أيام العمر ما لفواتها ثمن!

فرصة الشباب حين لا تُغتنم قبل الهرم.

وفرصة الصحة حين لا تُغتنم قبل المرض.

وفرصة الغنى حين لا تُغتنم قبل الفقر.

وفرصة الفراغ حين لا تُغتنم قبل الشغل.

وأعظم الفرص فرصة الحياة حين لا تُنتهز قبل الموت.

فهذه الفرص إن لم تُغتنم تحولت من فرص إلى غصص، ومن اغتنم هذه الفرص دل ذلك على قوة إرادة المُغْتَنِم لها وعزمه المُوفَّق.

وقد أحسن من قال:

بـادرِ الفُرصـةَ، واحـذر فَوتهـا ... فَبُلُـوغُ العـزِّ في نَيـلِ الفُـرص
واغتـنم عُمْـركَ إبَّـانَ الصِبـا ... فهـو إن زادَ مـع الشـيبِ نَقَـصْ
إنمـا الـدنيا خيـالٌ عـارضٌ ... قلَّمـا يبقـى، وأخبـارٌ تُقَـصْ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٤٠)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٢١١).

وقال الشاعر العباسي محمد بن بشير[(١)]:

كم من مُضَيِّع فرْصَة قد أمكنت لغـد، وَلَـيْسَ لَـهُ غَـد بمـواتِ
حَتَّى إِذا فَاتَت، وَفَاتَ طلابها ذهبت عَلَيْهَا نَفسه حسـراتِ

فقوله ﷺ: «شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ» هذه الفرصة الأولى: فرصة الشباب، فالنبي ﷺ أوصاك أن تغتنم هذا القَدْر من العمر فيما ينفعُك، في دينك ودنياك، ولا تضيّعه في اللهو واللعب والشهوات، لأن الشباب هو زمن العمل الجاد، لأنه فترة قوة بين ضعفين:

- ضعف الطفولة.
- وضعف الشيخوخة.

والشباب هو وقت القدرة على الطاعة على تمامها، والشباب ضيف سريع الرحيل، فإن لم يغتنمْه العاقل تقطّعت نفسُه بعدَه حسراتٍ.

إن المرء منا يمر بعدة مراحلَ طَوال حياته:

- مرحلة الطفولة.
- ثم مرحلة الشباب.
- ثم مرحلة الكهولة.
- ثم مرحلة الشيخوخة.

ولقد رغب النبي ﷺ بأن تكون مرحلة الشباب في حياة الفرد مليئة بالطاعات.

ومرحلة الشباب هي التي لا يتجاوز فيها العمر ثلاثين سنة، أو خمسة وثلاثين سنة، وما زاد عن ذلك من خمسة وثلاثين، إلى خمسين سنة، يُسمى المرءُ فيها كهلًا،

---

(١) «اللطائف والظرائف» (ص:١٢٤).

فالذي تجاوز خمسة وثلاثين سنة، ولم ينشأ على طاعة الله، فاتته فرصة عظيمة، هي الاستظلال تحت ظل عرش الرحمن يوم القيامة، يوم تدنو الشمس من الخلائق بمقدار ميل، فيغرق الناس في العرق على قدر أعمالهم.

قال ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ** - وذكر منهم - **شَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].

فيا حسرة الرجل منَّا الذي تجاوز سن الشباب، ومرحلة الشباب، ولم ينشأ على طاعة الله، إنها لفرصة فاتت ولن تعوض هذه الفرصة بعينها.

لكن أخي المسلم: إذا فاتتك هذه الفرصة، التي لن تعوض البتة، فلا يفوتك أن تعلِّقَ قلبك بالمساجد، وأن تخفي صدقتك، كي لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك، وأن تفيض عيناك عند ذكر الله خاليًا، كي لا تحرم من الاستظلال تحت ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

وأخيرًا يقول الإمام أحمد رحمه الله[(٢)]: «ما شبهتُ الشباب إلا بشيء كان في كُمِّي فسقط».

الله أكبر، هكذا أخي الشاب لا يسقط شبابك من كمك إلا وقد عملت فيه عملًا صالحًا عظيمًا.

ثم قال ﷺ: «**وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ**» هذه هي الفرصة الثانية، فرصة الصحة وهي نعمة من نعم الله علينا لا نقدرها إلا حين نفقدها، وكما قيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى، ولا يعرف قدرها إلا من فقدها.

---

(١) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٣٠٥).

ولهذا علينا اغتنام هذه النعمة الكبيرة التي منَّ الله ﷻ بها علينا قبل زوالها وتحولها، قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ، مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ**» رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما [(١)].

فالواجب علينا استغلال فرصة الصحة قبل أن يداهمنا المرض ويفاجئنا، فكم من سليم معافى نزل به المرض فجعله قعيد فراشه، يتحسر على أيام مضت لم يجعل لله ﷻ فيها نصيبًا، بل كانت عبثًا ولهوًا وعصيانًا لجبار السموات والأرض، ولهذا قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالْفَرَاغُ**»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فيه التَّحْذِير فِي حَقّ مَن لَمْ يَعْمَل شَيْئًا، فَإِنَّهُ إِذَا مَرِضَ نَدِمَ عَلَى تَرْكه الْعَمَل، وَعَجَزَ لِمَرَضِهِ عَن الْعَمَل فَلَا يُفِيدهُ النَّدَم»[(٣)].

فالموفق هو الذي يكثر من الأعمال الصالحة وقت صحته، لكي يكتب له الثواب كاملًا في حال مرضه، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**» رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه[(٤)].

وأما من لم يستغل صحته قبل مرضه بكثرة الأعمال الصالحة فسيفوته الخير الكثير، وسيندم في حين لا ينفع الندم، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناد «صحيح»، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما منْ أحدٍ من المسلمين يُصَاب ببلاء في جسده، إلا أَمَرَ الله تعالى الحفَظَةَ الذين يحفظونه، قال: اكْتُبُوا لعبدي في كل**

(١) مسلم (٢٧٣٩).

(٢) البخاري (٦٤١٢).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٢٣٥) بتصرف.

(٤) البخاري (٢٩٩٦).

يوم وليلةٍ مثل ما كان يعملُ من الخَيْر، ما دام مَحْبُوسًا في وَثَاقِي»[(١)].

فاغتنم فرصة صحتك قبل مرضك، وذلك بالمبادرة إلى شتى الطاعات قبل حلول المفاجآت، ولهذا رغب النبي ﷺ بالتعجل بالحج خشية مفاجأة المرض، فقال ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ، وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ، وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ» «حسن» رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما، عن ابن عباس والفضل رضي الله عنهما[(٢)].

وروي عَن شَقِيق رحمه الله قَالَ: مرض عبد الله بن مَسْعُود رضي الله عنه فَعُدْنَاهُ فَجَعَلَ يَبْكِي فَعُوتِبَ فَقَالَ: إِنِّي لا أَبْكِي لِأَجْلِ الْمَرَضِ لِأَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الْمَرَضُ كَفَّارَةٌ» وَإِنَّمَا أبْكِي أَنه أَصَابَنِي عَلَى حَالِ فَتْرَةٍ، وَلَمْ يُصِبْنِي فِي حَال اجْتِهَاد، لِأَنَّهُ يكْتب للْعَبد من الْأجر إِذَا مَرِضَ مَا كَانَ يُكْتَبُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَمْرَضَ فَمَنَعَهُ مِنْهُ الْمَرَضُ. «حسن» أخرجه رزين كما في جامع الأصول لابن الأثير[(٣)].

ثم قال ﷺ: «وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»، هذه هي الفرصة الثالثة، أن تغتنم فرصة «غِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»، بأن تكثر من الصدقات، وبذل المال في وجوه الخير، قبل تغير أحوالك

(١) «مسند أحمد» (٦٨٧٠)، وصححه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٣٢)، و«الإرواء» (٥٦٠)، و«صحيح الجامع» (٥٧٦١)، و«صحيح الترغيب» (٣٤٢١).

(٢) «مسند أحمد» (١٨٣٤)، و«سنن ابن ماجه» (٢٨٨٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٤٩)، و«الإرواء» (٩٩٠).

(٣) جامع الأصول (٧٣٥٥). قال شيخنا عبد المحسن العباد في «شرح عشرين حديثًا من صحيح البخاري»: «أخرجه رزين كما في «جامع الأصول» لابن الأثير وكما في «مشكاة المصابيح»، وذكر الحافظ في «الفتح» أن الإسماعيلي أخرج حديث أبي موسى هذا من رواية هشيم عن العوام بن حوشب وقال فيه أيضًا: ولرواية إبراهيم السكسكي عن أبى بردة متابع أخرجه الطبراني من طريق سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن جده بلفظ «إن الله يكتب للمريض أفضل ما كان يعمل في صحته مادام في وثاقه...»، وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند النسائي: «ما من امرئ تكون له صلاة من الليل يغلبه عليها نوم أو وجع إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقه».

الاقتصادية، أو قبل تغير أحوال المجتمع الذي من حولك، فإن أعظم الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح[١] تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تتأخر عن الصدقة حتى إذا بلغتِ الحلقوم قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان كذا، أو تحسن الظن في ورثتك أنهم سيعملون لك بعد موتك كذا وكذا، هيهات هيهات إلا من رحم الله.

أخي الكريم: إنها فرصة أن تتعرف على الله في الرخاء، ليعرفك في الشدة، فقد أخبرنا الله ﷻ بأن المسلم بعد موته يتمنى لو أنه أعطي فرصة أخرى للعودة إلى الحياة، لا ليتمتع فيها أو يلهو فيها، وإنما ليتصدق ويكون صالحًا، ويبادر إلى الفرص التي فاتته طَوال حياته، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠- ١١].

ويحتمل أن يكون معنى قوله ﷺ: «**وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ**» إنذارًا للغني بالفقر إذا لم يُنفقْ من ماله في وقت الغنى، لا سيما وأن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن مَلَكَيْن يدعوان كل صباح: «**اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه[٢].

فالغنى فرصة اغتنمها بالتصدق بفضول مالك قبل عروض جائحة تفقرك، فتصير فقيرًا في الدنيا من المال، وفي الآخرة من حسنات التصدق.

ثم قال ﷺ: «**وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ**» هذه هي الفرصة الرابعة، فرصة الفراغ.

اعلم - رحمك الله - أن الوقت دمار أو عمار، دمار لمن دمره بالمعاصي،

(١) البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

وعمار لمن عمره بالطاعات، فالفراغ فرصة فاغتنم فراغك في هذه الدار، قبل شغلك بالزوجة، والأولاد، ومشاغل الدنيا.

اغتنم أوقات الفراغ في شَغْلِ النفس بما ينفعك، فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

اغتنم فراغك قبل تحمل المسؤوليات، اغتنمه في حفظ كتاب الله، وتعلم العلم الشرعي، لأنك إذا كبرت قد تخجل أن تتعلم، وقد يصعب عليك الحفظ، بل ولا تجد الوقت الكافي للتعلم، لأنك ستكتشف أن الواجباتِ أكثر من الأوقات، ولهذا صدَق عمر بن الخطاب ﵁ حينما قال: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا» رواه البخاري[(١)].

أي: تعلَّمْ قبل أن تصبح مسؤولًا، وتنشغل فلا تجد الوقت للتعلم، وكذلك الاستفادة من العلماء، والتعلم منهم عن قرب قبل موتهم فرصة لا تعوض، وقد قال ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»** متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄[(٢)].

ففرصة عظيمة أخي المسلم أن تغتنم **«فَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ»**.

قال من حثنا على استغلال الفرص، ﷺ: **«إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»** «صحيح» رواه البخاري، وأحمد، وعبد بن حميد عن أنس بن مالك ﵁[(٣)].

---

(١) البخاري، باب «الاغتباط في العلم والحكمة» قبل حديث (٧٣).

(٢) البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٣) البخاري في «الأدب المفرد» (٤٧٩)، و«مسند أحمد» (١٢٩٨١)، و«مسند عبد بن حميد» (١٢١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٣٧١)، و«صحيح الجامع» (١٤٢٤)، =

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت هذا الحديث: «فإن فيه ترغيبًا عظيمًا على اغتنام آخر فرصة من الحياة، في سبيل زرع ما ينتفع به الناس بعد موته، فيجري له أجره، وتكتب له صدقته إلى يوم القيامة»[(١)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في من لا يستغل وقته بل يقوم بتمزيقه والتخلص منه: «رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا، إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر! وإن طال النهار فبالنوم! وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق! فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم وما عندهم خبر!»[(٢)].

قلت: نعم والله، كم من شخص يحاول التخلص من وقته، فهذا يتخلص منه بكثرة الضحك، وهذا بكثرة النوم، وهذا بكثرة اللعب، وهذا بكثرة المزاح، وهذا بكثرة الجلوس مع الغافلين، لا يهمه أن يستغل هذا الوقت النفيس فيما يعود عليه بالخير في الدارين، هذه أحوال كثير من المسلمين، ومن هنا انتظر الدواهي لأصحاب الملاهي.

قال بعضُ الحكماء: «كيف يَفْرَحُ بالدنيا من يَومُه يَهدِمُ شهرَه، وشهرُه يهدِمُ سنَتَه، وسنته تَهدِمُ عُمُرَه، وكيف يفرح من يقوده عمرُه إلى أجله، وتقودُه حياتُه إلى موته»[(٣)].

=

و«السلسلة الصحيحة» (٩)، وصححه شيخنا الوادعي في «الصحيح المسند» (٣٨)، و«الجامع الصحيح» (١/ ٤٣٧) رقم (٥٤٦).

(١) انظر «السلسلة الصحيحة» تحت حديث رقم (٩).

(٢) «صيد الخاطر» (ص:١٥٧).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص:٣٨٢).

قلت: لا يفرح بذلك إلا مغفل، يفرح أن اليوم هذا ذهب، وأن الشهر هذا ذهب، وأن السنة هذه انتهت ودخلنا في سنة ثانية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضياع الوقت أشد من الموت، لأن الموت يقطعك عن الدنيا، وضياع الوقت يقطعك عن الله»[(١)].

وقال شريح القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوم رآهم يلعبون: ما لي أراكم تلعبون؟

قالوا: فرغنا! قال: ما بهذا أُمِرَ الفارغ.

وقيل إنه قال لهم: وهل من انتهى من عمل قام يلعب! ألم يقل الله لنبيه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧- ٨][(٢)].

ثم قال ﷺ: «وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ» هذه هي الفرصة الخامسة، فاغتنم ما تلقى نفعه بعد موتك، فإن من مات انقطع عمله، وفاته أمله، وحق ندمه، وتوالى همه، فاقترض منك لك.

قال غُنَيْمُ بن قيسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنَّا نَتَوَاعَظُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ: ابْنَ آدَمَ اعْمَلْ فِي فَرَاغِكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَفِي شَبَابِكَ لِكِبَرِكَ، وَفِي صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَفِي دُنْيَاكَ لِآخِرَتِكَ، وَفِي حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[(٣)].

فيا أخي الكريم: قدم لنفسك ما ينفعك بعد موتك، ولا تُسَوِّف، حتى إذا جاء الموت قلت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

يا ليتني تصدقت، ويا ليتني صُمْت، ويا ليتني صليت، ويا ليتني فعلت...، فيكون

---

(١) «الفوائد» (ص:٣١).

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٢٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٧٨).

حالك كحال الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٣-٢٤].

إن وجودك في هذه الحياة أعظم فرصة لجمع الحسنات وللرُّقِيِّ في الجنة إلى أعلى الدرجات، فاغتنام حياتك قبل موتك يكون بالمبادرة إلى التوبة قبل حلول الأجل، وقبل أن تغرغر وتلتف الساق بالساق، فقد قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**» «حسن» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما [(١)].

فإن اغتنام فرصة الحياة قبل الممات هو أن تغتنم وقتك فلا تضيعْه في لهوٍ ولا معصية، فكم من مُستقبلٍ يومًا لا يستكملُه، وكم من مُؤمِّل غدًا لا يدركُه.

قال الحسن البصري رحمه الله: «لَيْسَ يَوْمٌ يَأْتِي مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا إِلَّا يَتَكَلَّمُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي يَوْمٌ جَدِيدٌ، وَأَنَا عَلَى مَنْ يَعْمَلُ فِيَّ شَهِيدٌ، وَإِنِّي لَوْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[(٢)].

فكل دقيقة من حياتك هي فرصة لن تعوض، لأنه لا يمكن إرجاعها، أو تداركها، فأمسِ القريب الذي مر يَعجَزُ أهل الأرض عن رده.

كما أن الحياة فرصة إلى المبادرة، إلى التوبة قبل ظهور بعض علامات الساعة الكبرى، فقد قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ**

---

(١) «مسند أحمد» (٦١٦٠)، و«سنن الترمذي» (٣٥٣٧)، و«سنن ابن ماجه» (٤٢٥٣)، و«صحيح ابن حبان» (٦٢٨)، و«مستدرك الحاكم» (٧٦٥٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٦١)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠٢)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٤٩)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٦٢٧)، و«صحيح الجامع» (١٩٠٣)، و«صحيح الترغيب» (٣١٤٣)، وحسنه شيخنا مقبل رحمه الله في «تعليقه على تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٨).

(٢) «الزهد» لابن أبي الدنيا (ص:٤٢٤)، و«غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» للسفاريني (٢/ ٤٥٠).

آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].

فاغتنم «حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ» إنها خير كلمة جامعة في استغلال الوقت.

أخي العاقل الكريم: إن الحياة فرصة للتوبة والأَوْبَة، وأن تتبع السيئة الحسنة، إنها فرصة عظيمة بأن تتوب من الذنوب مباشرة قبل أن تُسَجَّل عليك، وتُسَوِّدَ صحيفتك، فقد روى الطبراني والبيهقي، وحسنه الألباني رحمه الله، عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوِ الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً»[(٢)].

لذلك لا نعجب إذا علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الرحيم بنا - وقد وجهنا بقوله صلى الله عليه وسلم: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» «حسن» رواه أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي ذر رضي الله عنه[(٣)].

فتأملْ رحمةَ الله بك كيف يعطيك هذه الفرصة، بأن يجعل المَلَك ينتظر ست ساعات - لعله ينتظر منك توبة أو استغفارًا - وتأمل أيضًا شفقة النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينصحك بقوله: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، وكلمة «أَتْبِع» تفيد المبادرة وعدم التواني، لذلك بادر إلى التوبة وإلا مُلِئَتْ صحيفتُك سيئاتٍ، فتراها يومَ القيامة عليك حسراتٍ.

---

(١) مسلم(١٥٨).

(٢) الطبراني في «الكبير» (٧٧٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٥٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٠٩٧)، و«الصحيحة»(١٢٠٩).

(٣) «مسند أحمد» (٢١٣٥٤)، و«سنن الترمذي» (١٩٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٢٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٦١٨)، و«صحيح الجامع» (٩٧)، و«المشكاة» (٥٠٨٣).

أخي الحبيب اللبيب: إن الحياة فرصة للمبادرة إلى التحلل ممن ظلمتَه قبل أن تُسلَب منك حسناتُك يوم القيامة، فقد روى البخاري في صحيحه[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**».

وخلاصة هذا الحديث «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ**» كما قال ابن رجب[(٢)] رحمه الله: «وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا تَعُوقُ عَنِ الْأَعْمَالِ، فَبَعْضُهَا يَشْغَلُ عَنْهُ، إِمَّا فِي خَاصَّةِ الْإِنْسَانَ، كَفَقْرِهِ وَغِنَاهُ وَمَرَضِهِ وَهَرَمِهِ وَمَوْتِهِ، وَبَعْضُهَا عَامٌّ، كَقِيَامِ السَّاعَةِ، وَخُرُوجِ الدَّجَّالِ، وَكَذَلِكَ الْفِتَنُ الْمُزْعِجَةُ كما جاء في الحديث: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ**...» رواه مسلم[(٣)] عن أبي هريرة رضي الله عنه .اهـ.

وقال ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ، وَخُوَيْصَّةَ أَحَدِكُمْ**» رواه مسلم[(٤)] عن أبي هريرة رضي الله عنه

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: «**إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**»[(٥)].

---

(١) «البخاري» (٢٤٤٩).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٨٨).
(٣) «مسلم» (١١٨).
(٤) مسلم (٢٩٤٧).
(٥) رواه البخاري (٦٤١٦).

وقَالَ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ» رواه البخاري[١] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

أيها المسلم الكريم اغتنم هذه الفرص قبل أن تندم ولا ينفع الندم، وتغبن غاية الغبن، في يوم سماه الله يوم التغابن.

***

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).

صور من اغتنام الفرص

أيها العقلاء النبلاء الفضلاء: سوف أذكر نماذج مضيئة، وصورًا مشرقة تشير إلى استغلال الفرص من الصحابة ﭬ، وممن قبلهم من الأمم السابقة، وبعدهم من التابعين وغيرهم إلى عصرنا، لعلك إن نظرت فيها أورثك ذلك علوّ الهمة، والإقبال على العبادة، واغتنام الفرص في هذه الحياة، فإن الحياة فرص.



الفصل الأول

صور من روائع الأمم السابقة لاغتنام الفرص

الصورة الأولى:

[قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعَجَزْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»].

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيُّ ﷺ أَعْرَابِيًّا فَأَكْرَمَهُ فقَالَ لَهُ: ائْتِنَا، فَأَتَاهُ فقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَلْ حَاجَتَكَ»، قَالَ: نَاقَةٌ نَرْكَبُهَا، وَأَعْنُزٌ يَحْلِبُهَا أَهْلِي، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعَجَزْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: «إِنَّ مُوسَى عليه السلام لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فقَالَ: مَا هَذَا؟ فقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يُوسُفَ عليه السلام لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللهِ أَنْ لا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قبره، قالوا: عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَأَتَتْهُ، فقَالَ: دُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يُوسُفَ، قَالَتْ: حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: وَمَا حُكْمُكِ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا، فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةٍ مَوْضِعِ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ فَأَنْضَبُوهُ، فقَالَتْ: احْتَفِرُوا فَاحْتَفَرُوا فَاسْتَخْرَجُوا عِظَامَ يُوسُفَ، فَلَمَّا أَقَلُّوهَا إِلَى الْأَرْضِ وإذا الطريق مثل ضوء النهار» «صحيح» رواه أبو يعلى والحاكم[1](*).

---

(١) «مسند أبي يعلى» (٧٢٥٤)، و«مستدرك الحاكم» (٤٠٨٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٣١٣).

(*) قال الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» تحت حديث رقم (٣١٣): فائدة: «كنت استشكلت =

هذه قصة عجوز من عجائز بني إسرائيل، أتيحت لها فرصة عظيمة فاهتبلتها واغتنمتها، لا لتحصل منها على مال الدنيا ومتاعها، ولكن لتحصل على الدرجات العالية في جنات النعيم، فقد طلب منها موسى عليه السلام أن تدله على قبر نبي الله يوسف عليه السلام، ليأخذ جسده معه عند خروجه ببني إسرائيل من مصر إلى الشام وكان لا يعلم موضع قبر يوسف عليه السلام إلا هذه المرأة، فأبت أن تدله على القبر إلا إذا أعطاها طلبها وذلك بأن تكون معه في الجنة يوم القيامة، فأعطاها الله طلبها.

ففي هذه القصة درس عظيم في استغلال الفرص، وعلو الهمة وطلب المعالي، فهذه العجوز لما أتيحت لها فرصة السؤال والاشتراط ما رضيت إلا بأعلى المطالب، وهو مرافقة كليم الله موسى في الجنة، لأن الحياة فرص، فكم من عجوز والله خير من ألف شاب في استغلال الفرص، ولذلك جعلها النبي ﷺ مثلًا يحتذى به في طلب معالي الأمور، وهذا كالاستنكار على الأعرابي الذي عرض عليه الرسول ﷺ السؤال، وأمره بالطلب، وأتاح له الفرصة ليستغلها، لأن الحياة فرص، فلم يستغلها بل طلب ناقة بمتاعها، وأعنزًا يحلبها، وهذا متاع من أمتعة الدنيا التي لا تعادل شيئًا من خير الآخرة، وهذا إرشاد للناس أن يسعوا إلى طلب المعالي، وطلب الآجلة لا العاجلة.

=

قديمًا قوله في هذا الحديث: «عظام يوسف» لأنه يتعارض بظاهره مع الحديث الصحيح: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» حتى وقفت على حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لما بدن قال له تميم الداري رضي الله عنه: ألا أتخذ لك منبرًا يا رسول الله يجمع، أو يحمل عظامك؟ قال: «بلى»، فاتخذ له منبرًا مرقاتين. أخرجه أبو داود (١٠٨١) بإسناد جيد على شرط مسلم، فعلمت منه أنهم كانوا يطلقون «العظام» ويريدون البدن كله، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الفجر، فزال الإشكال، والحمد لله، فكتبت هذا لبيانه».

الصورة الثانية:

[الإسراع في الاقتراع لكفالة مريم بنت عمران وحل النزاع]

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قيل إن امرأة عمران «حنّة» قد كبرت ولم تلد، فأبصرت طائرًا يزقّ فرخًا، فنذرت إن ولدت أن تجعله من خَدَم بيت المقدس، فحررت ما في بطنها ولم تعلم ما هو، ثم مات عمران وامرأته «حنّة» حامل، فلما وضعتها إذا هي أنثى، فقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ثم لَفَّتْها في خرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، فقالت: دونكم هذه المنذورة، فتنافسوا فيها، لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وهذه فرصة في الخير قد لا تعوض، والحياة عند العقلاء والعلماء والصلحاء فرص، هنا قال زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنا أحقّ بها لأن خالتها عندي، فقالوا نقترع عليها، فألقوا أقلامهم في نهر جار، قيل هو نهر الأردن، فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، ورسبت أقلامهم تحت الماء، فأخذها زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ وكَفَّلَها وضمها إلى خالتها أم يحيى، واسترضع لها حتى كبرت، فبنى لها غرفة في المسجد لا يرقى إليها إلا بسلّم ولا يصعد إليها غيره، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، فيقول: أنّى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله[1].

(١) «الكامل في التاريخ» (١/ ١٧٠).

الصورة الثالثة:

[هدهد سليمان البار اغتنم الفرصة فأنقذ أُمَّة من النار]

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۢ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٠-٢٤].

تفقد سليمان عليه السلام حال الطير المسخرة له وحال ما غاب منها، وكان عنده هدهد متميز معروف فلم يجده، فقال: ما لي لا أرى الهدهد الذي أعهده؟ أسَتَره ساتر عني، أم أنه كان من الغائبين عني، فلم أره لغيبته؟ فلما ظهر أنه غائب قال: لأعذبنَّ هذا الهدهد عذابًا شديدًا لغيابه تأديبًا له، أو لأذبحنَّه عقوبة على ما فعل حيث أَخَلَّ بما سُخِّر له، أو ليأتيِنِّي بحجة ظاهرة فيها عذر لغيبته.

فمكث الهدهد زمنًا غير بعيد، ثم حضر فعاتبه سليمان على مغيبه وتخلُّفه، فقال له الهدهد: علمت ما لم تعلمه من الأمر على وجه الإحاطة، وجئتك من مدينة «سبأ» بـ«اليمن» بخبر خطير الشأن، وأنا على يقين منه.

يا ترى ماذا شاهد الهدهد في اليمن؟!

لقد شاهد الهدهد إبان طيرانه قومًا يعبدون الشمس، وهذا أعظم منكر على وجه الأرض، فماذا فعل يا ترى؟

لقد ألقى بالنبأ إلى سليمان عليه السلام، باذلًا بذلك كل وسعه في تغيير المنكر، فنجح نجاحًا عظيمًا باستغلال هذه الفرصة، وكانت سببًا في نجاته من الذبح، وفي نجاة أمّة من الشرك ودخولها في الإسلام.

الصورة الرابعة:

[حَمِيَ الوطيس في التنافس لإحضار عرش بلقيس[(١)]]

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

حين طلب نبي الله سليمان عليه السلام عرش بلقيس من اليمن حيث مملكة سبأ إلى بيت المقدس حيث مُلْك سليمان عليه السلام، قبل أن تصل هي وقومُها مسلمين، تنافس الإنس والجن في إحضاره قربة لله تعالى، لأن هذه فرصة وشرف لمن يقوم بهذا العمل الجليل، وهذه فرصة قد لا تعوض، والحياة فرص.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، قوي على إحضاره، أمين على مجوهراته وما فيه، فطلب من نبي الله مهلة لإحضار العرش نصف يوم، إذ أن سليمان عليه السلام كان يجلس للرعية صبحًا، ويقوم مع الزوال، عندها قال رجل من صالحي الإنس وعلمائهم واسمه «آصف بن برخيا» عند جمهور المفسرين[(٢)]: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، وهي دقائق، أو ثوانٍ معدودات، فالإنسان العادي يرتد إليه طرفه اثنتي عشرة مرة في الدقيقة الواحدة غالبًا، ولكنه لو حَدَّقَ النظر فقد يصمد دقيقة كاملة قبل أن ينقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، وفعلًا أحضره بأمر الله في لمح البصر، وفاز بهذه الفرصة، والحياة فرص.

(١) تنبيه: اسم بلقيس لم يثبت بالنص وإنما بالشهرة والاستفاضة.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٧٣)، و«تفسير السعدي» (ص: ٦٠٥).

الصورة الخامسة:

[الغلام المؤمن الْمُفْتَتَن يُضحي بنفسه لينقذ أُمَّتَهُ من النار والمحن]

عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا

بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ» رواه مسلم[١].

لقد قص الله علينا في كتابه الكريم طرفًا من قصة أصحاب الأخدود، وجاء في

(١) مسلم (٣٠٠٥).

هذا الحديث الشريف مزيد توضيح وبيان لهذه القصة، وفوائد هذا الحديث كثيرة وكثيرة جدًّا، وأقتصر على الشاهد الذي أريد وهو استغلال هذا الغلام العملاق والداعية الكبير للفرص في نشر التوحيد والإسلام، منها:

أن الله قد أجرى على يد هذا الغلام شفاء المرضى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكان يخبر الناس أن الشافي هو الله، وأن من آمن بالله فإنه يشفيه، فكان يتخذ من المعالجة فرصة وطريقًا لنشر دعوته ونشر الإيمان، فسمع به أحد جلساء الملك وكان قد عمي وذهب بصره، فأهدى إلى الغلام هدايا عظيمة كي يشفيه، هنا استغل هذا الذكي الموفق فرصة ذهبية، وأخبره أن الله هو الشافي، وأنه إن آمن بالله دعا الله له بالشفاء، فآمن هذا المسؤول الكبير في الدولة، فدعا له الغلام فشفاه الله، هذه الفرصة الأولى.

الفرصة الثانية: تظهر جلية في قول الغلام للملك: تجمع الناس! لماذا قال له ذلك؟

الجواب: لأن الغلام يريد أن يرى الناس صِدْقَهُ، وصِحةَ تَوحيدِهِ لله سبحانه وتعالى، ويرون كذلك ضَعْفَ المَلك وبُطلانَ ما هو عليه من الشرك بالله رغم كثرة جنوده وقوة بطشه، وقد طلب مثل ذلك موسى عليه السلام عندما قال لفرعون: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه: ٥٩].

لكي يجتمع أكبر عدد من الناس في وقتٍ تكون فيه الرؤية واضحة للجميع، لكي يروا صحة دعوى موسى عليه السلام، وبطلان دعوى فرعون، وهذا الذي كان، وهي مسألة عقلية لكل متحدٍّ يريد أن يتحدى غيره، إن كان واثقًا من صحة موقفه، أن يطلب التحدي على الملأ لكي يرى الناس الحق من الباطل.

قد يقول قائل: لماذا قال الغلام للملك تأخذ سهمًا من كنانتي وتقول باسم الله رب هذا الغلام؟

الجواب: رُبَّما يكون ذلك أبلغ في إذلال الملك وجنوده، وكأنه يقول له: جنودك وأسلحتك كلها لا تخيفني، بل وأكثر من ذلك خذ هذا السهم من كنانتي فهو أبلغ في قتلي، وهو أدلُّ على شجاعة قلب هذا الغلام المؤمن البطل، وعدم خوفه من الموت، وحين قال للملك: إذا رميت قل بسم الله رب هذا الغلام، يريد من ذلك أن يسمع الناس أن رب الغلام هو الله الملك الحق، وما كاد الغلام يسقط ميتًا ويتنفس الملك الصعداء لظنه أنه أنهى الفتنة وقضى عليها واقتلع جذورها حتى جاءه أعوانه يركضون لاهثين يقولون: وقع الذي كنت تحذر، لقد آمن الناس برب الغلام وتحقق ما أراده الغلام من دخول الناس في دين الله أفواجًا.



الصورة السادسة:

[موسى عليه السلام الكليم يركب البحر العظيم لطلب العلم من الخضر عليه السلام بأمر الله العليم]

قام موسى عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل فكانت خطبته جامعة رائعة أدهشت الحاضرين وتعجب منها الناس، فقام رجل من بني إسرائيل، فقال: يا نبي الله، هل يوجد على وجه الأرض رجل أعلم منك؟ فقال موسى عليه السلام: لا. فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام وقال له: يا موسى إنَّ لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

هنا موسى عليه السلام استغل هذه الفرصة الثمينة، وقال: يا رب، وكيف لي به، أي كيف أصل إليه وأستفيد من علمه؟ فبين الله له مكان الخضر ودله عليه، فأعلن موسى عليه السلام لفتاه يوشع بن نون عن عزمه وتصميمه أن يبلغ مجمع البحرين مهما كلفه الأمر، ومهما طال الزمن الذي سيقضيه في هذه الرحلة العلمية العظيمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]. إلى آخر قصة موسى والخضر المذكورة في سورة الكهف، وقد جاء في الصحيحين تفصيل لما ذكره القرآن في هذه القصة العظيمة التي أفردها بعض أهل العلم بالتصنيف وذكر فيها من الفوائد ما يطول ذكره هنا.

***

الفصل الثاني

صور من روائع الصحابة ﭫ لاغتنام الفرص

الصورة الأولى:

[سَبقَكَ بِها عُكَّاشَةَ]

عن عبد الله بن عباس ﭭ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى فِي قَوْمِهِ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأفق، فقيل: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رجل فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» متفق عليه[١].

الله أكبر، إنه قناص للفرص من الدرجة الأولى، إن هذا الحديث بلا شك يحمل معاني كثيرة، ودروسًا عظيمة، ولكن استوقفني موقف عُكَّاشَة ﭬ، والمبادرة بسؤال النبي ﷺ: «ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ»، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ».

(١) البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

فتأمَّلْ كيف كانت الفرصةُ في حياة عُكَّاشَة بن محصن، وأنَّها في لحظة واحدة رَحَلَتْ به إلى دخول الجنَّة دونَ حساب أو عقاب؟! وتأمَّل كم كانت هذه الأمنية تَعتلجُ في نفوس الجالسين كلِّهم؟! ومجرَّد تأخُّرهم عن استثمار الفرصة فوَّت عليهم أعظمَ الأرباح في عَرَصات القِيامة، وحاول أحدُهم أن يَلحق بصاحبه، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**سَبَقَك بها عُكَّاشَة**».

فتجارب الحياة تعلمنا أن الفرص العظيمة ربما لا تأتي إلا مرة واحدة، ولا يفوز بها، ولا يسبق إليها إلا أهل السبق، وهم أهل الفوز بالمنح العظيمة، والجوائز الكريمة.



الصورة الثانية:

[سَبَقَكُمْ بِهَا الْغُلَامُ الدَّوْسِيُّ]

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى زَيْدِ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ ﷺ: عَلَيْكَ بأَبي هُرَيْرَةَ ﷺ، فَإِنِّي بَيْنَمَا أنا وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَفُلَانٌ فِي الْمَسْجِدِ ذَاتَ يَوْمٍ نَدْعُو اللهَ وَنَذْكُرُ رَبَّنَا خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْنَا فَسَكَتْنَا، فَقَالَ: «عُودُوا لِلَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ» قَالَ زَيْدٌ: فَدَعَوْتُ أَنَا وَصَاحِبَيَّ قَبْلَ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُؤَمِّنُ عَلَى دُعَائِنَا، ثُمَّ دَعَا أَبُو هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِثْلَ مَا سَأَلَكَ صَاحِبَايَ هَذَانِ، وَأَسْأَلُكَ عِلْمًا لا يُنْسَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آمِينَ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللهَ عِلْمًا لا يُنْسَى، فَقَالَ: «سَبَقَكُمْ بِهَا الْغُلَامُ الدَّوْسِيُّ» «إسناده جيد» رواه النسائي والحاكم والطبراني[(١)].

قَالَ أبو هريرة ﷺ:يَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الحَدِيثَ، وَاللهُ المَوْعِدُ، وَيَقُولُونَ: مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لا يُحَدِّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ؟ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ المُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا، أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَحْضُرُ حِينَ يَغِيبُونَ، وَأَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا: «لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ،

---

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (٥٨٣٩)، والحاكم (٦١٥٨)، والطبراني في «الأوسط» (١٢٢٨) وأشار إلى تحسينه الذهبي في «السير» (٢/ ٦١٦) قال: «تَفَرَّدَ بِهِ: الفَضْلُ بنُ العَلَاءِ، وَهُوَ صَدُوْق»، وقال ابن حجر في «الإصابة» (٧/ ٣٥٧): «إسناده جيد»، ونقله عنه المعلمي في كتابه «الأنوار الكاشفة» (ص: ٢٢٦) وأقره، وكذا قال من بعده، كالساعاتي في «الفتح الرباني» (٢٢/ ٤٠٥)، وشيخنا محمد آدم في «شرحه على ابن ماجه» (١/ ٤٢).

ثُمَّ يَجْمَعَهُ إِلَى صَدْرِهِ فَيَنْسَى مِنْ مَقَالَتِي شَيْئًا أَبَدًا»، فَبَسَطْتُ نَمِرَةً لَيْسَ عَلَيَّ ثَوْبٌ غَيْرُهَا، حَتَّى قَضَى النَّبِيُّ ﷺ مَقَالَتَهُ، ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَوَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ، مَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَتِهِ تِلْكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَاللهِ لَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ، مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٥٩] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٠]. متفق عليه[(١)].

لم يكن أبو هريرة رضي الله عنه ممن يكتبون، ولكنه كان سريع الحفظ قوي الذاكرة، ولم تكن له أرض يزرعها، ولا تجارة تشغله، ومن ثمّ لم يكن يفارق الرسول ﷺ في سفر ولا في حضر، وهكذا راح يكرّس نفسه ودقة ذاكرته لحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وتوجيهاته، فلما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى راح أبو هريرة رضي الله عنه يُحَدِّث، مما جعل بعض أصحابه يعجبون: أنّى له كل هذه الأحاديث؟ ومتى سمعها ووعاها؟

ولقد ألقى أبو هريرة رضي الله عنه الضوء على هذه الظاهرة، وكأنه يدفع عن نفسه مغبة تلك الشكوك التي ساورت بعض أصحابه، فقال: إنكم لتقولون أكثر أبو هريرة في حديثه عن النبي ﷺ، وتقولون: إن المهاجرين الذين سبقوه إلى الإسلام لا يحدثون هذه الأحاديث، ألا إن أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم بالسوق، وإن أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم أرضهم، وأنا انتهزت واغتنمت الفرصة، والحياة فرص، فلازمت الرسول ﷺ، فأحضر إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا.

وإن النبي ﷺ حدثنا يومًا فقال: «مَنْ يَبْسُطْ ثَوْبَهُ فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي»، فانتهزت هذه الفرصة أيضًا، فَبَسَطْتُ ثَوْبِي حَتَّى قَضَى حَدِيثَهُ، ثُمَّ ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ، فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، وأيم الله لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم بشيء أبدًا، وهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ

(١) البخاري (٢٣٥٠)، ومسلم (٢٤٩٢).

أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

هكذا يفسر أبو هريرة رضي الله عنه سر تفرّده بكثرة الرواية عن الرسول ﷺ، فهو:

أولًا: كان متفرغًا لصحبة النبي ﷺ أكثر من غيره.

ثانيًا: كان حريصًا على طلب العلم محبًا له.

ثالثًا: كان يحمل ذاكرة قوية.

رابعًا: دعاء الرسول ﷺ له، فازداد قوة إلى قوته.

خامسًا: لا يحدّث رغبة في أن يحدّث، بل لأن إفشاء هذه الأحاديث مسؤولية دينيه.

❊❊❊

الصورة الثالثة:

[أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ يا رَسُولَ الله]

عن رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ ﵁ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ»، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ»، قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» رواه مسلم(١).

ربيعة بن كعب بن مالك الأسلمي ﵁ كان يخدم النبي ﷺ، فقال له ﷺ: «سَلْ» يعني اسأل شيئًا أعطيك إياه مكافأة على ذلك، فاستغل هذا الصحابي الجليل الفرصة، لأن الحياة فرص، لكن ما الذي طلبه ﵁؟ هل قال: أريد ناقةً، أو بستانًا، أو متاعًا، أو ثيابًا، أو دراهمَ، أو دنانيرَ، أو ذهبًا، أو فضةً، أو منصبًا؟

الجواب: ما سأل شيئًا من أمور الدنيا، بل قال وبكل فرح وسرور وبهجة وحبور: «**أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ**».

الله أكبر، الله أكبر، انظر لاقتناص الفرص، حقًّا عرفوا أن الحياة فرص، وانظر للهمة العالية التي لم تكن فوق الثرى ولا تحت الثريا وإنما كانت فوق ذلك.

قال ﷺ لربيعة: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟**» أراد النبي ﷺ أن يعرف مدى تصميم الرجل على ما سأل، قال: هو ذاك، يعني ما أسألك غير هذا، قال: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»، يعني بكثرة النوافل، فانظر رعاك الله كيف استغل ربيعة ﵁ هذه الفرصة، والحياة فرص.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٩).

الصورة الرابعة:

[ذهب الأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إلى النبي ﷺ طلبًا لمياه الأمطار وتفجير الأنهار فاغتنموا دعاء النبي المختار ﷺ ففازوا بمغفرة العزيز الغفار]

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أَتَتِ الْأَنْصَارُ النَّبِيَّ ﷺ بِجَمَاعَتِهِمْ فَقَالُوا: إِلَى مَتَى نَنْزَعُ مِنْ هَذِهِ الْآبَارِ؟ فَلَوْ أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَدَعَا اللهَ لَنَا، فَفَجَّرَ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ عُيُونًا، فَجَاءُوا بِجَمَاعَتِهِمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَالَ: «مَرْحَبًا وَأَهْلًا، لَقَدْ جَاءَ بِكُمْ إِلَيْنَا حَاجَةٌ»، قَالُوا: إِي وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا إِلَّا أُوتِيتُمُوهُ، وَلَا أَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَانِيهِ»، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَقَالُوا: الدُّنْيَا تُرِيدُونَ؟! فَاطْلُبُوا الْآخِرَةَ، فَقَالُوا بِجَمَاعَتِهِمْ: يَا رَسُولَ اللهِ! ادْعُ اللهَ لَنَا أَنْ يَغْفِرَ لَنَا! فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَأَوْلَادِنَا مِنْ غَيْرِنَا، قَالَ: «وَأَوْلَادِ الْأَنْصَارِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَوَالِينَا، قَالَ: «وَمَوَالِي الْأَنْصَارِ» «إسناده جيد» رواه أحمد[١].

قال ملا علي القاري[٢] رَحِمَهُ اللهُ: «فَدَعَا لِأَهْلِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُرَادَ بِهِ أَبْنَاؤُهُمْ وَلَوْ بِوَسَائِطَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

فتأمل معي أيها المسلم الكريم حال الأنصار عندما ذهبوا إلى رسول الله ﷺ

---

(١) «مسند أحمد» (١٣٢٦٨)، وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «السلسلة الضعيفة» تحت حديث رقم (٦٣٩٩): «إسناده جيد، وهو على شرط مسلم»، وقال شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُ اللهُ في «تحقيق مسند الإمام أحمد»: «إسناده قوي»، وصححه شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيح المسند» (٢٧)، و«الجامع الصحيح» (٢/ ٥٤٢) رقم (١٥٥٧).

(٢) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٩/ ٤٠١١).

وهم يريدون الماء وهم في أشد الحاجة إليه، فلما أخبرهم النبي ﷺ أنه ما يسأل الله اليوم شيئًا إلا أعطاه، فقالوا بلسان الحال الحياة فرص، وحققوا ذلك بلسان المقال فقالوا: بل نريد المغفرة، فدعا لهم بالمغفرة، ولأهل القرون الثلاثة، بل وللموالي، فقد استغلوا حقًّا هذه الفرصة، فتركوا الدنيا وطلبوا الآخرة فكانت لهم الدنيا والآخرة.



الصورة الخامسة:

[من أجل الوصول للغاية بَاتَ الصحابة رضي الله عنهم يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى الراية]

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»، فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ»، فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» متفق عليه[١].

ففي هذا الحديث حرص الصحابة رضي الله عنهم على اغتنام الفرص واقتناصها، كل واحد منهم يريد أن ينال هذا الفضل العظيم، وهو تزكيته بكون الله تعالى يُحِبُّه، لأنه ليس الشأن أن المؤمن يحب الله ورسوله فهذا أمرٌ فطريّ، وإنما الشأن أن يُحِبُّه الله ورسوله، وهذا يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير واهتمامِهم به، ويدل كذلك على علو مراتبهم في العلم والإيمان.

(١) البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

الصورة السادسة:

[استشهاد سبعة من الأنصار ﵃ دفاعًا عن نبيهم المختار ﷺ ففازوا بمرافقته في دار الأبرار]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْش، فَلَمَّا أَرْهَقُوهُ قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَرْهَقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رفيقي فِي الْجَنَّةِ»، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ. رواه مسلم[١].

ففي هذا الحديث ضَمِنَ النبي ﷺ الجنة لمن يرد القوم عنه ﷺ، فتقافز سبعة من أبطال الأنصار كالأسود حتى قتلوا جميعًا دفاعًا عن نبيهم ﷺ، وحازوا بكل جدارة هذه الجائزة حين استغلوا هذه الفرصة العظيمة التي قد لا تتكرر لهم في موضع آخر، والحياة فرص.

والمواقف البطولية، والتضحيات العظيمة التي بذلها أصحاب محمد ﷺ في سبيل حمايته، والذود عنه كثيرة جدًّا، منها ما سطره التاريخ، وتناقلته الأجيال عبر العصور عن أولئك الصحب الكرام، الذين بذلوا من الأرواح والمهج ما لا يقدر عليه من بعدهم إلا من وفقه الله، فمنهم من كان يجود بنفسه من أجل حماية النبي ﷺ، ومنهم من كان يُعَذَّبُ عذابًا شديدًا، وعندما يسأله أحد المشركين - وهو أبو سفيان، قبل أن يُسْلِم -: أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ فأجابه قائلًا: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه

---

(١) مسلم (١٧٨٩).

الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي، قال يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا ﷺ[١].

بل إنهم كانوا يفدونه بآبائهم، وأعراضهم حتى سطر ذلك شعراؤهم، فقال حسان رضي الله عنه وهو أشعر شعرائهم:

فـإنّ أبـي ووالـده وعرضـي ... لعرض محمد منكم فداء[٢]

ومن ذلك ما فعله أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه في غزوة أحد، فقد كان يحمي رسول الله ﷺ، ويرمي بين يديه، وهو يقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تُشْرِف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك[٣].

وعن قيس بن أبي حازم رضي الله عنه قال: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبي ﷺ، يوم أحد[٤].

فهل بعد هذا الحب من حب؟ وهل بعد هذا البذل من بذل؟ وهل بعد هذه التضحية من تضحية؟

ألا خرصت ألسنٌ تتكلم في أصحاب النبي ﷺ، وشلت أيدي تكتب في ذم أصحاب رسول الله ﷺ، وأحرقت قلوب تُضمر وتُكنّ البغض والعداء لأصحاب رسول الله ﷺ.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٧٢)، والقصة على ما رواها ابن إسحاق، وهي في «صحيح البخاري» (٣٨٥٨) مع بعض اختلاف يسير، وانظر «البداية والنهاية» (٤/ ٦٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٤/ ٣١١).

(٣) رواه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١).

(٤) رواه البخاري (٤٠٦٣).

أولم تقرأ قوله ﷺ كما في المتفق على صحته[١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

ولكن قلوب القوم مليئة بالردة والنفاق، وبعيدة عن الإيمان والأخلاق، ظاهرها فيها الرحمة، وباطنها من قبله العذاب والسم الزعاف، ألا فلعنة الله المتتالية على من سب أصحاب النبي ﷺ.

وهذا الذي ذكرناه في عظيم حبهم للنبي ﷺ، وبذلهم وتضحيتهم في سبيل الدفاع عنه ﷺ، ما هو إلا فيض من غيض فضائلهم، وقطرة من بحار مزاياهم.

ألا فلنقتد - معشر المؤمنين - بالمؤمنين الأوائل، ولنقل كما قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

***

(١) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

الصورة السابعة:

[أنفق عثمان ﵁ ماله على الدوم فقال ﷺ:

«مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ»]

❁❁ ❁❁ ❁❁

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ ﵁ قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» مرَّتَيْنِ. «حسن» رواه أحمد والترمذي[١].

لا إله إلا الله، والله أكبر، هؤلاء الذين قدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، هكذا هي الحياة مواقف من الصدق، والبذل، والعطاء، والكرم، والجهاد بالمال والنفس، والحياة فرص، فإذا فاتت الفرصة ربما لن تعود مرة أخرى، فمن فرص الحياة أن يمر بك فقير وأنت تستطيع أن تحسن إليه فلا تحسن إليه فتفوتك فرصة من الفرص، أو أن يأتيك ضيف يقصدك ولا تكرمه فتفوتك فرصة من الفرص، أو أن يأتيك مظلوم أو مضطهد وأنت تستطيع أن تنصره ولا تنصره فتضيع عليك فرصة، فالكرماء وأصحاب النفوس العظيمة لا يرضون أن تفوتهم الفرص والمواقف، لأنهم يعلمون أن الحياة فرص، وأن الفرصة قد لا تتكرر في موقف آخر، وعثمان وما أدراك ما عثمان، إنه من هذا الطراز، سَبَّاق لكل خير، ومنفق من الدرجة الأولى، لقد جهز جيش العسرة،

(١) أحمد في «فضائل الصحابة» (٨٤٦)، و«سنن الترمذي» (٣٧٠١)، وحسنه الألباني ﵀ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٢٠)، و«مشكاة المصابيح» (٦٠٧٣)، واحتج به شيخنا مقبل ﵀ في كتابه «المصارعة» (ص:٢١٢).

واشترى بئر رومة وجعلها سبيلًا للمسلمين، وسارع للإنفاق في خلافة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أول من وسع مسجد رسول الله ﷺ حينما ضاق بأهله، فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

***

الصورة الثامنة:

[سباق شديد في استغلال الفرص بين فقراء الصحابة وأغنيائهم]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً»، قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» رواه مسلم[١].

انظروا أيها الناس كيف كان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يتنافسون ويتسابقون في فعل الخير، الأغنياء والفقراء، وعندما يرى أحدهم غيره يفعل خيرًا أكثر منه وهو لا يستطيع أن يدركه يحزن لأنه سيسبقه إلى الجنة، وصدق الله القائل: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

وهذا والله هو التنافس: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

أُولَئِكَ آبَائي فَجِئْني بِمِثْلِهِمْ ... إذا جَمَعَتْنا يا جَريرُ المَجَامِعُ

(١) مسلم (٥٩٥).

ففي هذا الحديث ذهب فقراء المهاجرين للنبي ﷺ وقالوا: ذهب أهل الدثور - أي أصحاب الأموال الكثيرة - بالأجور، كأن النظرة إلى أن الدرجات وزعت عليهم وضاعت منا، قال: «وَمَا ذَاكَ؟»، فقالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، لأنهم أصحاب أموال، فلما قالوا ذلك، قال لهم رسول الله ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟**»، يعني: أعلمكم شيئًا ينفعكم، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، «وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ»، قالوا: بلى يا رسول الله**!** قال: «**تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**»، فأخذها الفقراء فرصة، لأن الحياة فرص، فإذا انتهت الصلاة فإذا بالزجل والتسبيح والتهليل والتكبير، فسمعهم الأغنياء فقالوا للفقراء: ما هذا؟ فقالوا: ذهبنا للنبي ﷺ فقال: إذا قلتم بعد الصلاة كذا وكذا لا يسبقكم أحد إلا من فعل مثلكم، فأخذها الأغنياء وقالوا مثلهم، لأن الحياة فرص، فرجع الفقراء إلى النبي ﷺ، في المرة الأولى جاءوا يشتكون فأعطاهم الشيء الذي ينفع، ثم رجعوا إليه بشكوى جديدة، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**».



الصورة التاسعة:

[صحابي كريم خشي الفوت فطلب شملة النبي ﷺ لتكون كفنًا له بعد الموت]

عَنْ سَهْلِ بِن سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِبُرْدَةٍ، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقِيلَ لَهُ: نَعَمْ، هِيَ الشَّمْلَةُ مَنْسُوجٌ فِي حَاشِيَتِهَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي نَسَجْتُ هَذِهِ بِيَدِي أَكْسُوكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللهِ، اكْسُنِيهَا، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ، فَطَوَاهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ، لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ. رواه البخاري(١).

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة، وقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها يا رسول الله، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، لأن الإزار الذي كان يلبسه ﷺ مرقعًا، فاحتاج النبي ﷺ للباس وليس عنده ما يشتري به في ذلك الوقت، فأتته المرأة بهذه الهدية، فلبسها وخرج إلى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال سهل: فخرج إلينا وإنها لإزاره، فقال فلان: اكسنيها ما أحسنها! فَقَالَ: «نَعَمْ»، خلق عظيم رفيع من النبي ﷺ، وطيب قلب ليس له نظير، يكسي المحتاج وهو محتاج إليها، ثم يرجع إلى البردة الأخرى المرقعة فيلبسها مرة ثانية، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو لا يشتهي شيئًا من الدنيا، فقام من مجلسه ﷺ بعدما انتهى المجلس ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه بكل فرح وسرور.

---

(١) البخاري (٢٠٩٣).

فغضب الصحابة رضي الله عنهم وقالوا: ما أحسنت! لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها ثم سألته إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلًا! فقال الرجل: والله إني ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني، فقال سهل: فكانت كفنه رضي الله عنه.

فانظر إلى استغلال الفرص عند الصالحين الصادقين رضي الله عنهم جميعًا، وقد كانوا يحبون أن يتبركوا بأثر النبي ﷺ ولباسه الذي كان على جسده، فلو أنه طلب الأخرى المرقعة التي كان يلبسها النبي ﷺ ويجعلها كفنه كان أحسن، ولكن على كُلٍّ فهذا صنيعه رضي الله عنه وهذا كرم النبي ﷺ مع هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه.

***

الصورة العاشرة:

[قال الفاروق رضي الله عنه: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا]

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟»، فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا بِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «هِيَ النَّخْلَةُ»، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا. متفق عليه [(١)].

في هذا الحديث ذكر ابن عمر رضي الله عنهما أنهم كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ**»، أي منافعها كثيرة مثل المؤمن، فابن عمر رضي الله عنهما الطالب النجيب كان يستطيع أن يجيب، فقد وقع في نفسه أنها النخلة ولكنه لم يستغل هذه الفرصة، والحاضرون أخذوا يذكرون شجر البوادي شجرة شجرة، فلما لم يعرفوها أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنها النخلة.

ثم أخبر ابن عمر رضي الله عنهما أباه بما وقع في نفسه، وقال: إني استحييت أن أتكلم لما رأيت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يتكلمان، فقال عمر رضي الله عنه مشجعًا له: ليتك قلتها - أي واغتنمت الفرصة - لأن كنت قلتها أحب إلي من كذا وكذا، إنها فرصة ذهبية ذهبت، كان عمر رضي الله عنه يحب أن يبرز ابنه، وأن يظهر له فهم وإدراك بحضرة المعلم والأستاذ الكبير صلى الله عليه وسلم، وهكذا كل أب.

---

(١) البخاري (١٣١)، ومسلم (٢٨١١).

الصورة الحادية عشرة:

[قال ﷺ: «كَمْ مِنْ عِذقٍ دواحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا فمُرهُ يُعْطِينِي أُقِيمُ بِهَا حَائِطِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعْطِهِ إِيَّاهَا بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي فَفَعَلَ، فَأَتَى أَبُو الدَّحْدَاحِ النبي ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللهِ إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي وَقَدْ أعطيتُكها فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عِذقٍ دواحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» - مِرَارًا -، فَأَتَى أَبُو الدَّحْدَاحِ امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ فَقَدْ بِعْتُهُ بنخلةٍ فِي الجنة، فقالت: ربِح السّعرُ. «صحيح» رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، قال أبو الدحداح الأنصاري رضي الله عنه: وإن الله يريد منا القرض؟ فقال النبي ﷺ: «نعم يا أبا الدحداح»، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله رسول الله ﷺ يده، قال: فإني أقرضت ربي حائطي، قال: وحائطه له ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها، قال فجاء أبو الدحداح فنادى يا أم الدحداح! قالت: لبيك، قال: اخرجي من الحائط فإني أقرضته ربي عز وجل. «صحيح» رواه الطبراني وغيره[(٢)].

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٤٨٢)، و«صحيح ابن حبان» (٧١٥٩)، و«مستدرك الحاكم» (٢١٩٤) وغيرهم، وصححه الألباني رحمه الله في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٧١١٥)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٩٦٤)، وصححه شيخنا مقبل رحمه الله في «الصحيح المسند» (٣٢)، و«الجامع الصحيح» (٥/ ٥١٩) رقم (٣٩١٨)، و«ذم المسألة» (ص:٣٤).

(٢) الطبراني في «الكبير» (٧٦٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (١٢٠).

قلت: الله أكبر، ماذا خسر أبو الدحداح؟ خسر ترابًا، خسر شجيرات، خسر نخيلات في نظر بعض الناس.

لكنه فاز بجنة عرضها الأرض والسماوات ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ولا عجب إخواني في الله أن نجد في الجيل الأول من وصل إلى هذا المستوى العالي من الجود والكرم، فمنهم من يجود بماله كله في سبيل الله كما فعل أبو بكر ﷺ، ومنهم من يجود بنصف ماله كما فعل عمر ﷺ، ومنهم من يجهز جيشًا بأكمله كما فعل عثمان ﷺ، ومنهم من يتبرع بأنفس ممتلكاته كما فعل أبو الدحداح ﷺ الذي وهب أحسن بساتينه صدقة في سبيل الله، وغير هؤلاء الأجواد كثير ممن آثروا الآجلة على العاجلة، فنزلوا عن أموالهم وحظوظ أنفسهم لأجل الله سبحانه وتعالى.

ذلك أنهم كانوا صادقين مع الله ﷻ، دائمي الصلة به، ومن هنا كانوا يحققون هذه المعاني، فيترجمونها إلى واقع، ولا يكتفون بترددادها والتغني بها والتأثر بذكرها، كما نجد عليه معظم أغنياء اليوم.

قال في «موارد الظمآن»(١): «فتأمل قوة اليقين فيما عند الله كيف تعمل، وتأمل موقف زوجته من عمله هذا، ولو كانت من نساء هذا الزمان، لقالت: أنت مجنون، وأقلقت راحته، وأَلَّبَتْ عليه أولاده، وأمه وأباه، وقالت: خذوا على يديه، نسأل الله العافية».



---

(١) (٣/ ٦٨).

الصورة الثانية عشرة:

[اعْتَنَقَ الرسول ﷺ وَقَبَّلَ بَطْنَهُ]

عَدَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صُفُوفَ أَصْحَابِهِ يَومَ بَدْرٍ، وَفِي يَدِهِ قِدْحٌ يُعَدِّلُ بِهِ الْقَوْمَ، فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ رضي الله عنه، حَلِيفِ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ، وَهُوَ مُسْتَنْتِلٌ مِنَ الصَّفِّ، فَطَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَطْنِهِ بِالْقِدْحِ وَقَالَ: «اسْتَوِ يَا سَوَادُ»، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْجَعْتَنِي، وَقَدْ بَعَثَكَ اللهُ بِالْعَدْلِ فَأَقِدْنِي، فقال لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَقِدْ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ طَعَنْتَنِي وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ، فَكَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَطْنِهِ وَقال: «اسْتَقِدْ»، فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَ بَطْنَهُ وقَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقال: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ؟»، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، حَضَرَ مَا تَرَى، فَلَمْ آمَنِ الْقَتْلَ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْعَهْدِ بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَيْرٍ. «حسن» رواه ابن إسحاق وأبو نعيم وغيرهما[1].

العدل من الأخلاق الإسلامية الأساسية التي أمر الشرعُ بإقامتها في كلِّ الأحوال، ومع جميع الأشخاص، وفي كل الطبقات، والسيرة النبويَّة قدَّمت نماذجَ فريدة للعدل في السِّلم والحرب، ومن أمثلة العدل: ما حصل في غزوة بدر الكبرى في قصة عجيبة غريبة، وذلك حين وقف الرسول الكريم ﷺ يُعدِّل الصفوفَ بقَدَح في يديه «القدح: السهم» قبل بَدء المعركة، لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] وكان سَوادُ بن غزيَّة رضي الله عنه مُستنصِلًا

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ١٤٠٤)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٥٩٠)، وذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ١٨١)، وحسنه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٣٥).

من الصفِّ «أي متقدمًا عن الصف»، فطعنه الرسول ﷺ في بطنه قائلًا: «**اسْتَوِ يَا سَوَادُ**»، فقال سواد رضي الله عنه: يا رسول الله، أوجعتَني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدني «**أي أريد القصاص منك وأطعنك في بطنك كما طعنتني في بطني**»، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «**استَقِدْ**»، هنا اغتنم سواد رضي الله عنه الفرصة واعتنق الرسول ﷺ وقبَّل بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ ؟**»، قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يَمَسَّ جلدي جلدك، والحياة فرص.

تنبيه: حين طالب سواد بحقه في القَوَد والقِصاص لم يتردَّد القائد الأعلى للجيش - إن صح التعبير - ورسول رب العالمين في منْحهِ فرصة الاقتصاص، وإن لم يكن يَقصِد إيذاءه وإيجاعه من البداية، ليَضرِب بذلك مثلًا رائعًا للعدالة في الإسلام.



الصورة الثالثة عشرة:

[زاهر رضي الله عنه يحاول إلصاق ظهره بصدر النبي الطاهر صلى الله عليه وسلم]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم هَدِيَّةً مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيُجَهِّزُهُ النبي صلى الله عليه وسلم إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ»، وكان صلى الله عليه وسلم يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ لا يُبْصِرُهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ أَرْسِلْنِي، فالتفت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم فَجَعَلَ لا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حِينَ عَرَفَهُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ؟»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا وَاللهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: «لَكِنْ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ»، أَوْ قَالَ: «أَنتَ عِنْدَ اللهِ غَالٍ» «صحيح» رواه أحمد والترمذي وابن حبان وأبو يعلى وغيرهم[1].

هذا رجل من أهل البادية اسمه زاهر، وله من اسمه نصيب، فهو ذو روح طيبة وأخلاق رائعة تفوح منه كرائحة الزهور الأخاذة، وكان إذا جاء المدينة حمل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من باديته خيرها، لبنها، وسمنها، وزبدتها، ويقول: يا رسول الله هذه هدية زاهر إليك، فاقبلها منه تجبر خاطره، وتسعد قلبه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبتسم ويأخذها منه قائلًا: قد قبلناها منك يا زاهر، جزاك الله عن نبيه كل خير وأجزل لك ثوابه، فإذا أراد زاهر رضي الله عنه العودة إلى أهله جهزه النبي صلى الله عليه وسلم من الطرف والمستحسنات ما تقر بها عينه، جزاءً وفاقًا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ»، أي إذا جاء

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٦٤٨)، والترمذي في «الشمائل» (٢٢٩)، و«صحيح ابن حبان» (٥٧٩٠)، و«مسند أبي يعلى» (٣٤٥٦) وغيرهم، وصححه الألباني رحمه الله في «مختصر الشمائل» (٢٠٤)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٥٧٦٠).

الحضر ينزل عندنا، ونحن إذا نزلنا البادية ننزل عليه، وهو يأتينا بأشياء البادية ونحن نأتيه بأشياء الحاضرة، ويهدينا ونهديه.

وفي يوم من الأيام كان زاهر في السوق، ورآه النبي ﷺ فجاءه من خلفه دون أن يحس به وغمى له عينيه، كما نفعل نحن مع بعضنا مزاحًا، وجعل النبي ﷺ ينادي ويقول: «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ ؟**»، وزاهر رضي الله عنه يعرف صوت النبي ﷺ، فلما عرف أنه النبي ﷺ الذي يغميه اهتبل هذه الفرصة الثمينة، والحياة فرص، فجعل لا يألو - أي: لا يقصر أن يلصق ظهره ببطن النبي ﷺ - والنبي ﷺ يقول مازحًا: «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ ؟**»وكلنا عبيد لله، فقال: يا رسول الله، إذًا تجدني كاسدًا - أي: بضاعة لا قيمة لها ـ، فقال له النبي ﷺ: «**لَكِنْ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ**».

إخواني في الله، انظروا إلى حسن تواضع نبي الأمة محمد ﷺ وعدله في التعامل وعدم التفرقة بين فقير وغني، وعبد وحر، وجميل وقبيح، فقد كان ﷺ قدوة حسنة في فن التعامل وحسن التصرف مع الآخرين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

❊❊❊

الصورة الرابعة عشرة:

[قال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» متفق عليه(١).

الله أكبر، يريد الصِّدِّيق الأكبر شيخ الإسلام أبو بكر رضي الله عنه أن يُدعى من أبواب الجنة الثمانية.

قال ابن القيم رحمه الله في أبي بكر رضي الله عنه (٢):

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلَّلِ   تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

هو يريد المركز الأول في كل شيء، إن كان في الصلاة فهو من العُبَّاد المكثرين، وإن كان في الجهاد فهو محل الصدارة ومن القادة الفاتحين، وهو المَوْجَه الخطيرة والسيف الشهير على أعداء الله، وإن كان في الصدقة فهو الباذل الكريم الذي أنفق جميع أمواله في خدمة الدين، وإن كان في الصيام فهو صاحب الهواجر، وله الصدارة في كل طاعة وبر، وانظر إلى همته العالية حين سمع النبي ﷺ يقول: إن للجنة ثمانية

---

(١) البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٣٨).

أبواب، انتهز هذه الفرصة بسرعة البرق قائلًا: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، هنا تبسم ﷺ تبسم المُعْجَب وقال: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**».

الله أكبر، فهذه بشارة لأبي بكر رضي الله عنه بأنه سيدخل من أبواب الجنة الثمانية، لأن رجاء الرسول ﷺ عند ربه محقق، فالصِّدِّيق رضي الله عنه ممن اغتنم الفرص وبادر وسابق في كل خير، ومن كان كذلك تقدَّم على غيره مراحِل ومراتِب، فالسابِقون الأولون من المُهاجِرين والأنصار أفضلُ من غيرهم ممن جاء بعدَهم، ولأهل بدرٍ من هؤلاء ما ليس لغيرِهم، ولمن أسلمَ من قبل الفتح وهاجَر وجاهَدَ بمالِه ونفسِه من الفضل ما ليس لمن فعلَ هذا بعد الفتح، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠-١٤].

❊❊❊

الصورة الخامسة عشرة:

[قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعُمَيْرِ بن الحُمَام: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»]

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ. رواه مسلم[1].

حين سمع عمير بن الحُمَام رضي الله عنه قول النبي ﷺ:«قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، هنا قال عمير بن الحمام رضي الله عنه: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا».

الله أكبر، لقد انتهز الفرصة الثمينة وشهد له النبي ﷺ بالجنة، حينها تقدم عمير رضي الله عنه بشجاعة وظل يقاتل محتسبًا لوجه الله تعالى، مقبلًا غير مُدْبِر، حتى لقي ربه، مسارعًا إلى موعود الله تعالى بالجنة، فلا تباطؤ عنده ولا توان، ولا نظر إلى الدنيا وزينتها، ولا تفكير في الأهل والعشيرة، ليس في قلبه إلا الله تعالى والدار الآخرة، فكان رضي الله عنه أول شهيد من الأنصار في غزوة بدر، قال عاصم بن عمر بن قتادة رحمه الله:

---

(١) مسلم (١٩٠١).

أول قتيل قُتِل من الأنصار في الإسلام عُمير بن الحُمَام[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ [٢]: وقد ذكر ابن جرير أن عميرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاتل وهو يقول:

رَكْضًا إلى اللهِ بِغَيْرِ زَادِ ... إلاَّ التُّقَى وعَمَل الْمَعَادِ

والصَّبْرِ في اللهِ عَلى الْجِهَادِ ... وكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ

غَيرَ التُّقَى والبِرِّ والرَّشَادِ

❊❊❊

(١) «صفة الصفوة» (١/ ١٨٥).

(٢) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٧٧).

الصورة السادسة عشرة:

[جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بن ثَابِت رضي الله عنه بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ]

عَنْ عُمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ أَنَّ عَمَّهُ حَدَّثَهُ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَشْيَ وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ، فَيُسَاوِمُونَهُ بِالْفَرَسِ وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ، فَنَادَى الْأَعْرَابِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسِ وَإِلَّا بِعْتُهُ؟ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ: «أَوْ لَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟» فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا، وَاللهِ مَا بِعْتُكَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلَى، قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ»، فَطَفِقَ الْأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيدًا، فَقَالَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: «بِمَ تَشْهَدُ؟»، فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ. «صحيح» رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم[1].

خلاصة هذه القصة:

أنه جاء أعرابي فباع للنبي ﷺ فرسًا، ثم أعطاه الناس فيه ثمنًا أغلى مما أعطاه النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أَوْ لَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟» قال: لا ما بعت لك، عليَّ بشاهد - يعني: ائت بشهود يشهدون أنني قد بعت لك هذا الفرس - فقام خزيمة بن

(١) «مسند أحمد» (٢١٨٨٣)، و«سنن أبي داود» (٣٦٠٧)، و«سنن النسائي» (٦١٩٨)، و«مستدرك الحاكم» (٢١٨٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٠٧)، و«صحيح سنن النسائي» (٤٦٤٧)، و«الإرواء» (١٢٨٦)، وشيخنا الوادعي رحمه الله في «الصحيح المسند» (١٥١٢)، وفي «تعليقه على تفسير ابن كثير» (١/ ٦١٩).

ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستغل هذه الفرصة الثمينة، والحياة فرص، فقال: أنا أشهد أن رسول الله ﷺ قد اشترى منك هذا الفرس، وخزيمة لم يحضر البيع، فتعجب رسول الله ﷺ منه، فما كان هناك ثمة أحد يجلس بين رسول الله ﷺ وبين الأعرابي في البيع والشراء؟ فقال له: يا خزيمة! كيف تشهد على شيء لم تره أو تشهده، فقال له: يا رسول الله! أُصَدِّقُكَ في خبر السماء، ألا أُصَدِّقُكَ في خبر البيع والشراء، فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين، وتشرَّف خزيمة دون غيره من الحضور بوضع هذا الوسام على صدره، لأنه استغل الفرصة، والحياة فرص، وكانت منقبة عظيمة لخزيمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأنه أدرك أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى بحال من الأحوال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «إعلام الموقعين»[(١)]: «فصل: سِرُّ تَخْصِيصِ خُزَيْمَةَ بِقَبُولِ شَهَادَتِهِ وَحْدَهُ».

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَجَعَلَ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ بِشَهَادَتَيْنِ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ» فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ، وَلَوْ شَهِدَ عِنْدَهُ ﷺ، أَوْ عِنْدَ غَيْرِهِ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ شَاهِدَيْنِ اثْنَيْنِ، وَهَذَا التَّخْصِيصُ إنَّمَا كَانَ لِمُخَصِّصٍ اقْتَضَاهُ، وَهُوَ مُبَادَرَتُهُ دُونَ مَنْ حَضَرَ مِنْ الصَّحَابَةِ إلَى الشَّهَادَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ الْأَعْرَابِيَّ، وَكَانَ فَرَضَ عَلَى كُلِّ مَنْ سَمِعَ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ بَايَعَ الْأَعْرَابِيَّ، وَذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ وَالشَّهَادَةِ بِتَصْدِيقِهِ ﷺ، وَهَذَا مُسْتَقِرٌّ عِنْدَ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَلَكِنَّ خُزَيْمَةَ تَفَطَّنَ لِدُخُولِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْمُعَيَّنَةِ تَحْتَ عُمُومِ الشَّهَادَةِ لِصِدْقِهِ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ بِهِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللهِ وَبَيْنَ مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ فِي صِدْقِهِ فِي هَذَا وَهَذَا، وَلَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إلَّا بِتَصْدِيقِهِ فِي هَذَا وَهَذَا، فَلَمَّا تَفَطَّنَ خُزَيْمَةُ دُونَ مَنْ حَضَرَ لِذَلِكَ اسْتَحَقَّ أَنْ تُجْعَلَ شَهَادَتُهُ بِشَهَادَتَيْنِ».

---

(١) (٢/ ٩٠).

الصورة السابعة عشرة:

[دعا الرسول ﷺ لعروة البارقي رضي الله عنه بالبركة حتى كان لو اشترى التراب لربح فيه]

عَنْ عُرْوَةَ بنَ أَبِي الْجَعْدِ الْبَارِقِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْطَاهُ دِينَارًا يَشْتَرِي لَهُ بِهِ شَاةً، فَاشْتَرَى لَهُ بِهِ شَاتَيْنِ، فَبَاعَ إِحْدَاهُمَا بِدِينَارٍ، وَجَاءَهُ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ، فَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ فِي بَيْعِهِ، وَكَانَ لَوِ اشْتَرَى التُّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ. رواه البخاري[1].

أعطى النبي ﷺ لعروة البارقي رضي الله عنه دينارًا واحدًا ليشتري له به شاة واحدة، فذهب الذكي الألمعي الخبير في البيع والشراء، فوجد فرصة سانحة في السوق فاستغلها، والحياة فرص، فاشترى بالدينار الواحد شاتين اثنتين، ثم باع واحدة في السوق بدينار ورجع إلى النبي ﷺ بدينار وشاة، فدعا له النبي ﷺ بسبب صدقه في المعاملة، فكان رضي الله عنه بعد هذا الدعاء لا يُضارب في صفقةٍ إلاَّ ربح فيها، حتى اعتقد الصحابة رضي الله عنهم أنه لو باع التراب لربح فيه.

وفي رواية أنه ﷺ قال: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَهُ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ**»، **يَقُولُ عُرْوَةَ** رضي الله عنه: **فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَقِفُ بِكُنَاسَةِ الْكُوفَةِ، فَأَرْبَحُ أَرْبَعِينَ أَلْفًا قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى أَهْلِي، وَكَانَ يَشْتَرِي الْجَوَارِيَ وَيَبِيعُ.** «صحيح» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والطبراني[2].

---

(١) البخاري (٣٦٤٢).

(٢) «مسند أحمد» (١٩٣٦٢)، و«سنن أبي داود» (٣٣٨٥)، و«سنن الترمذي» (١٢٥٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢٤٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٤٢١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٨٤)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٠١٠)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٦٠)، و«الإرواء» (١٢٨٧)، وحسنه شيخنا مقبل الوادعي في «الصحيح المسند من دلائل النبوة» (٢٦٤).

الله أكبر، من عاشَ وهو مِضْياعٌ لفرصتِه قاسى الأسى وأدمى كفَّه الندمُ[(١)]

إخواني في الله: إن البحث عن الفرص الجيدة في كل مجال وعمل فيه لذة ونشوة وتحقيق ذات، فوق ما فيه من كسب ونجاح وتفوق، إنه خيرٌ من الراحة والدعة والكسل، إنه هو الراحة الحقيقية، أما الكسل فهو مقبرة المواهب، والثقة بالنفس مقبرة السعادة أحيانًا، فالواجب على الإنسان أن يستغل كل فرصة دينية أو دنيوية يستعين بها على طاعة الله.

قال ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه[(٢)].

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

لكن يجب التحذير من اغتنام الفرص الدنيوية الزائلة، وإهمال اغتنام الفرص الأخروية الباقية، فهي الباقيات الصالحات.

***

(١) «مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي» (٣/ ٥٠).
(٢) مسلم (٢٦٦٤).

الصورة الثامنة عشرة:

[عبد الله بن الزبير ﵁ يشرب دم النبي ﷺ]

قَالَ هُنَيْدُ بْنُ الْقَاسِمِ: سَمِعْتُ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ يُحَدِّثُ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَحْتَجِمُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «يَا عَبْدَ اللهِ، اذْهَبْ بِهَذَا الدَّمِ فَأَهْرِقْهُ حَيْثُ لا يَرَاكَ أَحَدٌ»، فَلَمَّا بَرَزْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَمَدْتُ إِلَى الدَّمِ فَحَسَوْتُهُ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا صَنَعْتَ يَا عَبْدَ اللهِ؟»، قَالَ: جَعَلْتُهُ فِي مَكَانٍ ظَنَنْتُ أَنَّهُ خَافٍ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: «فَلَعَلَّكَ شَرِبْتَهُ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «وَمَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَشْرَبَ الدَّمَ؟ وَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ، وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ» «حسن» رواه البزار والطبراني والحاكم وأبو نعيم[(١)].

---

(١) ورد في شرب دم النبي ﷺ أحاديث كثيرة لا تخلو من مقال، وهذا أصحها، أخرجه البزار (٣/ ١٤٥/ ٢٤٣٦)، والطبراني (١٤/ ١٩٦)، والحاكم (٣/ ٥٥٤)، وأبو نعيم (١/ ٣٢٩ - ٣٣٠) وغيرهم من طريق هُنَيْد بن القاسم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عنه، وقد صحَّح هذا الحديث جمع من العلماء:

أولًا: صححه الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٧٠) حيث قال: «رواه الطبراني والبزار باختصار، ورجال البزار رجال الصحيح غير هنيد بن القاسم وهو ثقة».

ثانيًا: حسنه الحافظ السيوطي في «الخصائص الكبرى» (٢/ ٢٥٢).

ثالثًا: حسنه الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (١/ ٣٠) حيث قال: «وفي إسناده الهنيد بن القاسم لا بأس به، لكنه ليس بالمشهور بالعلم».

ثم ذكر الحافظ: أن للحديث شاهدين، وانظر: «الإصابة» (٢/ ٣٠٢) له أيضًا.

رابعًا: حسنه البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٤/ ٤٣٤).

خامسًا: حسنه محققوا «المطالب العالية» بإشراف الشيخ الشثري، فقد جمعوا رواياته وشواهده وحكموا عليه بالحسن.

تنبيه: الدم المسفوح من المحرمات النجسة، وقد جاء الدليل من الكتاب والسنة والإجماع على =

كان عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جنينًا مباركًا في بطن أمه، وهي تقطع الصحراء اللاهبة مغادرة مكة إلى المدينة على طريق الهجرة العظيم، وما كادت أمه أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها تبلغ قباء عند مشارف المدينة حتى جاءها المخاض، ونزل المهاجر الجنين إلى أرض المدينة في نفس الوقت الذي كان ينزلها المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ، وحُمِلَ أول مولود في الهجرة إلى رسول الله ﷺ في داره بالمدينة فقبّله وحنّكه، وكان أول شيء دخل جوف عبد الله بن الزبير ريق النبي الكريم ﷺ، ثم بعد سنين ألحق الدم بالريق، نور على نور، واحتشد المسلمون في المدينة، وحملوا الوليد في مهده، ثم طافوا به في شوارع المدينة كلها مهللين مكبّرين ذلك أن اليهود حين نزل الرسول ﷺ وأصحابه المدينة كبتوا واشتعلت أحقادهم، وبدأوا حرب الأعصاب

=

ذلك، يقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥]

قال الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٥٣): «الرجس: النجس والنتن» انتهى.

أما السنة: فعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جَاءَت امرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَت: إِحدَانَا يُصِيبُ ثَوبَهَا مِن دَمِ الحَيضَةِ كَيفَ تَصنَعُ بِهِ؟ قَالَ: تَحُتُّهُ ثُمَّ تَقرُصُهُ بِالمَاءِ ثُمَّ تَنضَحُهُ ثُمَّ تُصَلِّي فِيهِ. رواه البخاري (٢٢٧)، ومسلم (٢٩١).

وقد بَوَّبَ عليه البخاري «باب غسل الدم»، كما بوب عليه النووي «باب نجاسة الدم وكيفية غسله».

وأما الإجماع: فقال النووي: «الدم نجس، وهو بإجماع المسلمين» انتهى.

ونقله أيضا القرطبى في تفسيره (٢/ ٢١٠) وابن رشد في بداية المجتهد (١/ ٧٩).

فكيف يوفق العلماء بين ما تقرر من نجاسة الدم، وبين شرب عبد الله بن الزبير دم النبى ﷺ؟

قالوا: هذا من خصوصيات النبى ﷺ التى انفرد بها في الحكم عن سائر الأمة، وهى خصوصيات كثيرة جمعها أهل العلم في مجلدات، مثل الإمام السيوطى في كتابه «الخصائص الكبرى»، فقد نص بعض أهل العلم على طهارة دمه الشريف ﷺ اعتمادًا على قصة عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

ضد المسلمين، فأشاعوا أن كهنتهم قد سحروا المسلمين وسلطوا عليهم العقم، فلن تشهد المدينة منهم وليدًا جديدًا، فلما أهلّ عبد الله بن الزبير عليهم، كان وثيقة دمغ الله بها إفك يهود المدينة وأبطل كيدهم وما كانوا يفترون.

إنَّ عبد الله لم يبلغ مبلغ الرجال في عهد رسول الله ﷺ ولكنه تلقى من ذلك العهد ومن الرسول ﷺ نفسه بحكم اتصاله الوثيق به كل خامات رجولته ومبادئ حياته وذكاءه وشجاعته، لقد راح الطفل ينمو نموًّا سريعًا، وكان خارقًا في حيويته، وفطنته وصلابته وذكائه وشجاعته، وفي يوم من الأيام احتجم النبي ﷺ ثم أعطى دم الحجامة لهذا الصبي الذكي ليدفنه في الأرض، فما كان من عبد الله بن الزبير إلا أنه انتهز هذه الفرصة الثمينة التي قد لا تعوض، وحياة القوم كلها فرص، فشرب الدم النبوي الزكي الطاهر ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال له ﷺ: «**مَا صَنَعْتَ يَا عَبْدَ اللهِ؟**»، قَالَ: جَعَلْتُهُ فِي مَكَانٍ ظَنَنْتُ أَنَّهُ خَافٍ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: «**فَلَعَلَّكَ شَرِبْتَهُ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**وَمَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَشْرَبَ الدَّمَ؟ وَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ، وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْك**»[(١)].

---

(١) «ويل» للتحسّر والتألم، «لك من الناس» إشارة إلى محاصرته وتعذيبه وقتله وصلبه على يد الحجَّاج، «وويل للناس منك» لما أصابهم من حربه، ومحاصرة مكة بسببه، وقتل من قتل، وما أصاب أمه وأهله من المصائب، وما لحق قاتليه من الإثم العظيم، وتخريب الكعبة، وسُئِلَ الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عن الحكمة في تنوع القول لابن الزبير ومالك بن سنان مع اتحاد السبب، فأجاب بأنَّ ابن الزبير شرب دم الحجامة، وهو قدر كثير يحصل به الاغتذاء، وقوة جذب المحجمة تجلبه من سائر العروق، أو كثير منها.

فعلم ﷺ أنه يسري في جميع جسده، فتكتسب جميع أعضائه منه قوى من قوى النبي ﷺ، فتورثه غاية قوة البدن والقلب، وتكسبه نهاية الشهامة والشجاعة، فلا ينقاد لمن هو دونه بعد ضعف العدل، وقلة ناصره، وتمكُّن الظلمة، وكثرة أعوانهم، فحصل له ما أشار إليه ﷺ من تلك الحروب الهائلة التي تنتهك بها حرمته الناشئة من حرمته ﷺ، وحرمة البيت العتيق، فقيل له: ويل له، لقتله وانتهاك حرمته، وويل لهم، لظلمهم وتعديهم عليه. انتهى بتصرف يسير من «شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٥/ ٥٤٦-٥٤٧).

والصحابة رضي الله عنهم قد سبقوا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه فتبركوا بالنبي ﷺ، فكانوا يتسابقون على قطرات الماء المتساقطة من وضوئه ﷺ ليشربوها[١].

وكانوا يتسابقون على النخامة تخرج من فمه الشريف ليمسحوا بها جلودهم[٢]، وكانت بعض النساء تأخذ عرقه الشريف لتدوف - تخلط - به طيبها[٣]، وكان بعضهم يحتفظ بشعرات من شعره[٤]، وكان بعضهم يحتال حتى يمس بطن النبي ﷺ أو صدره[٥]، وكانوا يغسلون جبة النبي ﷺ للمرضى يستشفى بها[٦].

كل هذه الفرص استغلها الصحابة رضي الله عنهم.

❋❋❋

---

(١) البخاري (٢٧٣١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) البخاري (٦٢٨١).

(٤) المرجع السابق.

(٥) «مسند أحمد» (١٢٦٤٨)، والترمذي في «الشمائل» (٢٤٠)، و«صحيح ابن حبان» (٥٧٩٠)، و«مسند أبي يعلى» (٣٤٥٦) وغيرهم، وصححه الألباني رحمه الله في «مختصر الشمائل» (٢٠٤)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٥٧٦٠).

(٦) مسلم (٢٠٦٩).

الصورة التاسعة عشرة:

[كأنها موعظة مودع فأوصنا]

عن العِرباض بنِ ساريةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وعَظنا رسولُ الله ﷺ موعظةً وَجِلتْ منها القلوبُ، وذَرَفَتْ منها العيونُ، فقلنا: يا رسولَ الله! كأنها موعظةُ مودِّعٍ فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى اللهِ، والسمع والطاعةِ، وإنْ تَأمَّر عليكم عبدٌ، فإنَّه من يعِشْ منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنةِ الخلفاء الراشدين المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عليها بالنواجذِ، وإيَّاكم ومحدَثات الأمور، فإن كلَّ بدعة ضلالةٌ» «صحيح» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان[1].

قلت: وعظ النبي ﷺ يومًا أصحابه موعظة بليغة سالت منها الدموع من العيون، وخافت منها القلوب خوفًا شديدًا لشدة تأثيرها في النفوس، فتنبه الصحابة الأطهار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعلموا بحقيقة الموقف، وأدركوا ما عليه رسول الله ﷺ فاستغلوا هذه **الفرصة** فقالوا: كأنها موعظة مودع - يا رسول الله - فأوصنا!

الله أكبر، هذا هو المطلب الحقيقي، وهذا هو الفقه والإيمان، وهكذا فلتُسْتَغَل **الفرص**، فإنهم أدركوا حالة رسول الله ﷺ المغايرة للحالات السابقة معهم، فطلبوا الزيادة فأجابهم قائلًا: «أوصيكم بتقوى الله»، والوصية لا تنطلق إلا عن شفقة ورأفة

(١) «مسند أحمد» (١٧١٤٤)، و«سنن أبي داود» (٤٦٠٧)، و«سنن الترمذي» (٢٦٧٦)، و«سنن ابن ماجه» (٤٢)، و«صحيح ابن حبان» (٥)، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٤٦٠٧)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢١٥٧)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٥)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧٣٥)، وحسنه شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيح المسند» (٩٢١)، و«الصحيح المسند من دلائل النبوة» (٦٢٣).

من المُوْصِي إلى المُوْصَى إليه، لهذا فقد جمع ﷺ في هذه الوصية خيري الدنيا والآخرة، كما قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، وهذه بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء كما يقول الراوي: «كأنها موعظة مودع»، والمودع يختصر القول؛ لأنه مقبل على سفر؛ فلذا جمع ﷺ ما يريد أن يلقيه إلى الأمة في تلك اللحظات الحرجة في كلمات معدودة فقال: «**أوصيكم بتقوى الله**» أي: استجابة لطلبكم أوصيكم، وحينئذ تنفع الوصية، وتقع وتستقر في القلوب، لأنهم هم الذين طلبوها منه.

فينبغي للداعية ولطالب العلم أن يتحين المواعظ عند مناسبتها، حتى يجد آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، قال ﷺ: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة...**» والوصية بالتقوى هي وصية الله للأولين والآخرين، ثم أوصاهم أن يسمعوا ويطيعوا لولاة الأمور، وأن يتمسكوا بسنته وسنة الخلفاء الراشدين، وأن يبالغوا في التمسك بها بكل ممكن وبكل سبب، وأن لا يَتَّبِعُوا آراء أهل البدع والأهواء والمقاصد الفاسدة، فإن من اتبع هؤلاء فقد ضل ضلالًا مبينًا.



(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٧٦٧).

الصورة العشرون:

[قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ، مَا أَسَرَّتْ وَمَا أَعْلَنَتْ»]

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: لَمَّا رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ طِيبَ نَفْسٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لِي، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ، مَا أَسَرَّتْ وَمَا أَعْلَنَتْ»، فَضَحِكَتْ عَائِشَةُ حَتَّى سَقَطَ رَأْسُهَا فِي حِجْرِهَا مِنَ الضَّحِكِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيَسُرُّكِ دُعَائِي؟»، فَقَالَتْ: وَمَا لِي لا يَسُرُّنِي دُعَاؤُكَ؟ فَقَالَ ﷺ: «وَاللهِ إِنَّهَا لَدَعْوَتِي لِأُمَّتِي فِي كُلِّ صَلَاةٍ» «حسن» رواه البزار وابن حبان[1].

انظر – رحمك الله – إلى عائشة رضي الله عنها العالمة الذكية كيف استغلت فرصة طيب نفس النبي ﷺ، وانشراح صدره، وفرحه وسروره، فطلبت منه هذا الطلب العظيم، وهو الدعاء لها بالمغفرة، فقَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ، مَا أَسَرَّتْ وَمَا أَعْلَنَتْ».

وهذا لا يستغرب من عائشة رضي الله عنها، فهي كما قال الإمام الذهبي[2] رحمه الله: «بِنْتُ الإِمَامِ الصِّدِّيْقِ الأَكْبَرِ خَلِيْفَةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، القُرَشِيَّةُ التَّيْمِيَّةُ، المَكِّيَّةُ، النَّبَوِيَّةُ، أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ، زَوجَةُ النَّبِيِّ ﷺ، أَفْقَهُ نِسَاءِ الأُمَّةِ عَلَى الإِطْلَاقِ».

قد حازت الفضل من كل جوانبه ونالت الشرف من سائر وجوهه، وقد قال أهل السير في وصفها أمورًا وأوصافًا كثيرة، وأفاض في ذلك ابن كثير رحمه الله في «البداية

(١) «مسند البزار» (٢٦٥٨)، و«صحيح ابن حبان» (٧١١١)، وحسنه الألباني رحمه الله في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٧٠٦٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٢٥٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٣٥).

والنهاية»[١] عندما ترجم لها في سَنَة وفاتها، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِيقِ، وزوجة رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَحَبُّ أَزْوَاجِهِ إِلَيْهِ، الْمُبَرَّأَةِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها، وَأُمُّهَا هِيَ أُمُّ رُومَانَ بِنْتُ عَامِرِ بْنِ عُوَيْمِرٍ الْكِنَانِيَّةُ، تُكَنَّى عَائِشَةُ بِأُمِّ عَبْدِ اللهِ، قِيلَ كَنَّاهَا بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِابْنِ أُخْتِهَا عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَقِيلَ إِنَّهَا أَسْقَطَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُقْطًا فَسَمَّاهُ عَبْدَ اللهِ».

ومن خصائص عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا التي ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك[٢]:

(١) لم يتزوج رسول الله ﷺ بكرًا غيرها.

(٢) لم ينزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها.

(٣) لم يكن في أزواجه أحب إليه منها.

(٤) قد أتاه الملك بها في المنام في سرقة من حرير مرتين أو ثلاثًا، يقول له: هذه زوجتك، فتزوج منها بأمر الله ووحي الله سبحانه وتعالى.

(٥) أنها كان لها في القسم يومان، يومها ويوم سودة حين وهبتها ذلك تقربًا إلى رسول الله ﷺ .

(٦) أنه مات في يومها وفي بيتها، وبين سحرها ونحرها ﷺ، وجمع إليه بين ريقه وريقها في آخر ساعة من ساعات الدنيا له ﷺ، وأول ساعة من ساعات الآخرة، ثم دفن في بيتها.

(٧) أنها أعلم نساء النبي ﷺ، بل هي أعلم نساء الأمة على الإطلاق بلا نزاع في ذلك بين أهل العلم، وقد قال أهل العلم في وصف علمها شيئًا كثيرًا.

---

(١) «البداية والنهاية» (٨/ ٩١).

(٢) المرجع السابق.

الصورة الحادية والعشرون:

[المرأةُ السوداءُ تصبر على المرض والبلاء للفوز بجنة عرضها الأرض والسماء]

عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ لِي ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلَا أريك امْرَأَة من أهل الْجنَّة؟ فَقلت: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أصرع وَإِنِّي أتكشف فَادع الله تَعَالَى لي، قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْت الله تَعَالَى أَنْ يُعَافِيَكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ أَنْ لا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا. متفق عليه[(١)].

انظروا إلى هذه المرأة اختارتِ الصبرَ على شدائد المرض مقابلَ الجنة، لأن الحياة فرص، وانظر إلى شرفها وعفتها رغمَ أنَّها رَبِحت الصفقةَ، إلا أنها لا تُريد أن تتكشَّف، لا تريد أن يراها أجنبي، وهي مريضة وفي طريقِها إلى جنة ربِّها لكن لأنها مؤمنة، صادقة، محتشمة، عفيفة، تحب الحجاب، تحبُّ الالتزام، تحبُّ الإسلام، طلبت أن لا تتكشف وهي تصرع، إنه درس متجدِّد مع تجدُّدِ الأيام لكل العفيفات.

❊❊❊

(١) البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

الصورة الثانية والعشرون:

[قال ﷺ لأم حرام رضي الله عنها: «أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ»]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَتْنِي أُمُّ حَرَامٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا فِي بَيْتِهَا، فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا يُضْحِكُكَ؟ قَالَ: «عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ البَحْرَ كَالْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتِ مِنْهُمْ»، ثُمَّ نَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَيَقُولُ: «أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ»، فَتَزَوَّجَ بِهَا عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، فَخَرَجَ بِهَا إِلَى الغَزْوِ، فَلَمَّا رَجَعَتْ قُرِّبَتْ دَابَّةٌ لِتَرْكَبَهَا، فَوَقَعَتْ، فَانْدَقَّتْ عُنُقُهَا. متفق عليه[1].

مات الرسول ﷺ فضاقت الدنيا بكل ما فيها على أم حرام، وحزنت على وفاة الحبيب ﷺ حزنًا شديدًا، كاد الحزن أن يمزق قلبها، وظلت على العهد بعد وفاته ﷺ عابدة لله عز وجل وتبحث عن الشهادة التي بشرها بها الحبيب ﷺ، وعن الفرصة التي أخذتها من فم النبي ﷺ حين قال: «أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ البَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا»، **أي وجبت لهم الجنة، قالت أم حرام: يا رسول الله ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِيَ مِنْهُمْ، استغلت الفرصة، والحياة فرص**، فَقَالَ: «أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ».

وجاء اليوم الموعود وركبت أم حرام البحر مع زوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنهما، فلما رجعوا قُرِّبَت لها بغلة لتركبها فصرعتها فدقت عنقها فماتت رضي الله عنها، فكانت أول مجاهدة في البحر، وأول من غزا في البحر الأبيض من النساء.

---

(١) البخاري (٢٨٩٤)، ومسلم (١٩١٢).

الفصل الثالث

صور من روائع التابعين والسلف الصالح لاغتنام الفرص

الصورة الأولى:

[زدني ضربًا وزدني حديثًا]

ذكر أهل السير والتراجم[(١)]: أن هشام بن عمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان شغوفًا بطلب العلم الشرعي، علم الحديث، وهو صغير السن، وكان معاصرًا للإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فجاءه في رحلة شاقة طويلة من دمشق إلى المدينة حيث الإمام مالك، فاسمع لها يا طالب العلم وعِهَا فلعل لك فيها عظة وعبرة، فعن محمد بن الفيض الغساني، قال: سمعت هشام بن عمار يقول: باع أبي بيته بعشرين دينارًا وجهزني للحج وطلب العلم، قال: فتوجهت من دمشق تاركًا أهلي ووطني رغبة في الحج إلى بيت الله، ولقاء الأئمة، أمثال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، قال: فلما صرت إلى المدينة أتيت مجلس الإمام مالك، ومعي مسائل – أعدَّ مسائل يريد أن يسأل الإمام مالك عنها – قال: وأريد مع ذلك أن يحدثني، قال: فأتيته وهو جالس في هيئة الملوك، وغلمانه قيام حوله، والناس يسألونه ويجيبهم، يتدفق كالبحر.

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجَعُ هَيْبَةً ... وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ
أَدَبُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى ... فَهُوَ المُطَاعُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٢٨)، و«تهذيب الكمال» (٣٠/ ٢٥٢)، و«تاريخ دمشق» (٧٤/ ٣٣)، و«معرفة القراء الكبار» (ص:١١٧)، و«الكواكب النيرات» (ص:٤٢٩).

قال: فلما انقضى المجلس قمت لأسأله وأطلب أن يحدثني، فاستصغرني ورآني لست أهلًا للرواية، فقال: حصَّلنا على الصبيان - يعني أنه لم يبقَ إلا الصبيان والصغار نحدثهم - ثم قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا غلام - لأحد غلمانه الذين حوله - : احمله، قال: فحملني كما يُحْمل الصبي وأنا يومئذ غلام مدرك فأخرجني.

وفي رواية أخرى، يقول ابن جزرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخل هشام ذات يوم على الإمام مالك بغير إذن، وقال له: حدثني، فرفض الإمام مالك، يقول هشام: فكررت عليه وراددته، فقال لغلامه: خذ هذا واضربه خمسة عشر سوطًا، قال: فأخذه وذهب به وضربه خمسة عشر سوطًا، فوقف يبكي على الباب حتى خرج الإمام مالك فإذا به يبكي، فقال له: ما يبكيك يا هشام، أو أوجعتك؟ قال هشام: إن أبي باع منزله بعشرين دينارًا، ووجه بي إليك لأتشرف بالسماع منك، فضربتني وظلمتني بغير جرم فعلته سوى أني أطلب حديث رسول الله ﷺ، والله لا جعلتك في حلٍّ، لأسائلنك بين يدي الله، فتأثر الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وعلم أنه طالب حديث، وجامع سنة بحق، فقال: يا بني ما يرضيك؟ ما كفارة ذلك؟

فاستغل هشام بن عمار الفرصة، والحياة فرص، فقال: أن تحدثني بكل سوط ضربتنيه حديثًا عن رسول الله ﷺ، قال: فجلس الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: حدثنا فلان عن فلان عن فلان، فسرد له خمسة عشر حديثًا، فقال هشام بعدها: يا إمام، زد من الضرب وزد في الحديث.



الصورة الثانية:

[الحسن البصري ينتهز فرصة وجود التاجر العاصي حبيب العَجَمِي في درسه ويعظه موعظة بليغة]

كان حبيب العجمي رَحِمَهُ اللَّهُ من ساكني البصرة، وكان من أهل التجارة والأموال والفجور، حتى حضر مجلسًا للحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ وسمع موعظته، فوقعت موعظته في قلبه، فصار من أفضل زهاد أهل البصرة.

فما هي القصة بالتفصيل؟

كان الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ يجلس في مجلسه الذي يُذَكِّر فيه كل يوم، وكان حبيب العجمي رَحِمَهُ اللَّهُ يجلس في مجلسه الذي يأتيه أهل الدنيا والتجارة، وهو غافل عما فيه الحسن لا يلتفت إلى شيء من مقالاته في الوعظ، لأنه مشغول بحديث الأموال، وحديث الدنيا، والحسن مشغول بحديث الآخرة، هذا في وادٍ وهذا في وادٍ آخر، إلى أن التفت يومًا فسأل عما يقوله الحسن البصري، قال: هذا الشخص الذي تَجَمَّعَ حوله الناس ماذا يقول؟ فقيل له: يذكر الجنة ويذكر النار، ويرغب في الآخرة، ويزهد في الدنيا، فوقر ذلك في قلبه، فقال: اذهبوا بنا إليه، فأتاهم، فقال جلساء الحسن: يا أبا سعيد هذا حبيب قد أقبل إليك فعظه، انتهز الفرصة، الرجل جاء، بدأ المشوار، أحسن الاستقبال، وجود العظة، وأقبل عليه، فأقبل عليه الحسن، فذكره الجنة، وخوفه النار، ورغبه في الخير، وزهده في الدنيا، فتأثر حبيب بتلك الموعظة، وتصدق بأربعين ألفًا، وقنع باليسير، وعبد الله تعالى حتى أتاه اليقين[(١)].

---

(١) انظر «تاريخ الإسلام» (٣/ ٦٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٨٨)، و«التوابين» (ص:١٢٣).

قلت: لله در الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، العالم الكبير، والواعظ الخطير، الذي كلامه مشبع بالحكمة والنور، يشبه كلام الأنبياء، لقد انتهز الفرصة حين دخل هذا الرجل مجلسه، ووعظه موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، امتثالًا لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] وقد آتاه الله الفصاحة وفصل الخطاب ما يعجز الواصف وصفه، فَذَكَّرَ هذا الرجل بالله، وبالجنة، والنار، والصراط، والموت، والقبر، حتى رق لذلك ورجع إلى الله سبحانه وتعالى.

قال العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هكذا العالِم، وهكذا طالب العلم لا يدع فرصة إلا انتهزها للتعليم والتوجيه والإرشاد، والمؤمن لا يدع فرصة إلا انتهزها كذلك»(١).

***

(١) «مجموع فتاوى ابن باز» (١٦/ ٢٠٨).

الصورة الثالثة:

[إنما رحلت لأرى مالكًا لا لأرى الفيل]

العالم الكبير يحيى بن يحيى الليثي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسميه عاقل الأندلس، وسبب ذلك أنه كان في مجلس الإمام مالك بن أنس مع جماعة من أصحابه، فقال قائل: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه ولم يخرج يحيى، فقال له الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مالك لا تخرج فتراه لأنه لا يكون بالأندلس، فقال: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك، وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أجئ لأنظر إلى الفيل، فأعجب به مالك وسماه عاقل أهل الأندلس(١).

قلت: كان الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُدَرِّس في المسجد النبوي ويروي أحاديث النبي ﷺ، وكان عنده يحيى بن يحيى الليثي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - راوي الموطأ عنه - والطلاب حول الإمام مالك، فصاح صائح: جاء للمدينة فيل عظيم، ولم يكن أهل المدينة رأوا فيلًا من قبل، لأن الفيل ليس موطنه هذه البلاد، فهرع الطلبة كلهم ليروا الفيل، وتركوا الإمام مالك في المسجد، إلا يحيى بن يحيى الليثي، الطالب النجيب، فإنه انتهز هذه الفرصة، والحياة فرص، وبقي في مجلس العلم مع الإمام مالك ولم يخرج، فقال له الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لماذا لم تخرج؟ هل رأيت الفيل قبل ذلك؟

فقال يحيى بن يحيى الليثي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما رحلت لأرى مالكًا لا لأرى الفيل، وبهذا الموقف الموفَّق النبيل أُعْجِبَ به الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيما إعجاب وَلَقَّبَهُ من حينها بعاقل الأندلس، ورفع الله جل وعلا ذِكْرَهُ، وجعل الرواية التي تُروى الآن في شرق

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٢١)، «وفيات الأعلام» (٦/ ١٤٤)، و«شريط: الاعتصام بالكتاب والسنة» للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

الأرض وغربها المعتمدة لموطأ الإمام مالك هي رواية يحيى بن يحيى الليثي، مع أنه من صغار طلبته، وهناك روايات لأناس أكبر منه لم يكتب لها القبول.

❊❊❊

الصورة الرابعة:

[قلم بدينار]

محمد بن سلام البيكندي شيخ البخاري، المتوفي سنة (٢٢٧)، كان في حال الطلب جالسًا في مجلس الإملاء، والشيخ يُحَدِّثُ وَيُمْلِي، فانكسر قلم محمد بن سلام وكان صاحب مال، ونعم المال الصالح للرجل الصالح، فاستغل فرصة وجود المال معه، وأمر مناديًا ينادي: قلم بدينار، فاستغل أصحاب الأقلام هذه الفرصة، فتطايرت إليه الأقلام، وما هذا البذل السخي منه إلا لمعرفته بقيمة ذاك الوقت الغالي، وقيمة العلم أيضًا، فهذا متعلم بل عالم عرف قيمة الزمن والوقت والعلم، فبذل الدينار الذهبي في تحصيل قلم لا يساوي فلسًا في غير هذا الموضع(١).

قلت: وهذا عصام البلخي أيضا اشترى قلمًا بدينار ليكتب ما سمعه فورًا.

قال في «مفتاح السعادة»(٢): «واشترى عصام بن يوسف البلخي الفقيه الحنفي ومحدث بَلْخ المتوفى سنة (٢١٥) رَحِمَهُ اللَّهُ قلمًا بدينار ليكتب ما سَمِعَ في الحال، فالعمر قصير، والعلم كثير، فينبغي للطالب أن لا يضيع الأوقات والساعات، بل يغتنم الليالي والخلوات، ويغتنم الشيوخ ويستفيدَ منهم، فليس كل ما فات يُدْرك».

وما حصل من البيكندي والبلخي من شراء القلم بدينار إلا لحرصهما على أوقاتهما، وخشية أن يضيع منه شيء، فالوقت عندهم أثمن من الدينار والدّرهم، بل من شُحِّهم بأوقاتهم وحرصهم عليها كان بعضهم يجعل بريَ الأقلام في أوقات مجالسة مَنْ يزوره، كما كان ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ يصنع.

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٨)، و«تاريخ الإسلام» (٥/ ٦٧٤)، و«عمدة القاري» (١/ ١٦٥).
(٢) «مفتاح السعادة» لطاشْكُبْرِي زادَه (١/ ٣٦)، و«تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص:٩١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير ...فصرت أُدافع اللقاء جهدي - يعني لقاء البطالين ـ...ثم أعددت أعمالًا لا تمنع المحادثة لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من الاستعداد للقائهم قطعَ الكاغد، وبَريَ الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بُدّ منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي[١].

❊❊❊

(١) «صيد الخاطر» (ص:٢٤١).

الصورة الخامسة:

[الإمام أبو حاتم الرازي في نزع الموت ويُجيبُ ابنَهُ عن حال راو من رواة الحديث]

جاء في كتاب «الجرح والتعديل»[(١)] لابن أبي حاتم الرازي في ترجمة التابعي الجليل أبي نهار عقبة بن عبد الغافر العُوذي البصري، من أجِلَّة أهل البصرة المتوفى سنة (٨٣) رَحِمَهُ اللَّهُ ما يلي:

«قال أبو محمد - ابن أبي حاتم الرازي -: سألت أبي وهو في النزع عن عقبة بن عبد الغافر هل له صحبة؟ فقال: لا، بلسان مسكين».

قلت: فانظر - رحمك الله - ما أحرص الابن على استغلال الفرص والاستفادة، وما أحرص الأب على الإفادة، يسأله ابنُهُ وهو في النزع الأخير عن راو فيُجيبُهُ بلسانٍ ضعيفٍ مسكينٍ ثقيل شِبْهِ ميِّت، فلم تمنع الابنَ حالُ والده في النَّزْعِ عن سؤالِهِ وكسبِ الوقتِ والاستفادةِ منه، ولم يتكدر الوالدُ أو يتضجَّر من سؤاله عن راو وهو في النَّفَسِ الأخير يُفارِقُ الحياة، فلله درُّهما، ما أغلى الوقتَ والعلمَ عندهما.

***

(١) «الجرح والتعديل» (١٧٤٢).

الصورة السادسة:

[الإمام المبجل أحمد بن حنبل حفظ القرآن الكريم وهو في السجن والقيود مكبل]

قال أبو بكر بن الخلال رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: كنتُ أحفظ القرآن فلما طلبت الحديث اشتغلتُ، فسأَلت الله عَزَّ وَجَلَّ أَن يَمُنَّ عليّ بحفظه ولم أقل في عافية، فما حفظته إلا في السجن والقيود، فإذا سأَلت الله حاجة فتقول: في عافية»[١].

قلت: قال الخلاَّل – وهو تلميذ الإمام أحمد –: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كنت أحفظ القرآن، يعني كنت حافظًا للقرآن الكريم عن ظهر قلب فلما طلبت الحديث اشتغلت – يعني اشتغلت بطلب الحديث وبحفظه عن تعاهد القرآن، وعن حفظ القرآن، فنُسِّي بعض القرآن، وذلك لاشتغاله بالحديث – .

قال الإمام أحمد: فَتَفَلَّتَ القرآن مني، فسألت الله عَزَّ وَجَلَّ أن يمُنَّ علي بحفظه مرة أخرى ولم أقل في عافية، يعني قال: اللهم مُنَّ عَلَيَّ بحفظ القرآن، ولم يقل في عافية، كأنه يقول كان ينبغي أن أقول اللهم مُنَّ عَلَيَّ بحفظ القرآن وأنا في عافية بعيد عن الفتن والمصائب، قال: فما حفظ القرآن إلا في السجن والقيود.

هكذا هم العظماء والعلماء والحكماء يستغلون الفرص كيفما كانت وأينما كانت بدون كلل ولا ملل، وإن كان الأمر جللًا، فالإمام أحمد استغل هذه الفرصة، وحفظ القرآن وهو في السجن والقيود، وفرصة السجن هي البعد عن الشواغل وضجيج الحياة وزحمة الناس والتفرغ التام.

---

(١) انظر «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص:٣٩).

الصورة السابعة:

[الأرش، أو ثلاث مائة حديث؟]

الإمام عبد الله بن فَرُّوخ الفارسي القيرواني، قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر المالكي عنه، أنه رحل قديمًا فلقي الشيوخ والفقهاء، قال وهناك سمع من أبي حنيفة مسائل كثيرة مدونة، ويقال إنها نحو عشرة آلاف مسألة، وذكر أنه قال: سقطت آجُرَّةٌ من أعلى دار أبي حنيفة وأنا عنده على رأسي فَأُدْمِي، فقال: اختر الأرش - الدية - أو ثلاثَ مائةِ حديث، فقلت: الحديث فحدثني»[(١)].

قلت: ما أشبه هذه القصة بقصة هشام بن عمار مع الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، فطلبة العلم لا تساوي الدنيا عندهم بَعْرَة، قال شيخ الإسلام حين اتهموه أنه يسعى للملك، قال: إِنَّ المُلْكَ لا يساوي عندي بعرة.

وخلاصة هذه القصة أن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ كان يُدَرِّسُ طالبًا من طلاب العلم في بيته - أي في بيت أبي حنيفة - وهذا الطالب هو الإمام عبد الله بن فَرُّوخ الفارسي القيرواني، وقد استفاد هذا الطالب من أبي حنيفة آلاف المسائل الفقهية، وبينما هو كذلك سقطت من أعلى دار أبي حنيفة آجُرَّةٌ - أي طوبة - على رأس هذا الطالب فَأُدْمِي - أي شُجَّ رأسه وسال دمه - فقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الطالب: إن شئت أعطيتك الأرش والدّية مالًا، لأنك أُصِبْتَ في بيتي وبحجارة بيتي، وإن شئت حدثتك بثلاث مائة حديث، وهذا من عدله وخوفه من الله رَحِمَهُ اللَّهُ ، فاستغل الطالب هذه الفرصة، والحياة فرص، وقال: أنا لا أريد المال، إنما أريد العلم وجئت من أجل العلم، حدثني بثلاث مائة حديث، فحدثه بها.

---

(١) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» للقاضي عياض (٣/ ١٠٩)، و«صفحات من صبر العلماء» (ص:٥٣).

الصورة الثامنة:

[خَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ الْحَدِيثَ مِنْكَ]

قَدِمَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْبَصْرَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ لَهُ: حَدِّثْنِي حَدِيثَ أَبِي الْعُشَرَاءِ عَنْ أَبِيهِ، فَقَالَ حَمَّادٌ: حَدَّثَنِي أَبُو الْعُشَرَاءِ عَنْ أَبِيهِ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْحَدِيثِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ سُفْيَانُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا سُفْيَانُ، قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: الثَّوْرِيُّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيَّ ثُمَّ تَسْأَلُ عَنِ الْحَدِيثِ؟ قَالَ: خَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ الْحَدِيثَ مِنْكَ(١).

قلت: حقًّا الحياة فرص، انظر كيف بادر سفيان الثوري إلى سماع الحديث وتلقيه قبل السلام على الشيخ ومعانقته خشية حلول قاطع من قواطع الحياة حرصًا على الوقت والعلم والازدياد منه، فرضي الله عنه ما أشدَّ انتباهَهُ للوقت وما أغلى العلم عنده، ولله در هؤلاء الأئمة الأعلام كيف كان حرصهم على العلم ومبالغتهم في تحصيله.

***

(١) «الجامع لأخلاق الراوي والسامع» (٢/ ١٨٣).

الفصل الرابع

صور من روائع العلماء لاغتنامهم الفرص في تأليف الكتب وهم في السجون

ديننا الإسلامي يأمرنا بالعمل والاجتهاد، وترك الكسل والخمول، وطرد الهم والغم والحزن الذي يضر ولا ينفع، ولذلك تجد العظماء لا يعرفون الكلل ولا الملل في كل زمان ومكان، حتى ولو كان المكان هو السجن، فقد جعلوا من السجن فرصة للتخطيط والتفكير في المستقبل، وإن أكبر خطأ يقع فيه السجين هو أن يعيش سجينًا في الماضي والحاضر، فيشغل نفسه وفكره بالسجن دون أن يتخذ من الماضي نقطة انطلاق للمستقبل الصحيح.

قال شيخ الإسلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه»[(١)].

ولذلك هؤلاء العظماء لا يفترون ولا يملون العمل، وإن اختلفت الميادين التي يكونون فيها فالهدف واحد، بل إنهم يزدادون نشاطًا في بعض الميادين، لأنهم يرون أنفسهم في فرصة عظيمة يجب أن تستغل بالعمل والاجتهاد بشكل أكبر، فهم يرون السجن فرصة سانحة للعمل، والتغيير، والبناء، والحفظ، والتأليف، والدعوة، والإصلاح، وفي مقدمتهم من سجن من الأنبياء كيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أدخل السجن لم ينس وهو في كربة السجن وغربته وظيفته ومهمته، بل شرع يمارس ذلك بسرعة وفي أقرب فرصة وحَوَّلَ السجن إلى قاعة محاضرات ومحراب عبادة.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص:٤٨).

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦]، إنا نراك من المحسنين، كان داعية بعمله وبسمْتِه.

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف: ٣٧].

ثم ذكر مباشرة الدعوة إلى التوحيد ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٧-٣٩].

فانظر كيف شرع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدعوة إلى الله في ذلك المكان، في ضيقه وكربته، ووحشته وظلمته، وهو قائم بأمر الله تعالى، في الدعوة إليه سبحانه، حريص على هداية هذين الرجلين الكافرين، وهكذا صار العلماء وهم ورثة الأنبياء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حين سجنوه: «إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»(١).

وسأذكر - بإذن الله تعالى - نبذة مختصرة من العلماء الذين حولوا السجن إلى فرصة عظيمة للإنتاج والإبداع، والنجاح والتفوق.

لكن قد يقول قائل: ماهي الفرصة داخل السجن؟

والجواب: الفرصة هي البعد عن ضجيج الناس، وزحمتهم، وصخب الحياة، ومشاغلها، فاستغلوا هذا الفراغ، وهو فرصة كريمة، وألَّفوا كتبًا عظيمة.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص:٤٨).

ومن هؤلاء العلماء الذين ألَّفوا الكتب في السجن:

[١] الإمام محمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرْخَسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ

[المتوفى سنة (٤٨٣هـ) وقيل: سنة (٤٩٠هـ)]

صاحب كتاب «المبسوط» استغل فرصة حبسه، والحياة فرص، فقد نقل اللكنوي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه أملى كتابه المبسوط نحو خمس عشرة مجلدًا وهو في السجن «بأوزجند»[١]، كان محبوسًا في الجب بسبب كلمة نصح بها «الخاقان»[٢]، وكان يملي من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجب وأصحابه في أعلى الجب، وقال عند فراغه من شرح العبادات: «هَذَا آخِرُ شَرْحِ الْعِبَادَاتِ بِأَوْضَحِ الْمَعَانِي وَأَوْجَزِ الْعِبَارَاتِ، أَمْلَاهُ الْمَحْبُوسُ عَنْ الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ مُصَلِّيًا عَلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ بِالرِّسَالَاتِ وَعَلَى أَهْلِهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، تَمَّ كِتَابُ الْمَنَاسِكِ وَلِلهِ الْمِنَّةُ وَلَهُ الْحَمْدُ الدَّائِمُ الَّذِي لا يَفْنَى أَمَدُهُ، وَلَا يَنْقَضِي عَدَدُهُ».

وقال في «شرح الإقرار»: «انتهى شرح الإقرار المشتمل على المعاني على ما هو من الإسرار، أملاه المحبوس في محبس الأشرار».

وله كتاب في أصول الفقه وشرح السير الكبير، أملاه وهو في الجب، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج فأُطْلِق[٣].

---

(١) أوزجند: بلدة تقع فيما بين النهرين من نواحي فرغانة، كما في كتاب «تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير» (١/ ٧٨).

(٢) خاقانُ: اسْمٌ لِكُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ التُّرْكِ. انظر «لسان العرب» (١٣/ ١٤٢).

(٣) «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» للكنوي (١٥٨)، و«الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية» لأبي محمد القرشي (٢/ ٢٨)، و«معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة (٨/ ٢٣٩).

[٢] أحمد بن علي بن هبة الله بن الحسن بن علي الزَّوَال رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (٥٠٩هـ) وتوفي سنة (٥٨٦هـ)

قرأ اللغة والنحو على أبي منصور الجواليقي، وكتب الخط المليح، وولي القضاء، فلما تولى المستنجد حبس القضاة وهو منهم، فأقام في الحبس إحدى عشرة سنة، فاستغل هذه الفرصة، والحياة فرص، وكتب فيه ثمانين مجلدًا، وشرح الفصيح، وجمع كتابًا سماه «أسرار الحروف»، ثم لما ولي المستضيء أفرج عن المحبوسين، وأعاد عليهم مرتباتهم(١).

[٣] إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحراني أبو إسحاق الصابئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (٣١٣هـ) وتوفي سنة (٣٨٤هـ)

له كتاب «التاجي» في أخبار بني بويه، أَلَّفَهُ في السجن، كان أسلافه يعرفون بصناعة الطب، ومال هو إلى الأدب(٢).

[٤] يوسف بن هارون الكندي أبو عمر الرمادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

توفي سنة (٤٠٣هـ)

شاعر قرطبي، كثير الشعر، سريع القول، مشهور عند العامة والخاصة هنالك، لسلوكه في فنون من المنظوم وتتفق عند الكل، حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون: فتح الشعر بكندة، وختم بكندة، يعنون امرأ القيس، والمتنبي، ويوسف بن هارون، وكانا مُتَعَاصِرَين، وجميعهم من كِندة.

لقد استغل هذا الشاعر الأديب الفرصة في السجن وأَلَّفَ كتابًا نادرًا، قال الحَمِيدي: عمل في السجن كتابًا سماه كتاب «الطير» في أجزاء، وكله من شعره،

---

(١) «بغية الوعاة» (١/ ٣٤٩) رقم (٦٦٨).

وصف فيه كل طائر معروف، وذكر خواصه[١].

[٥] شيخ الإسلام ابْن تَيْمِية الْحَرَّانِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (٦٦١هـ) وتوفي سنة (٧٢٨هـ)

قال عنه تلميذه الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وللشيخ من المصنفات والفتاوى، والقواعد، والأجوبة، والرسائل، وغير ذلك من الفوائد، مالا ينضبط ولا أعلم أحدًا من متقدمي الأمة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع، ولا صَنَّفَ نحو ما صَنَّفَ ولا قريبًا من ذلك، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صَنَّفَه في الحبس، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب»[٢].

لقد استغل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرصة سجنه وخلوته وبعده عن ضجيج الحياة ومشاغلها، وقام بتأليف الكثير من كتبه وهو في السجن.

[٦] عبدالملك بن غُصْن الخُشَنِي أبو مروان رَحِمَهُ ٱللَّهُ

توفي سنة (٤٥٤هـ)

فاضل أندلسي، له شعر ونثر، من أهل وادي الحجارة، نكبه المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وحبسه مدة، فاستغل هذه الفرصة وصَنَّفَ فيها كتابه «السجن والمسجون، والحزن والمحزون»، ضَمَّنَهُ ألف بيت من شعره، وسماه أيضًا رسالة «السر المكنون في عيون الأخبار وتسلية المحزون»، وتنقل بعد إطلاقه من السجن بين بلنسية وقرطبة، وتوفي بغرناطة[٣].

---

(١) «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس» (٣٦٩رقم ٨٧٨)، و«بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» (٤٩٦رقم١٤٥٢).

(٢) «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» (ص:٢٦).

(٣) «الأعلام» للزركلي (٤/ ١٦١).

[٧] محمود بن إسرائيل بن عبد العزيز الشهير بابن قاضي سِماوْنَة رَحِمَهُ اللَّهُ

توفي سنة (٨٢٣هـ)

فقيه حنفي، من القضاة، كان أبوه قاضيًا بقلعة سماونة في سنجق كوتاهية بتركيا، فولد وتعلم بها، ورحل إلى قونية[١] ثم إلى مصر، وحج، ورحل إلى تبريز مرشدًا، فأكرمه فيها الأمير تيمور خان، وعاد إلى مصر، فبلاد الروم، واستقر في أدرنة، وكان بها والداه، فنُصِّب قاضيًا للعسكر، وحُبس في وشاية ففر، وصار إلى «زغرة» من ولاية «روم ايلي» فاتهم بأنه يريد السلطنة، فَأُخِذَ وقُتِلَ بسيروز، له كتب منها: «لطائف الإشارات» في فقه الحنفية، أَلَّفَهُ ثم شرحه بكتاب سماه «التسهيل» وهو سجين في «أزنيق[٢]»[٣].

[٨] أحمد بن يحيى بن المرتضى بن المفضل ابن منصور الحسني رَحِمَهُ اللَّهُ

(ولد سنة (٧٧٥هـ) وتوفي سنة (٨٤٠هـ)

عالم بالدين والأدب، من أئمة الزيدية باليمن، ولد في ذمار، وبويع بالإمامة بعد موت الناصر سنة (٧٩٣) هـ في صنعاء، وَلُقِّبَ «المَهْدي لِدِين الله»، وقد بويع في اليوم نفسه للمنصور عليّ ابن صلاح الدين، فنشبت فتنة انتهت بأسره وحبسه في قصر صنعاء سنة (٧٩٤) - (٨٠١) هـ ، وخرج من سجنه خلسة إلى بعض جبال حجة، واستغل هذه الفرصة وعكف على التصنيف إلى أن توفي في جبل حجة غربي صنعاء، من كتبه: «البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار» خمسة أجزاء، وفي فقه الزيدية «الأزهار في فقه الأئمة الأخيار » أَلَّفَهُ في السجن[٤].

---

(١) قونية: مدينة في تركيا.

(٢) أزنيق: مدينة تركية.

(٣) «الأعلام» للزركلي (٧/ ١٦٥).

(٤) «الأعلام» للزركلي (١/ ٢٦٩).

[٩] القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري البزَّار رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (٤٤٢هـ) وتوفي سنة (٥٣٥هـ)

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة القاضي البزار: «قال السمعاني – تلميذه-: وسمعته يقول: أسرتني الروم – وكان في سفر – وبقيت في الأَسْر سنة ونصفًا، وكان خمسةَ أشهرٍ الغُلُّ في عنقي، والسلاسلُ على يديَّ ورِجْليَّ، وكانوا يقولون لي: قل: المسيحُ ابنُ الله، حتى نَفْعَلَ ونَصْنَعَ في حقك، فامتنعتُ وما قلتُ، ووَقْتَ أن حُبِستُ كان ثَمَّ مُعَلِّمٌ يُعَلِّم الصبيان الخط بالرومية[١] – هنا استغل الفرصة رَحِمَهُ ٱللَّهُ – وقال: فتعلمتُ في الحبس الخطَّ الرومي»[٢].

[١٠] الشيخ المحدث مُحَمَّدٍ نَاصِرِ الدِّينِ الأَلْبَانِيّ الأَرْنَؤوطِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (١٣٣٢هـ) وتوفي سنة (١٤٢٠هـ)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وشاء الله تبارك وتعالى أن أُسْجَن في عام (١٣٨٩)هـ، الموافقة لسنة (١٩٦٩م)، مع عدد من العلماء من غير جريرة اقترفناها سوى الدعوة إلى الإسلام وتعليمه للناس، فأساق إلى سجن القلعة وغيره في دمشق، ثم أفرج عني بعد مدة لأساق مرة ثانية، وأنفى إلى الجزيرة، لأقضي في سجنها بضعة أشهر أحتسبها في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد قدر الله ألا يكون معي فيه إلا كتابي المحبب «صحيح الإمام مسلم» وقلم رصاص وممحاة، وهناك عكفت على تحقيق أمنيتي في اختصاره وتهذيبه، وفرغت من ذلك في نحو ثلاثة أشهر، كنت أعمل فيه ليل نهار، دون كلل ولا ملل، وبذلك انقلب ما أراده أعداء الأمة انتقامًا منا إلى نعمة لنا، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»[٣].

---

(١) القاضي أبو بكر البزار، تعلم في السجن ولم يؤلِّف وإنما ذكرته من باب إتمام الفائدة.

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٤٣٨).

(٣) «مقدمة مختصر صحيح الإمام البخاري» للألباني.

انظر كيف خطف الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الفرصة واستغلها، والحياة فرص، كيف لا يكون كذلك، وهو الذي يردد كثيرًا قول الشاعر:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ

***

الفصل الخامس

صور من روائع العلماء لاغتنامهم الفرص في تأليف الكتب وهم في السفر

يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (١):

تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُلى ... وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِدِ
تَفَرُّيجُ هَمٍ وَاكتِسابُ مَعيشَةٍ ... وَعِلمٌ وَآدابٌ وَصُحبَةُ ماجِدِ
فَإِن قيلَ في الأَسفارِ ذُلٌّ وَغُربَةٌ ... وَقَطعُ فَيافٍ وَارتِكابِ الشَدائِدِ
فَمَوتُ الفَتى خَيرٌ لَهُ مِن حَياتِه ... بِدارِ هَوانٍ بَينَ واشٍ وَحاسِدِ

السفر فرصة طيبة لمن وفقه الله لاستغلاله في الخير، حيث إن المسافر قد يجد فرصة أحيانًا إذا ابتعد عن المشاغل التي تشغله في بلده فيستغل هذه الفرصة، فإن كان من أهل العلم استغله بالدعوة إلى الله، ولقاء أهل العلم والفضل والاستفادة منهم، واستغله كذلك في البحوث، والمطالعة، والمراجعة، والمذاكرة، والمدارسة، والتأليف، والتصنيف، والسماع، خاصة في هذا الزمان حيث وقد توفرت بعض الوسائل المعينة على ذلك بفضل الله تعالى.

وممن ضرب لنا أروع الأمثلة في هذا المجال، كوكبة من العلماء، كَتَبُوا وأَلَّفوا وصَنَّفُوا في حال السفر، وهم بعيدون عن كتبهم، وأهلهم، وأوطانهم، وفي مقدمة هؤلاء العلماء:

---

(١) الديوان المنسوب للشافعي.

[١] الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حرَيْزٍ الزُّرَعي ثم الدمشقي الفقيه الأصولي المفسر النحوي العارف شمس الدين أبو عبد الله بن قيِّم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة(٦٩١هـ) وتوفي سنة (٧٥١هـ)

قلت: ذكر العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «ابن القيم: حياته – آثاره – موارده» مؤلفات الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي ألّفها في حال سفره وهي:

(١) **«مفتاحُ دارِ السعادة ومنشورُ ألويةِ العلمِ والإرادة».**

(٢) **«روضةُ المحبين ونَزهةُ المشتاقين».**

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتاب «روضة المحبين»[١]: «والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه فإنه علقه في حال بعده عن وطنه وغيبته عن كتبه». اهـ.

(٣) **«زادُ المعادِ في هدي خيرِ العِباد».**

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن المدهش أن هذا الكتاب أملاه مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في حال سفره وغيبة عن داره ومكتبته، وقد تحدث عن ذلك في فاتحة الكتاب فقال: «وهذه كلمات يسيرة لا يستغني عن معرفتها من له أدنى همة إلى معرفة نبيه ﷺ وسيرته وهديه، اقتضاها الخاطر المكدود على عُجَرِهِ وبُجَرِهِ مع البضاعة المزجاة...مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة، والقلب بكل وادٍ منه شعبة، والهمة قد تفرقت شذر مذر...».اهـ.

وقال الشيخ شعيب وعبد القادر الأرناؤوطان في مقدمة التحقيق لكتاب «زاد

(١) (ص:١٢).

المعاد»: ومما يثير الدهشة أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ألَّف كتابه هذا في حال السفر، ولم تكن في حَوزته المصادر التي ينقل منها ما يحتاج إليها من أخبار وآثار تتعلق بموضوع الكتاب، مع ما ضَمَّنَهُ معظم الأحاديث النبوية القولية منها والفعلية المتعلقة به ﷺ مما هو منثور في الصحاح، والسنن، والمسانيد، والمعاجم، والسير، وأثبت كل حديث في الموضوع الذي يخصه مما يشهد بسعة اطلاعه، وجودة حفظه، وسرعة بديهته، وربما تزول الدهشة إذا صح ما ترامى إلينا من أن هذا الإمام كان يستظهر «مسند الإمام أحمد بن حنبل» الذي يضم أكثر من ثلاثين ألف حديث من حديث الرسول ﷺ.

(٤) «بدائعُ الفوائد».

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا الكتاب العظيم الذي يزيد عن ألف صحيفة إنما كتب غالبه من حفظه حال بُعده عن مكتبته، وقد قال في جواب السؤال العاشر على قولهم «هذا بسرًا أطيب منه رطبًا»: فهذا ما في هذه المسألة المشكلة من الأسئلة والمباحث علقتها صيدًا لسوانح الخاطر فيها خشية ألا يعود، فليسامح الناظر فيها فإنها علقت علي حين بعدي عن كتبي وعدم تمكني من مراجعتها، وهكذا غالب هذا التعليق إنما هو صيد خاطر، والله المستعان.

وقال في آخر تفسير «سورة الكافرون»: فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها من غير استعانة بتفسير، ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استملاء مما عَلَّمَه الله وألهمه بفضله وكرمه، والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها ولبالغت في استحسانها ...اهـ.

(٥) «تهذيبُ سننِ أبي داود».

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ذكر في خاتمته للكتاب ما يفيد أن تأليفه له

سنة (٧٣٢هـ) وأنه فرغ منه في مكة حرسها الله تعالى، وأن مدة تأليفه أربعة شهور تقريبًا.

فقال: «ووقع الفراغ منه في الحِجْر - حِجْر إسماعيل - شرفه الله تعالى تحت الميزاب - ميزاب الرحمة في بيت الله - آخر شوال سنة اثنين وثلاثين وسبع مئة، وكان ابتداؤه في رجب من السنة المذكورة» اهـ.

(٦) الفُروسية.

قال في مقدمة الكتاب[١]: «...علقته على بعد من الأوطان، واغتراب عن الأصحاب والإخوان، وقلة بضاعة في هذا الشأن...».

انتهى ذكر كتب ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

[٢] أَحْمد بن عَليّ بن مُحَمَّد الْكِنَانِي الْعَسْقَلَانِي الأَصْل الْمصْرِيّ المنشأ، الشَّافِعِي الْمَذْهَب، شيخ الْإِسْلَام شهَاب الدّين أَبُو الْفضل ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (٧٧٣هـ) وتوفي سنة (٨٥٢هـ)

قال العلاّمةُ ابنُ الوزير رَحِمَهُ اللهُ: أَلَّف الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ أثناء سفره إلى مكّة مختصرًا بديعًا في علوم الحديث - يقصد: نخبة الفِكَر-[١].

وإلى هذا أشار الأمير الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ في قصب السُّكَّر بقوله:

وبَعدُ فَالنُّخْبة في عِلْم الأثرْ ... مُخْتصرٌ يَا حَبَّذَا مِن مخْتصَرْ
أَلَّفها الحافِظُ في حَال السّفرْ ... وهو الشّهابُ بْنُ علِّي بْنُ حجرْ

---

(١) «الفروسية» (ص:٧).

(٢) «إسبال المطر على قصب السكر نظم نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» للصنعاني (ص:١٩٢).

[٣] الإمام الحافظ أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ توفي سنة (٦٥٦هـ)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر كتابه «الترغيب والترهيب»: «وَقد تمّ مَا أرادنا الله بِهِ من هَذَا الْإِمْلَاء الْمُبَارك، ونستغفر الله سُبْحَانَهُ مِمَّا زل بِهِ اللِّسَان، أَو دَاخله ذُهُول، أَو غلب عَلَيْهِ نِسْيَان، فَإِن كل مُصَنف مَعَ التؤدة والتأني وإمعان النّظر وَطول الْفِكر قل أَن يَنْفَكّ عَن شَيْء من ذَلِك، فَكيف بالمملى مَعَ ضيق وقته، وترادف همومه، واشتغال باله، وغربة وَطنه، وغيبة كتبه»[٢].

[٤] الإمام محمد عابد السندي الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ يُؤلِّف ويَنْسَخ في سفره

ولد سنة (١١٩٠) وتوفي سنة (١٢٥٧هـ)

قلت: فقد رَتَّبَ مسند الإمام الشافعي، واختصره، وهذَّبه في طريق السفر، أوقات نزوله للراحة والاستقاء، فقد قال في ختام كتابه «ترتيب مسند الإمام الشافعي»: «وكان الشروع في جمعه في شهر ذي القعدة سنة (١٢٢٩هـ) بعد ما ركبت في ساعيةٍ لسفر الحج، وكان تمامه والفراغ منه بعد العصر، يوم الخميس، ليلة عشرين من ربيع الأول سنة (١٢٣٠هـ)، وذلك عند رجوعي من أرض الحرمين في مسجد القنفذة وجامعها، وما كان يمكنني كتابته إلا في السواقي والمنازل، وما هذا إلا نعمة من الله تعالى، حيث شغلني بالسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التحية في أوقات لا تسمح لمثل هذا العمل...».

كما اتفق له نسخ نصف «لسان الميزان» وهو في طريقه من المدينة للعمرة، وقد جاوز الستين، فقد جاء في نهاية الجزء الأول بخط يده المحفوظ بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة على ساكنها أزكى الصلاة والتسليم: «تم الجزء الأول في ٢٨ شعبان

---

(١) «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣١٨).

سنة (١٢٥١هـ)، ونحن نازلون بمستورة شادون إلى رابغ للاعتمار في رمضان إن شاء الله تعالى، ويتلوه الجزء الثاني...».

ومعلوم كيف كان حال السفر في تلك الأزمان، وحال رواحلهم ومنازلهم، فلولا رؤيته أن الاشتغال بنسخ الكتب وتأليفها من أعظم العبادات، لما ملأ به وقت راحته في السفر.

[٥] ومن العلماء من كان يكتب في أسفاره جميع الفوائد والشوارد التي تمر به في حال سفره، منهم: العلّامة محّمد صدّيق حسن خَان القنّوجي البخاريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (١٢٤٨هـ) وتوفي سنة (١٣٠٨هـ):

أَلَّف كتابه «رِحْلَةُ الصِّدِّيْقِ إِلى البَيت العَتِيقِ»، صورة شائقة لهذه الرحلة المباركة، من الهند على ظهر سفينة، وصولًا إلى جدة، ومن ثم إلى مكة المكرمة، مع ذكر الأحكام الخاصة بالحج والعمرة والزيارة، وأحكام وفضائل مكة والمدينة، جامعة بين المتعة بذكر جملة مما وقع له من حوادث أثناء الرحلة، وتلك الروح العلمية العالية.

[٦] العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي صاحب أضواء البيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (١٣٢٥هـ) وتوفي سنة (١٣٩٣هـ)

صَنَّفَ كتابًا في رحلته إلى مكة سماه «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام»، وبدأت هذه الرحلة من بلدة «قرو» مسقط رأسه بمقاطعة «كيفة» من موريتانيا إلى الحجاز.

وقال الشيخ عطية محمد سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة هذا الكتاب: ويعتبر أدب الرحلات فنًّا متميزًا، حيث يتطلب قدرة على التعبير ودقة في التصوير، لأنه يصف

المواقع والمواقف وما يمر له مما يستحق التسجيل بوضوح العبارة حتى يجعله كالمحسوس المدرك بالإشارة، مع حسن الاختيار وذوق فيما يختار، ويبرز ما شاهد من مرئيات بأدق وأصدق العبارات وأعذب ما يكون من كلمات وعبارات، مما يتطلب ذوقًا حساسًا، وحسًّا ذواقًا، ولا يقوى على ذلك إلا عالم أريب، أو مثقف أديب، وعالم بأوضاع البلاد سياسيًّا واقتصاديًّا وجغرافيًّا.

وقد اجتمع كل ذلك لصاحب هذه الرحلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فجاءت سلسلة الأسلوب، شيقة الحديث، عذبة الألفاظ، جمعت من الطرف أطيبها، ومن الحقائق العلمية أدقها، ومن المؤانسات الشعرية أعذبها، بل ربما اشتملت على ليال نابغية، وساعات ذهبية، شأن كل رحالة عظيم الشأن، يلقى المخاطر ويجازف ويغامر، ويقابل كل ظرف وحال بما يناسبه من صبر وتحمل واستئناس وتجمل، فهي بحق كحديقة غَنّاء بها غروس مورقة، وزهور ناعمة وثمار يانعة، وقد تجد فيها أشواكًا بارزة وأحجارًا صلدة، وجداول باسمة، ورمالًا جاثمة فتكتمل الصورة الطبيعية التي تمتع النظر وتثير الفكر وتورث العبر، ويجد كل ذي طبع ما يلائمه وكل ذي رغبة ما يوافقه.

فهي بحق ممتعة كل قارئ مهما اختلفت العادات، أو تنوعت الاتجاهات، أو تعددت الاختصاصات، من أدب، ونحو، وفقه، وأصول، وتفسير، وعقائد، ومنطق، وتاريخ، وبيئة، وطبيعة، مما سيراه القارئ بنفسه ويدركه بحسه[١].

[٧] العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (١٣٣٢هـ) وتوفي سنة (١٤٢٠هـ)

اختصر العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب الشمائل للإمام الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذلك في حال سفره وهجرته من دمشق إلى عمّان.

(١) مقدمة كتاب «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام».

حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)]:...كانت هجرتي في أول رمضان السنة الماضية (١٤٠٠) من دمشق إلى عمان، ولم يتيسر لي بعد نقل مكتبتي الخاصة إلى هنا لأبحث فيها من جديد عما افتقدته، ولكن الله عوضني عن مكتبتي بعض الشيء بمكتبة الأخ الأستاذ أحمد عطية، في داره العامرة في جبل هملان، ويسر لي - جزاه الله خيرًا - الدخول إليها كلما أردت، فكنت أتردد عليها كأنها مكتبتي الخاصة، وأجلس فيها الساعات الطوال، مطالعة وتحقيقًا وتعليقًا، فسلّاني ذلك كثيرًا عن غربتي، وأحسست أنني أعيش في بلدي وبين أهلي وإخواني، وفيما أنا أطالع فيها ذات يوم عثرت على طبعة حديثة من الشمائل، طبع سوريا، بتحقيق وتخريج الأستاذ عبيد الدعاس، من الطبعة الثانية سنة ١٣٩٦هـ، فاغتنمت فرصة فراغي وابتعادي عن المكتبة الظاهرية العامرة، وافتقادي لغالب مكتبتي ولمشاريعي التي كنت منكب عليها،... فاهتبلت هذه الفرصة، وباشرت العمل - أي في اختصار الشمائل المحمدية -.

***

---

(١) «مختصر الشمائل» (ص:٤).

الفصل السادس

ذكر بعض من استغل فرصة الصغر في تحصيل العلم

قلت: من قسمة الله التي أمضاها، واستأثر بسر مقتضاها، أن جعل من بعض الصبيان من عَلَتْ هِمَّتُه، فحفظ وقته من عبث الصبيان، واستغل فرصة صغره وطفولته بما يعود عليه بالخير في كِبَرِه، فكان قرة عين، ودرة زين.

«فكم من ولد شُدَّ به أزْر سلفِهِ، وشِيد به ذكر خلَفِهِ، فكان بدرًا في بروج المحاشد - المجامع - وقطبًا لفلك المحامد»[١].

كأنهم وُلدوا من قبلِ أن وُلدوا　　　أو كان فهْمُهُمُ أيامَ لم يكُنِ[٢]

قال الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لحديث الغلام والساحر[٣]: التعلم في الصغر فيه فائدتان عظيمتان، بل أكثر:

الفائدة الأولى: أن الشاب في الغالب أسرع حفظًا من الكبير؛ لأن الشاب فارغ البال، ليست عنده مشاكل توجب انشغاله.

ثانيًا: أن ما يحفظه الشاب يبقى، وما يحفظه الكبير ينسى، ولهذا كان من الحكمة الشائعة بين الناس أن «التعلم في الصغر كالنقش على الحجر» لا يزول.

وفيه فائدة ثالثة: وهي أن الشاب إذا ثقف العلم من أول الأمر صار العلم كالسجية له، والطبيعة له، وصار كأنه غريزة قد شب عليه، فيشب عليه....

---

(١) «أنباء نجباء الأبناء» لمحمد بن مظفر (ص:١٩).

(٢) «ديوان المتنبي» (ص:١٨٢).

(٣) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٧٦).

وممن استغلوا فرصة الصغر في طلب العلم

[١] حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ﭫ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭫ قَالَ: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ، فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ فِيهِمْ، قَالَ: فَتَرَكْتُ ذَاكَ وَأَقْبَلْتُ أَسْأَلُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنْ كَانَ يَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ يَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ، قَالَ: فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ، فَعَاشَ هَذَا الرَّجُلُ الْأَنْصَارِيُّ حَتَّى رَآنِي وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلِي يَسْأَلُونِي، فَيَقُولُ: هَذَا الْفَتَى كَانَ أَعْقَلَ مِنِّي.

«صحيح» رواه الدارمي والطبراني والحاكم وابن سعد[١].

قلت: ما أحوج شباب الإسلام إلى معرفة واستحضار سِيَر العظماء من الشباب، مكان سِيَر العابثين من الرياضيين والممثلين والمغنين وأضرابهم، فإن من أسباب تأخر المسلمين إهدار طاقات الشباب، وإفسادها بالشهوات، وإبراز القدوات السيئة للشباب عبر الإعلام.

وما أحوج الآباء والمربين إلى إبراز هذه النماذج الوضيئة من الشباب لتكون قدوة لشباب اليوم، وهذا حديث عن شاب عطرت سيرته الكتب، وملأت أخباره

---

(١) «سنن الدارمي» (٥٩٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٥٩٢)، و«مستدرك الحاكم» (٣٦٣)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٣٦٧)، قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة» (١/ ٢١٢): رجاله ثقات، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٨٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وصححه الأرناؤوط في «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٣/ ٣٤٣).

مجالس العلم والذكر، استثمر طفولته وشبابه فيما ينفعه، فعاد نفعه عليه بالذكر الطيب، والرفعة والمجد، وعلى أمته بما خلف من علم غزير تنهل الأمة منه منذ قرون ولم ينفد.

هذا الغلام كان له شأن عظيم في أمة محمد ﷺ، وعلامات النبوغ والنجابة بدت عليه منذ صغره، في سرعة بديهته، وحضور ذهنه، مع قوة في المناقشة والمناظرة، يزين ذلك أدب جم يأسر القلوب، ويستولي على النفوس، صلّى مرة آخر الليل خلف النبي ﷺ، فأخذ بيده وجرّه وجعله حذاءه - بجانبه - فلما أقبل النبي ﷺ على صلاته تراجع ابن عباس، فلما سلم قال له النبي ﷺ: «**ما شأني أَجْعَلُكَ حذائي فَتَخْنُسَ؟» فقلت: يا رَسُولَ اللهِ أَوَ ينبغي لأَحَدٍ أَنْ يصلّي حِذَاءَكَ وَأَنْتَ رسول اللهِ الذي أَعْطَاكَ الله؟ قال: فَأَعْجَبْتُهُ فَدَعَا اللهَ لي أن يزيدني عِلْمًا وَفَهْمًا**» «صحيح» رواه أحمد(١).

هذا الجواب وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو أقل، ومن عادة الشباب في هذا السن، وفي هذا الزمن غفلتهم عن المستقبل، ورؤيتهم للحاضر، ومحبتهم للهو مع أقرانهم، وشعارهم: عش وقتك، ولا تنظر أمامك، ومن خرج عن هذه العادة فنظر بعين وقته للمستقبل، واشتغل بما ينفعه، نبغ من بين أقرانه، واستقامت له أحواله، وكان ذا شأن في الناس، وهكذا كان الفتى ابن عباس رضي الله عنهما، فإنه نظر بعين وقته لمستقبله واستغل فرصة الحياة، ولم يغتر بكلام غيره المثبط، فصان نفسه عن البطالة والعبث، وأقبل على الجد في الطلب، بنفس لا تعرف السأم، وهمة لا يخلطها الملل، قال رضي الله عنه وهو يحكي قصته مع صاحبه:

لَمَّا تُوُفِّيَ رسول اللهِ ﷺ قلت لِرَجُلٍ من الأَنْصَارِ: يا فُلَانُ، هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النبي ﷺ فَإِنَّهُمْ الْيَوْمَ كَثِيرٌ، فقال: واعجبًا لك يا ابن عَبَّاسٍ! أَتَرَى الناس يَحْتَاجُونَ

(١) «مسند أحمد» (٣٠٦٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٦٠٦)، وشيخنا مقبل رحمه الله في «الصحيح المسند» (٦٠١).

إِلَيْكَ وفي الناس من أَصْحَابِ النبي ﷺ من تَرَى؟ فتَرَكَ ذلك وَأَقْبَلْتُ على الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كان لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عن الرَّجُلِ فَآتِيهِ وهو قَائِلٌ(١) فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي على بَابِهِ فَتَسْفِي الرِّيحُ على وَجْهِي التُّرَابَ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي فيقول: يا ابن عَمِّ رسول اللهِ ما جاء بِكَ؟ ألا أَرْسَلْتَ إلي فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: أنا أَحَقُّ أن آتِيَكَ، فأسأله عن الحديث، قال: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حتى رَآنِي وقد اجْتَمَعَ الناس عَلَيَّ فقال: كان هذا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما له منهج في طلب العلم يدل على الحرص والتوثيق، وتنويع مصادر العلم، والإكثار من الشيوخ، ولذا أخذ عن كثير من كبار الصحابة علمهم، فاجتمع له من العلم ما لم يجتمع لغيره، يقول رضي الله عنه: إِنْ كُنْتُ لأَسْأَلُ عَنِ الأَمرِ الوَاحِدِ ثَلاثِيْنَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

وقِيلَ له: كَيْفَ أَصَبْتَ هَذَا الْعِلْمَ؟ قَالَ: بِلِسَانٍ سَؤُولٍ، وَقَلْبٍ عَقُولٍ.

وقال: كُنْتُ أَلْزَمُ الأَكَابِرَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

كبر الغلام وكبر معه عقله، واتسع علمه، حتى أدرك في العلم من سبقوه من كبار الصحابة رضي الله عنهم، وعجبوا من علمه، وأقروا له به وهو شاب في العشرين أو دونها، حتى قال له عمر رضي الله عنه: لقد علمت علمًا ما علمناه.

وقال ابنِ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه: لَوْ أَدْرَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَسْنَانَنَا مَا عَشَرَهُ مِنَّا أَحَدٌ(٢).

وكان من سياسة عمر رضي الله عنه في إدارة الدولة اهتمامه بذوي العلم والرأي دون السن والنسب، فيولي الأكفاء ويقربهم ويدنيهم، فلما رأى كمال عقل ابن عباس،

---

(١) (الْقَائِلَةُ) الظَّهِيرَةُ يُقَالُ: أَتَانَا عِنْدَ الْقَائِلَةِ. وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى (الْقَيْلُولَةِ) أَيْضًا وَهِيَ النَّوْمُ فِي الظَّهِيرَةِ، تَقُولُ: (قَالَ) مِنْ بَابِ بَاعَ و(قَيْلُولَةً) أَيْضًا و(مَقِيلًا) فَهُوَ (قَائِلٌ). «مختار الصحاح» (ص:٢٦٤).

(٢) ما عشره منا أحد: أي لو كان كبيرًا في السن، مثل: عمر، وابن مسعود، ما عشره منا أحد، أي: ما بلغ عشره في العلم.

وسداد رأيه، وغزارة علمه، جعله من خاصته، واتخذه بطانة له، وقدمه على الشيوخ الكبار في الرأي والمشورة وهو شاب صغير.

[٢] الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَرْعَى غَنَمًا لعُقبة بْنِ أَبِي مُعيط، فمرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا غُلَامٌ فَقَالَ لِي: «يَا غُلامُ! هَلْ مِن لبن؟»، قلت: نعم، ولكني مُؤتمنٌ، قَالَ: «فَهَلْ مِن شاةٍ لَمْ ينزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ؟»، قَالَ: فأتيتهُ فَمَسَحَ ﷺ ضَرْعَهَا، فَنَزَلَ اللبنُ فحلبهُ فِي إناءٍ فشرِب، وَسَقَى أَبَا بكر، ثُم قَالَ للضرع: «انقلِصِي» فانقصلت فقلت: يا رسول اللهِ، علِّمني مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، فَمَسَحَ رَأْسِي وقال: «يرحمُك الله! إنك غلام مُعلّمٌ» «حسن» رواه أحمد وابن حبان والطبراني[1].

قلت: كان ابن مسعود رضي الله عنه يومئذٍ غلامًا لم يجاوِزِ الحُلُمَ، وكان يَسْرَحُ في شِعابِ[2] مكّةَ بعيدًا عن النّاسِ، ومعه غَنَمٌ يرعاها لِسَيِّدٍ من ساداتِ قريش هو عُقْبَةُ بنُ أبي مُعَيطٍ.

كان الْغُلامُ يَسْمَعُ بِأَخْبَارِ النبِّي الذي ظَهَرَ في قومِه فلا يأبَه لها[3] لِصِغَرِ سِنِّهِ من جِهَةٍ، وَلِبُعْدِهِ عنِ المجتَمَعِ المكِّي من جهةٍ أخْرَى، فقد دأب على أنْ يخرجَ بغنم عُقْبَةَ مُنْذُ البُكورِ ثُمَّ لا يعودُ بها إلاَّ إذا أقْبَلَ اللّيْلُ، وفي ذات يوم أبصَرَ الغلامُ المكي عبدُ اللهِ

---

(١) «مسند أحمد» (٣٥٩٨)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠٦١)، والطبراني في «الكبير» (٨٤٥٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٧٠٢١)، و«الروض النضير» (٦٥٢)، وصححه شيخنا مقبل رحمه الله في «الصحيح المسند» (٨٤١)، و«الجامع الصحيح» (١٥٧٣).

(٢) شعاب: جمع شِعْب وهو الطريق في الجبل.

(٣) لا يأبه لها: لا يهتم بها.

ابنُ مَسْعُودٍ كَهْلَيْنِ عليهما الْوَقَارُ يَتَّجهان نَحْوَه مِنْ بَعيدٍ، وقد أخذَ الجُهْدُ مِنْهُما كُلَّ مَأخَذٍ[١]، واشتدَّ عليهما الظَّمَأ حَتَّى جَفَّتْ منهما الشفاهُ والحلوقُ، فلمّا وقفا عليه سَلَّما وقالا: يا غلامُ، احْلِبْ لنا من هذِهِ الشِّياهِ ما نُطْفِئُ به ظَمَأنا ونَبُلُّ عُروقَنا، فقال الغلامُ: لا أفعَلُ، فالْغَنَمُ لَيْسَتْ لي، وأنا عليها مُؤتَمنٌ، فلم يُنْكِرِ الرَّجُلانِ قَوْلَهُ، وبَدَا على وجهيهما الرِّضا عَنْهُ، ثم قال له أحَدُهُما: دُلَّني على شاةٍ لم ينْزُ عليها فَحْلٌ، فأشارَ الغُلامُ إلى شاةٍ صغيرَةٍ قريبَةٍ منه، فتقدَّمَ منها الرجلُ واعْتَقَلَهَا، وجعلَ يَمْسَح ضَرْعَهَا[٢] بيَدِه وهو يَذْكُرُ عليها اسمَ اللهِ، فنظرَ إليه الغلامُ في دَهْشَةٍ وقال في نفسهِ: ومتى كانَتِ الشِّياهُ الصغيرةُ التي لم تَنْزُ عليها الفُحولُ تدرُّ لبنًا؟!

لكِنَّ ضرْعَ الشَاة ما لَبِثَ أن انْتَفَخَ وطَفِق اللَّبنُ يَنْبَثِقُ منه ثَرًّا[٣] غزيرًا، فَأخَذَ الرَّجُلُ الآخَر حجرًا مُجَوَّفًا من الأرْضِ، وملأه باللَّبنِ، وشربَ منه هو وصاحِبُه، ثم سقيَاني معهما، وأنا لا أكاد أصدقُ ما أرى، فلمَّا ارْتَوَيْنَا قالَ الرّجُلُ المبارَكُ لِضَرْعِ الشَّاةِ: اِنْقَبِضْ، فما زال يَنْقَبِضُ حتَّى عادَ إلى ما كان عليه، عند ذلك انتهز ابن مسعود رضي الله عنه الفرصة، والحياة فرص، وقال للرَّجُل المبارَكِ: عَلِّمْني مِن هذا القولِ الذي قلتَه، فقال له: «إنَّك غلام مُعَلَّم».

كانت هذهِ بدايةَ قِصَّةِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه مع الإسْلامِ، إذ لَمْ يَكُنْ الرَّجُلُ المبارَكُ إلاَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ولم يكن صاحبُه إلا الصديقَ رضي الله عنه، فقد نَفَرا[٤] في ذلِكَ اليومِ إلى شِعابِ مَكَّةَ لِفَرْطِ ما أرهَقَتْهُمَا قريش وَلِشدَّةِ ما أنزلَتْ بهما من بَلاءٍ.

وكما أحَبَّ الغلامُ الرسولَ الكريمَ وصاحِبَهُ وتَعَلَّقَ بهما فقد أعجب الرسولُ صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخذ الجهد منهما كل مأخذ: أصابهما التعب الشديد.

(٢) ضرعها: ثديها.

(٣) ثرًا: كثيرًا وفيرًا.

(٤) نفرا: خرجا.

وصاحبُه بالغُلامِ وأكبَرَا أمَانَتَهُ وَحَزْمَهُ وَتَوَسَّمَا فيه الخيْرَ(١).

لم يمضِ غيرُ قليل حتَّى أسلمَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﵁ وعرَضَ نَفْسَهُ على رسولِ اللهِ ﷺ ليخدِمَه، فَوَضَعه الرسولُ ﷺ في خِدْمَتِهِ، ومُنْذُ ذلك اليومِ انْتَقَلَ الغلامُ المَحْظُوظُ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﵁ من رعاية الغَنم إلى خِدْمَةِ سَيِّدِ الخَلقَ والأمم.

لزِمَ عبدُ الله بنُ مسعودٍ ﵁ رسولَ اللهِ ﷺ مُلَازَمَةَ الظِّلِّ لصاحبه، فكَان يُرافِقُه في حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، ويصاحِبهُ داخِلَ بيتِهِ وخارجَه، إذْ كان يوقِظُه إذا نام، وَيَسْتُرُهُ إذا اغْتَسَلَ، ويُلْبِسُهُ نَعْلَيْهِ إذا أرادَ الخروجَ، ويَخْلَعُهُما من قَدَمَيْه إذا هَمَّ بالدخولِ، ويحمِلُ له عصاه وَسِوَاكَه، وَيَلِجُ الحُجْرَةَ بَيْنَ يَدَيْه إذا أوى إلى حُجْرَتِه، بلْ إنَّ الرسولَ ﷺ أذِنَ له بالدُّخولِ عليه مَتى شاءَ، والوقوف على سِرّهِ من غيرِ تَحَرُّج وَلا تأثم، حتَّى دُعِيَ بِصَاحبِ سِرِّ رسولِ اللهِ ﷺ.

رُبِّيَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﵁ في بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ، فاهْتَدَى بِهَدْيِهِ وَتَخَلَّقَ بِشَمَائلِهِ(٢)، وَتَابَعهُ في كل خَصْلَةٍ من خِصالِه حتَّى قيل عنه: إنَّهُ أقربُ النَّاسِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ هَدْيًا وَسَمْتًا(٣)، وَتَعَلَّمَ ابنُ مسعودٍ ﵁ في مَدْرَسَةِ الرسول ﷺ فكان من أقرَأ الصَّحابةِ للقرآنِ، وأفقَهِهِمْ لمعانيه وأعلَمِهِمْ بِشرْعِ اللهِ، ولا أدَلَّ على ذلك مِنْ حكاية ذلك الرَّجُلِ الذي أقْبَلَ على عُمَرَ بنِ الخطابِ ﵁ وهو واقِف بِعَرَفَة، فقال له: جئتُ - يا أميرَ المؤمنين - من الكوفَةِ وَتَرَكْتُ بها رجلًا يُمْلي المَصَاحِفَ عن ظَهْرِ قَلْبِهِ، فَغَضِبَ عمرُ ﵁ غَضَبًا قَلَّما غضِبَ مِثْلَهُ، وَانتَفَخَ حَتَّى كادَ يَمْلأ ما بينَ شُعْبَتَي الرَّحل(٤)، وقال: مَنْ هُوَ وَيْحَكَ(٥)؟! قال: عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ، فما زالَ يَنْطَفِئُ

(١) توسما فيه الخير: تفرسا فيه الخير.

(٢) تخلق بشمائله: تخلق بأخلاقه واتصف بصفاته.

(٣) السمت: الهيئة والخلق.

(٤) شعبتا الرحل: مقدمته ومؤخرته.

(٥) ويحك: ويلك.

وَيُسَرَّى عَنْهُ حَتَّى عادَ إلى حالِه، ثم قال: وَيْحَكَ، واللهِ ما أعْلَمُ أنهُ بَقِيَ أحَدٌ مِنَ النَاسِ أَحَقُّ بهذا الأمْرِ منْهُ، وَسَأحَدِّثكَ عن ذلك، واستأنفَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كلامَهُ فقال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يَسْمُرُ ذاتَ ليلة عِنْدَ أبى بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ويتفاوَضانِ[1] في أمرِ المسلمين، وكُنْتُ معهما، ثُمَّ خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ وَخَرَجْنا معه، فإذا رَجُلٌ قائِم يُصَلِّي بِالْمَسجِدِ لَمْ نتَبينهُ[2]: فَوَقَفَ رسولُ اللهِ ﷺ يَسْتَمِعُ إليه، ثم الْتَفَتَ إلينا وقال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرآنَ رَطْبًا كما نزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ على قِراءَةِ ابْنِ أمِّ عَبْدٍ**»، **ثُمَّ جَلَسَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدْعو فَجَعَلَ الرسولُ ﷺ يقولُ له: «سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ»، ثم أتْبَعَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: فَقُلْتُ في نفسي: واللهِ لأغدُوَنَّ عَلَى عَبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ وَلأبشِّرَنَّهُ بتَأمِينِ الَّرسولِ ﷺ على دُعائِه، فَغدَوْتُ عَلَيْهِ فَبَشَّرْتُه، فَوَجَدْتُ أبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَني إلَيْه فَبَشَّرَه، ولا واللهِ ما سابَقْتُ أبا بَكْر إلى خَيْرٍ قَطُّ إلاَّ سَبَقَني إلَيْهِ**[3].

ولقد بَلَغ من عِلْمِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكتابِ اللهِ أنهُ كان يقولُ: واللهِ الذي لا إلهَ غَيْرُه ما نَزَلَتْ آيَة من كِتابِ الله إلاَّ وأنا أعلم أينَ نَزَلَتْ وأعلمُ فيما نَزَلَتْ، ولو أعْلَمُ أن أحَدًا أعلَمُ مِنى بِكِتَابِ اللهِ تَنَالُه المَطِيُّ[4] لأتيتُه.

[٣] الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بن مروان الأُمَوِي رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (٦٣هـ) وتوفي سنة (١٠١هـ)

قلت: وممن استغل فرصة صغر سنه في طلب العلم الشرعي الخليفة الراشد

---

(١) يتفاوضان: يتذكران ويتحدثان.

(٢) لم نتبينه: لم نعرفه.

(٣) «مسند أحمد» (١٧٥)، «صحيح ابن حبان» (٧٠٦٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٠١)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٧٠٢٧)، وشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيح المسند» (٩٨٥)، و«الجامع الصحيح» (٣٨٤٢).

(٤) رواه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٢). تناله المطي: أي يمكن الوصول إليه.

عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، فعَنْ أَبِي قَبِيْل رَحِمَهُ اللَّهُ قال: بَكَى عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيْزِ وَهُوَ غُلَامٌ صَغِيْرٌ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ وَقَالَتْ: مَا يُبْكِيْكَ؟ قَالَ: ذَكَرْتُ المَوْتَ، قَالَ: وَكَانَ يَوْمَئِذٍ قَدْ جَمَعَ القُرْآنَ، فَبَكَتْ أُمُّهُ حِيْنَ بَلَغهَا ذَلِكَ(١).

وَعَنِ العُتْبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ أَوَّلَ مَا اسْتُبِيْنَ مِنْ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ أَنَّ أَبَاهُ وَلِيَ مِصْرَ، وَهُوَ حَدِيْثُ السِّنِّ، يُشَكُّ فِي بُلُوْغِهِ، فَأَرَادَ إِخْرَاجَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَتِ، أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُوْنَ أَنْفَعَ لِي وَلَكَ: تُرَحِّلُنِي إِلَى المَدِيْنَةِ، فَأَقْعُدَ إِلَى فُقَهَاءِ أَهْلِهَا، وَأَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِم(٢).

الله أكبر، فَوَجَّهَهُ إِلَى المَدِيْنَةِ، فَاشْتُهِرَ بِهَا بِالعِلْمِ وَالعَقْلِ مَعَ حَدَاثَةِ سِنِّهِ، انظر حين استغل الفرصة في هذا السن في طلب العلم الشرعي رفعه الله مكانًا عليًا وأصبح خليفة المسلمين، وهو والله لم يطلب العلم من أجل الخلافة، ومات وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وكما قال سفيان ابن عيينة، والإمام الشافعي، وغيرهما: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أراد هما فعليه بالعلم(٣).

[٤] العالم الكبير سُفيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ بنِ أَبِي عِمْران مَيْمُوْنٍ الهِلَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (١٠٧هـ) وتوفي سنة (١٩٨هـ)

قلت: اشتهر ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ بطلب العلم منذ الصغر.

قال شُعْبَةُ بنُ الحَجَّاجِ رَحِمَهُ اللَّهُ: رَأَيْتُ ابْنَ عُيَيْنَةَ غُلَامًا، مَعَهُ أَلْوَاحٌ طَوِيْلَةٌ عِنْدَ عَمْرِو

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١١٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١١٧).

(٣) «تهذيب الأسماء» للنووي (١/ ٥٤٩).

بنِ دِيْنَارٍ، وَفِي أُذُنِهِ قُرْطٌ، أَوْ قَالَ: شَنْفٌ(١).

وقال ابْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ عن نفسه: أَوَّلُ مَنْ جَالَسْتُ عَبْدُ الكَرِيْمِ أَبُو أُمَيَّةَ، وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً.

قَالَ: وَقَرَأْتُ القُرْآنَ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً.

ويقول سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ: كَانَ أَبِي صَيْرَفِيًّا بِالكُوْفَةِ، فَرَكِبَهُ دَيْنٌ، فَحَمَلَنَا إِلَى مَكَّةَ، فَصِرْتُ إِلَى المَسْجِدِ الحرام، فَإِذَا عَمْرُو بنُ دِيْنَارٍ، فَحَدَّثَنِي بِثَمَانِيَةِ أَحَادِيْث، فَأَمْسَكْتُ لَهُ حِمَارَهُ حَتَّى صَلَّى وَخَرَجَ، فَعَرَضْتُ الأَحَادِيْث عَلَيْهِ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ فِيْكَ.

ويقول ابْنُ عُيَيْنَةَ أيضًا: أَوَّلُ مَنْ أَسْنَدَنِي إِلَى الأُسْطُوَانَةِ مِسْعَرُ بنُ كِدَامٍ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي حَدَثٌ، قَالَ: إِنَّ عِنْدَكَ الزُّهْرِيَّ، وَعَمْرَو بنَ دِيْنَارٍ(٢).

[٥] الإمام مالك بن أنس بنِ مَالِكٍ المَدَنِيُّ رَحِمَهُ اللهُ إمام دار الهجرة

ولد سنة (٩٣هـ) وتوفي سنة (١٧٩هـ)

قلت: لقد اشتهر الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ بطلب العلم في سن مبكرة.

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: طَلَبَ مَالِكٌ العِلْمَ وَهُوَ ابْنُ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَتَأَهَّل لِلْفُتْيَا، وَجَلَسَ لِلإِفَادَةِ، وَلَهُ إِحْدَى وَعِشْرُوْنَ سَنَةً، وَحَدَّثَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ وَهُوَ حَيٌّ شَابٌّ طَرِيٌّ، وَقَصَدَهُ طَلَبَةُ العِلْمِ مِنَ الآفَاقِ فِي آخِرِ دَوْلَةِ أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُوْرِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَازْدَحَمُوا عَلَيْهِ فِي خِلاَفَةِ الرَّشِيْدِ، وَإِلَى أَنْ مَاتَ(٣).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: تعال فالبس

---

(١) الشَّنْف ـ بفتح الشين ـ: من الحلي، يعلق في أسفلها، وقيل: هما واحد.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٦٠و٤٦٢و٤٦٤)، و«تاريخ بغداد» (٩/ ١٧٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٩و٥٠).

ثياب العلم، فألبستني ثياب مشمرة، ووضعت الطويلة[١] على رأسي، وعممتني فوقها، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن، وكانت تقول: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[٢].

ويظهر أنه لهذا التحريض من أمه جلس إلى ربيعة الرأي أول مرة، فأخذ عنه فقه الرأي وهو حدث صغير على قدر طاقته، حتى قال بعض معاصريه[٣]: رأيت مالكًا في حلقة ربيعة وفي أذنه شَنْفٌ.

وهذا يدل على ملازمته الطلب منذ صغره، وكان حريصًا منذ صباه على استحفاظ ما يكتب، حتى إنه بعد سماع الدرس وكتابته يتبع ظلال الأشجار، يستعيد ما تلقى، ولقد رأته أخته كذلك، فذكرته لأبيها، فقال لها: يا بنيه، إنه يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان لي أخ في سن ابن شهاب فألقى أبي يومًا علينا مسألة فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: ألهتك الْحَمَام عن طلب العلم، فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين، - وفي رواية - ثمان سنين لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كمي تمرًا وأناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا: مشغول[١].

قال ابن هرمز لجاريته يومًا: من بالباب؟ فلم تر إلا مالكًا، فذكرت ذلك له فقال: ادعيه فإنه عالم الناس[٥].

---

(١) الطويلة: نوع من اللباس يوضع على الرأس يتميز به أهل العلم، وهي أشبه بما يضعه الأزاهرة على رؤوسهم، والله أعلم.
(٢) «الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب» لابن فرحون المالكي (١/ ٩٨).
(٣) المرجع السابق (١/ ٩٩).
(٤) المرجع السابق (١/ ٩٩).
(٥) المرجع السابق (١/ ١١٠).

[٦] ناصر السنة الإمام محمد بن إدريس بن عباس الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (١٧٠هـ) وتوفي سنة (٢٠٤هـ)

قلت: لقد طلب الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ العلم منذ الصغر.

قال الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنْتُ يَتِيمًا فِي حِجْرِ أُمِّي وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا مَا تُعْطِي الْمُعَلِّمَ، وَكَانَ الْمُعَلِّمُ قَدْ رَضِيَ مِنِّي أَخْلُفُهُ إِذَا قَامَ، فَلَمَّا خَتَمْتُ الْقُرْآنَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَكُنْتُ أُجَالِسُ الْعُلَمَاءَ، فَأَحْفَظُ الْحَدِيثَ، أَوِ الْمَسْأَلَةَ، وَكَانَ مَنْزِلُنَا بِمَكَّةَ فِي شِعْبِ الْخَيْفِ، فَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْعَظْمِ يَلُوحُ فَأَكْتُبُ فِيهِ الْحَدِيثَ وَالْمَسْأَلَةَ، وَكَانَتْ لَنَا جَرَّةٌ قَدِيمَةٌ فَإِذَا امْتَلَأَ الْعَظْمُ طَرَحْتُهُ فِي الْجَرَّةِ»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمْ يَكُنْ لِي مَالٌ وَكُنْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي الْحَدَاثَةِ وَكُنْتُ أَذْهَبُ إِلَى الدِّيوَانِ أَسْتَوْهِبُ الظُّهُورَ فَأَكْتُبُ فِيهَا»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنت وأنا في الكُتَّاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون أمليتهم فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئًا، قال: ثم لما خرجت من الكُتَّاب كنت ألتقط الخزف[(٣)]، والدفوف[(٤)]، وكرب النخل[(٥)]، وأكتاف الجمال، وأكتب فيها الأحاديث، وأجيء إلى الدواوين فأستوهب منها الظهور[(٦)] وأكتب فيها

(١) انظر «حلية الأولياء» (٩/ ٧٣)، و«آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم الرازي (ص: ٢٠)، و«جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٤١٣).

(٢) «تاريخ دمشق» (٥١/ ٢٧٩)، و«الانتقاء» لابن عبد البر (ص:٧٠).

(٣) الخزف: الآجر وكل ما عمل من طين وشوي حتى يكون فخارًا.

(٤) الدفوف: واحدها دف، وهي الجلود التي يعمل منها الطبل والضمامات.

(٥) كرب النخل: الواحدة كربة، وهي أصول السعف الغلاظ العرض التي تقطع معها.

(٦) الظهور: الأوراق.

حتى كان لأمي حِباب[١] فملأتها أكتافًا وخزفًا»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «خرجت من مكة فلزمت هذيلًا في البادية، أتعلم كلامها وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرتحل برحلتهم، وأنزل بنزولهم، فلما أن رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار، وأذكر الآداب، والأخبار، وأيام العرب، فمر بي رجل من بني عثمان من الزبيريين، فقال: يا أبا عبد الله عزَّ علي أن لا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه فتكون قد سدت أهل زمانك، قال فقلت: ومن بقي يقصد إليه؟ فقال لي: هذا مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ، قال فوقع في قلبي فعمدت إلى الموطأ فاستعرته من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهرًا، ثم دخلت إلى والي مكة فأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس، قال فقدمت المدينة وأبلغت الكتاب إلى الوالي، فلما أن قرأه قال: والله يا فتى إِنَّ مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيًا راجلًا أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس؛ فإني لست أرى الذل حتى أقف على بابه، فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير أن يوجه إليه ليحضر، فقال: هيهات، ليتني إذا ركبت أنا معك ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا حاجتنا، قال فواعدته العصر وركبنا جميعًا فو الله لقد كان كما قال لقد أصابنا من تراب العقيق، قال فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك إني بالباب، فدخلت فأبطأت، ثم خرجت، فقالت: إن مولاي يقرئك السلام ويقول: إن كانت مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف، فقال لها: قولي له معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة، قال فدخلت ثم خرجت وفي يدها كرسي فوضعته، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ

(١) حِباب: جمع حُبّ وهي الجرة الكبيرة الضخمة.

(٢) «تاريخ دمشق» (٥١/ ٢٨٥)، و«معجم الأدباء» (٦/ ٢٣٩٥).

طوال مسنون اللحية[١]، فجلس وهو متطلس[٢]، فدفع الوالي الكتاب من يده، ثم قال: يا سبحان الله وصار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالرسائل، قال: فرأيت الوالي وقد تهيبه أن يكلمه فتقدمت إليه فقلت له: أصلحك الله إني رجل مطلبي ومن حالي ومن قصتي، فلما أن سمع كلامي نظر إليّ ساعة كان لمالك فراسة، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: محمد، فقال لي: يا محمد، اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن، ثم قال: نعم وكرامة إذا كان غدًا تجيء ويجيء من يقرأ لك الموطأ، قال فقلت: فإني أقوم بالقراءة، قال: فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأه ظاهرًا والكتاب في يدي فكلما تهيبت مالكًا وأريد أن أقطع القراءة أعجبه حسن قراءتي وإعرابي يقول لي: بالله يا فتى زد، حتى قرأته في أيام يسيرة، ثم أقمت بالمدينة إلى أن توفي مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٣].

[٧] إمام أهل السنة المبجل أحمد بن حنبل الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (١٦٤هـ) وتوفي سنة (٢٤١هـ)

قلت: لقد بدأ الإمام المبجل أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحلته العلمية منذ الطفولة.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعتُ أبي يقول: كنتُ ربما أَردتُ البكور في الحديث فتأخذ أُمي بثيابي وتقول: حتى يؤذن الناس، أو حتى يُصبحوا، وكنت ربما بَكرت إلى مجلس أبي بكر بن عياش وغيره[٤].

قال المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال لي أبو سِراج ابن خُزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنا مع أبي عبد الله في الكتّاب، فكان النساء يبعثن إلى المعلم: ابعث إلينا بابن حنبل، ليكتب جوابَ كتبهم، فكان إذا دخل إليهن لا يرفع رأسه ينظر إليهن، قال أبو سراج: فقال أبي - وذكره -

(١) مسنون اللحية: طويلها.

(٢) متطلس: أي لابس الطيلسان، وهو كساء مدور أخضر لا أسفل له.

(٣) «تاريخ دمشق» (٥١/ ٢٨٦).

(٤) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص:٣١)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ٣٠٦).

فجعل يعجب من أدبه، وحسن طريقته، فقال لنا ذات يوم: أنا أُنفق على ولدي وأجيئُهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا فما أراهم يُفلِحون، وهذا أَحمد بن حنبل غلام يتيم، انظر كيف يخرج!! وجعل يعجب[١].

[٨] الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ
إمام الدنيا وأستاذ الأستاذين وطبيب المحدثين

ولد سنة (١٩٤هـ) وتوفي سنة (٢٥٦هـ)

قلت: لقد أُلْهِمَ الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ حب العلم وهو في الكُتَّاب.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أُلْهِمْتُ حِفْظَ الحَدِيْثِ وَأَنَا فِي الكُتَّابِ، فَقِيْلَ له: كم كَانَ سِنُّكَ؟ فَقَالَ: عشرُ سِنِيْنَ، أَوْ أَقَلّ، ثُمَّ خرجْتُ مِنَ الكُتَّابِ بَعْد العشرِ، فَجَعَلْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى الدَّاخلِيِّ وَغيرِهِ، فَقَالَ يَوْمًا فِيْمَا كَانَ يَقْرَأُ لِلنَّاسِ: سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ لَمْ يَرْوِ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، فَانْتَهَرنِي، فَقُلْتُ لَهُ: ارْجِعْ إِلَى الأَصْلِ، فَدَخلَ فنظرَ فِيْهِ، ثُمَّ خَرجَ، فَقَالَ لِي: كَيْفَ هُوَ يَا غُلاَمُ؟ قُلْتُ: هُوَ الزُّبَيْرُ ابنُ عَدِيٍّ، عَنْ إِبْرَاهِيْمَ، فَأَخَذَ القلمَ مِنِّي، وَأَحكَمَ كِتَابَهُ، وَقَالَ: صدقْتَ، فَقِيْلَ لِلْبُخَارِيِّ: ابْنُ كَمْ كُنْتَ حِيْنَ رددتَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمَّا طَعَنْتُ فِي سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، كُنْتُ قَدْ حفظتُ كتبَ ابْنِ المُبَارَكِ وَوَكِيْعٍ، وَعرفتُ كَلاَمَ هَؤُلاَءِ[٢]، ثُمَّ خرجْتُ مَعَ أُمِّي وَأَخِي أَحْمَدَ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا حَجَجْتُ رَجَعَ أَخِي بِهَا! وَتخلَّفْتُ فِي طلبِ الحَدِيْثِ[٣].

قال أبو جعفر مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ بَعْضَ أَصْحَابِي يقول: كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ سَلاَمٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ فَلَمَّا خَرجَ قَالَ مُحَمَّدُ بنُ سَلاَمٍ: كُلَّمَا

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص:٢٣).

(٢) قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «مقدمة الفتح» (ص:٤٧٩): يعني أصحاب الرأي.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٣٩٣)، و«تاريخ بغداد» (٢/ ٧)، و«تهذيب الكمال» (٢٤/ ٤٣٩) و«طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٢١٦) و«مقدمة الفتح» (ص: ٤٧٨و٤٧٩).

دَخَلَ عليَّ هَذَا الصَّبِيُّ تحيَّرْتُ وَألبسَ عليَّ أَمر الحَدِيْثِ وَغَيْرِهِ وَلَا أَزَالُ خَائِفًا مَا لَمْ يَخْرُجْ[١].

وكان شيخه السُّرْماري يُجلسه وهو صغير على حِجْره ويقول: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى فَقِيْهٍ بحقِّهِ وَصدقِهِ فلينظُرْ إِلَى مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ[٢].

[٩] شيخ المفسرين الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٢٢٤هـ) وتوفي سنة (٣١٠هـ)

قلت: وممن استغل فرصة صغر السن في طلب العلم الشرعي محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فقد ولد سنة (٢٢٤)، وحفظ القرآن وعمره سبع سنين، وكتب الحديث وعمره تسع سنين، ورحل في طلب العلم يافعًا وعمره اثنتا عشرة سنة[٣].

[١٠] شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٦٦١هـ) وتوفي سنة (٧٢٨هـ)

قلت: لقد نشأ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في رياض العلم والعلماء منذ نعومة أظفاره.

قال صاحب كتاب «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية»[٤]: «لقد أنبته الله أحسن النَّبَات وأوفاه، وَكَانَت مخايل النجابة عَلَيْهِ فِي صغره لائحة، وَدَلَائِل الْعِنَايَة فِيهِ وَاضِحَة، أخبرني من أَثِق بِهِ عَمن حَدثهُ أَن الشَّيْخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَال صغره كَانَ إِذا أَرَادَ

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٩٢)، «طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٢٢٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٩٢).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٦٧).

(٤) «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للحافظ عمر بن علي البزار، المتوفى سنة (٧٤٩)، (ص: ١٦).

الْمُضِيّ إِلَى الْمكتب يَعْتَرِضهُ يَهُودِيّ كَانَ منزله بطريقه بمسائل يسْأَله عَنْهَا لما كَانَ يلوح عَلَيْهِ من الذكاء والفطنة وَكَانَ يجيبه عَنْهَا سَرِيعًا حَتَّى تعجب مِنْهُ، ثمَّ إنه صَار كلما اجتاز بِهِ يُخبرهُ بأَشْيَاء مِمَّا يدل على بطلَان مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَلم يلبث أَن أسْلَمْ وَحسن إِسْلَامه وَكَانَ ذَلِك ببركة الشَّيْخ على صغر سنه، وَلم يزل مُنْذُ إبان صغره مُسْتَغْرق الْأَوْقَات فِي الْجهد وَالِاجْتِهَاد وَختم الْقرَآن صَغِيرًا، ثمَّ اشْتغل بِحِفْظ الحَدِيث وَالْفِقْه والعربية حَتَّى برع فِي ذَلِك مَعَ مُلَازمَة مجَالِس الذّكر وَسَمَاع الْأَحَادِيث...» اهـ.

ويقول تلميذه الحافظ ابن عبدالهادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَشأ من حِين نَشأ فِي حجور الْعلمَاء، راشفًا كؤوس الْفَهم، راتعًا فِي رياض التفقه ودوحات الْكتب الجامعة لكل فن من الْفُنُون، لا يلوي إِلَى غير المطالعة والاشتغال وَالْأَخْذ بمعالي الْأُمُور خُصُوصًا علم الْكتاب الْعَزِيز وَالسّنة النَّبَوِيَّة ولوازمها، وَلم يزل على ذَلِك خلفًا صَالحًا سلفيًا متألهًا عَن الدُّنْيَا، صينًا، تقيًا، برًا بِأُمِّهِ، ورعًا، عفيفًا، عابدًا، ناسكًا، صوامًا، قوامًا، ذَاكِرًا لله تَعَالَى فِي كل أَمر وعَلى كل حَال، رجاعًا إِلَى الله تَعَالَى فِي سَائِر الْأَحْوَال والقضايا، وقافًا عِنْد حُدُود الله تَعَالَى وأوامره ونواهيه، آمرًا بِالْمَعْرُوفِ، ناهيًا عَن الْمُنكر بِالْمَعْرُوفِ، لا تكَاد نَفسه تشبع من الْعلم، فَلَا تروى من المطالعة، وَلَا تمل من الاشتغال، وَلَا تكل من الْبَحْث، وَقل أَن يدْخل فِي علم من الْعُلُوم من بَاب من أبوابه إِلَّا وَيفتح لَهُ من ذَلِك الْبَاب أَبْوَاب، ويستدرك مستدركات فِي ذَلِك الْعلم على حذاق أهله، مَقْصُوده الْكتاب وَالسّنة، وَلَقَد سمعته فِي مبادئ أمره يَقُول: إِنَّه ليقف خاطري فِي الْمَسْأَلَة وَالشَّيْء أَو الْحَالة الَّتِي تشكل علي فأستغفر الله تَعَالَى ألف مرّة أَو أَكثر أَو أقل حَتَّى ينشرح الصَّدْر وينحل إِشْكَال مَا أشكل، قَالَ وأكون إِذ ذَاك فِي السُّوق أَو الْمَسْجِد أَو الدَّرْب أَو الْمدرسَة لا يَمْنعنِي ذَلِك من الذّكر وَالِاسْتِغْفَار إِلَى أَن أنال مطلوبي.

قَالَ هَذَا الصاحب: وَلَقَد كنت فِي تِلْكَ الْمدَّة وَأول النشأة إِذا اجْتمعت بِهِ فِي ختم أَو مجْلِس ذكر خَاص مَعَ أحد الْمَشَايِخ الْمَذْكُورين وتذاكروا وَتكلم مَعَ حَدَاثَة سنه أجد لكَلَامه صولة على الْقُلُوب، وتأثيرًا فِي النُّفُوس، وهيبة مَقْبُولَة، ونفعًا يظْهر أَثَره وتنفعل لَهُ النُّفُوس الَّتِي سمعته أَيَّامًا كَثِيرَة بعقبه حَتَّى كَانَ مقاله بِلِسَان حَاله وحاله ظَاهر لَهُ فِي مقاله شهِدت ذَلِك مِنْهُ غير مرّة»[1].

وقال ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «سمع مُسْند الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل مَرَّات، وَسمع الْكتب السِّتَّة الْكِبَار والأجزاء، وَمن مسموعاته مُعْجم الطبراني الْكَبِير، وعني بِالْحَدِيثِ، وَقَرَأَ، وَنسخ، وَتعلم الْخط والحساب فِي الْمكتب، وَحفظ الْقُرْآن، وَأَقْبل على الْفِقْه، وَقَرَأَ الْعَرَبيَّة على ابْن عبد القوي ثمَّ فهمها، وَأخذ يتَأَمَّل كتاب سِيبَوَيْهٍ حَتَّى فهم فِي النَّحْو، وَأَقْبل على التَّفْسِير إقبالًا كليًّا حَتَّى حَاز فِيهِ قصب السَّبق، وَأحكم أصول الْفِقْه وَغير ذَلِك، هَذَا كُله وَهُوَ بعد ابْن بضع عشرَة سنة، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وَقُوَّة حافظته، وَسُرْعَة إِدْرَاكه، وَاتفقَ أَن بعض مَشَايِخ الْعلمَاء بحلب قدم إِلَى دمشق وَقَالَ: سَمِعت فِي الْبِلَاد بصبي يُقَال لَهُ أَحْمَد ابن تَيْمِية، وَأَنه سريع الْحِفْظ، وَقد جِئْت قَاصِدًا لَعَلِّي أَرَاهُ، فَقَالَ لَهُ خياط: هَذِه طَرِيق كِتَابه وَهُوَ إِلَى الْآن مَا جَاءَ فَاقْعُدْ عندنَا السَّاعَة يَجِيء يعبر علينا ذَاهِبًا إِلَى الْكتاب، فَجَلَسَ الشَّيْخ الْحلَبِي قَلِيلًا، فَمر صبيان فَقَالَ الْخياط للحلبي: هذاك الصَّبِي الَّذِي مَعَه اللَّوْح الْكَبِير هُوَ أَحْمَد بن تَيْمِية، فناداه الشَّيْخ فجَاء إِلَيْهِ، فَتَنَاول الشَّيْخ اللَّوْح فَنظر فِيهِ ثمَّ قَالَ: يَا وَلَدي، امسح هَذَا حَتَّى أملي عَلَيْك شَيْئًا تكتبه، فَفعل فأملى عَلَيْهِ من متون الْأَحَادِيث أحد عشر أَو ثَلَاثَة عشر حَدِيثًا وَقَالَ لَهُ: اقْرَأ هَذَا، فَلم يزدْ على أَن تَأمله مرّة بعد كِتَابَته إِيَّاه ثمَّ دَفعه إِلَيْهِ وَقَالَ: اسْمَعْهُ عَليّ، فقرأه عَلَيْهِ عرضًا كأحسن مَا أَنْت سامع، فَقَالَ لَهُ: يَا وَلَدي، امسح هَذَا، فَفعل فأملى عَلَيْهِ عدَّة أَسَانِيد انتخبها، ثمَّ

(١) «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص:٢٢).

قَالَ: اقْرَأ هَذَا، فَنظر فِيهِ كَمَا فعل أول مرّة، فَقَامَ الشَّيْخ وَهُوَ يَقُول: إِن عَاشَ هَذَا الصَّبِي لَيَكُونن لَهُ شَأْن عَظِيم فَإِن هَذَا لم ير مثله، أَو كَمَا قَالَ».

وَقَالَ الْحَافِظ أَبُو عبد الله الذَّهَبِيّ رَحِمَهُ اللهُ: «نَشأ - يَعْنِي الشَّيْخ تَقِيّ الدّين رَحِمَهُ اللهُ - فِي تصون تَامّ، وعفاف، وتأله، وَتعبد، واقتصاد فِي الملبس والمأكل، وَكَانَ يحضر الْمدَارِس والمحافل فِي صغره ويناظر ويفحم الْكِبَار، وَيَأْتِي بِمَا يتحير مِنْهُ أَعْيَان الْبَلَد فِي الْعلم، فَأفْتى وَله تسع عشرَة سنة بل أقل، وَشرع فِي الْجمع والتأليف من ذَلِك الْوَقْت، وأكب على الِاشْتِغَال وَمَات وَالِده وَكَانَ من كبار الْحَنَابِلَة وأئمتهم، فَدَرَّسَ بَعْدَهُ بوظائفه وَله إِحْدَى وَعِشْرُونَ سنة، واشتهر أمره وَبَعُدَ صيته فِي الْعَالم، وَأخذ فِي تَفْسِير الْكتاب الْعَزِيز فِي الْجمع على كرْسِي من حفظه، فَكَانَ يُورد الْمجْلس وَلَا يتلعثم، وَكَذَا كَانَ الدَّرْس بتؤدة وَصَوت جَهورِي فصيح»[1].

[١١] المتفنن في جميع الفنون أبو الفرج ابن الجوزي عبدالرحمن بن علي رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (٥١٠هـ) وتوفي سنة (٥٩٧هـ)

قلت: بدأ ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ حياته العلمية من المرحلة الأولية من سن الطفولة.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ وهو يصف علو همته في طلب العلم واستغلاله لفرصة الصغر وهو يخاطب ابنه فيقول[2]: «وانظر يا بني إلى نفسك عند الحدود، فتلمَّح كيف حِفظُكَ لها؟ فإنه من راعى رُوعي، ومن أهملَ تُرِك، فإني أذكر نفسي ولي همةٌ عالية، وأنا في المكتب ولي نحو من ست سنين، وأنا قرينُ الصبيان الكبار قد رُزِقتُ عقلًا وافرًا في الصغر يزيدُ على عقلِ الشيوخ، فما أذكر أني لعبتُ في طريقٍ معَ صبيٍّ

(١) «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص:٢١).

(٢) «لفتة الكبد في نصيحة الولد» (ص:١٠).

قط، ولا ضحِكتُ ضحكًا جارحًا، حتى إني كنتُ ولي سبعُ سنين أو نحوُها أحضرُ رحبةَ الجامع، ولا أتخيرُ حلقةَ مشعبذٍ، بل أطلب المُحَدِّث، فيتحدث بالسند الطويل، فأحفظُ جميعَ ما أسمع، وأرجع إلى البيت فأكتبه، ولقد وُفِّقَ لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ ، فكان يحملني إلى الأشياخ، وأسمعني «المسند» وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يُراد مني، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، فناولني ثبتها، ولازمته إلى أن توفي رَحِمَهُ اللَّهُ ، فأدركتُ به معرفة الحديث والنقل، ولقد كان الصبيان ينزلون دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا في زمن الصغر آخذ جزءًا، وأقعد حُجزةً من الناس إلى جانب الرَّقة فأتشاغلُ بالعلم».

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم أقنع بفنٍّ واحد من العلم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة ولم أترك أحدًا ممن قد انزوى أو يعظ، ولا غريبًا يقدم إلا وأحضره، وأتخير الفضائل، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث، فينقطع نَفَسِي من العَدْوِ لئلا أُسبَق، وكنت أصبح وليس لي ما آكل، وأمسي وليس لي شيء، وما أذلَّني الله لمخلوق، ولكنَّه ساق رزقي لصيانة عِرضي، ولو شرحتُ أحوالي لطال الشرح»[١].

[١٢] العالم الكبير والمحدث الشهير
أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٦٣١هـ) وتوفي سنة (٦٧٦هـ)

قلت: لقد كان النووي رَحِمَهُ اللَّهُ عالي الهمة في طلب العلم منذ صغره، فقد ذكر ابن داود العطار[٢] عن ياسين بن يوسف المراكشي قال: «رأيت الشيخ محيي الدين

---

(١) «لفتة الكبد في نصيحة الولد» (ص:١١) بتصرف.

(٢) «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين» (ص:٤٤).

وهو ابن عشر سنين بنوى، والصبيان يُكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم ويبكي؛ لإكراههم، ويقرأ القرآن في هذه الحالة، فوقع في قلبي محبته، وجعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن، قال: فأتيت الذي يقرئه القرآن فوصيته به وقلت له: هذا الصبي يُرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم وينتفع الناس به، فقال لي: أمنجم أنت؟ فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك، فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الاحتلام».

❋❋❋

ختامًا لهذا الباب العظيم ينبغي التنبيه على أمور منها:

(١) أن الحفظ في الصغر إن لم يكن معه متابعة للحفظ وإحياء له ضاع، كالحجر قابل لترسب الأتربة عليه، وتغطية نقوشه كلها.

(٢) الحفظ في هذا السن المبكر عظيم جدًّا، ولكن ليس معنى ذلك أن الحفظ محصور في هذا السن فقط، ولكن هذا تشجيع لأولياء الأمور بالاهتمام بالطفل في سنه المبكرة، فإن الأطفال في سنهم المبكرة ليس عندهم قدرة على الفهم، فتكون طاقاتهم متوجهة نحو الحفظ فقط، بخلاف الكبير فإنه يجمع بين الحفظ والفهم.

(٣) أن الحفظ مهم جدًّا لكن ليس هو كل العلم بل هو جزء من العلم.

❊❊❊

الفصل السابع

كبار في السن استغلوا الفرص فأصبحوا كبار القدر ومكانتهم بين الخلائق في الصدر

قلت: صدق الشاعر الذي قال:

ما شـابَ عَزمي وَلا حَزمي وَلا خُلقي ... وَلا وَفـــائي وَلا دينـــي وَلا كَرَمـــي

وَإِنَّمـــا اِعتـــاضَ رأســـي غَيـــرَ صِـــبغَتِهِ ... وَالشَيبُ في الرأسِ غيرَ الشيب في الهِمَمِ

اعلم يا أخي: أن الشيب جلَّةٌ ووقار، ونور للعبد ومنار، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القيامةِ» «صحيح» رواه الترمذي، والنسائي، عن كعب بن مرة رضي الله عنه[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ» «صحيح» رواه أحمد والترمذي عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه[٣].

وقد أحسن من قال[٤]:

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٩/ ٣٩).

(٢) «سنن الترمذي» (١٦٣٤)، و«سنن النسائي» (٣١٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٩٨)، و«صحيح سنن النسائي» (٣١٤٤)، و«السلسلة الصحيحة» (١٢٤٤)، و«صحيح الجامع» (٦٣٠٧)، وحسنه شيخنا مقبل في «الجامع الصحيح» (٣٠٩).

(٣) «مسند أحمد» (١٧٦٩٨)، و«سنن الترمذي» (٢٣٢٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٩)، و«السلسلة الصحيحة» (١٨٣٦)، و«صحيح الجامع» (٣٢٩٦).

(٤) «التشبيهات» لابن أبي عون (١/ ٤٨).

أهلًا وسهلًا بالمشيبِ فإنه سـمةُ العفيـفِ وحليـةُ المتحـرج
وكأنَّ شيبي نظمُ درٍ زاهرٍ في تــاجِ ذي ملــكٍ أغــرَّ متــوجِ

فللَّه در أناس طال عمرهم، وعلت هممهم، وحسن عملهم، فكانوا أسودًا في هممهم، تفخر بهم الدنيا وتطيب، استغلوا كل فرصة في الخير حتى أصبحوا قممًا.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب العلم[1]: «وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في الكِبَر».

قلت: نعم، إن الكثرة الكاثرة من أصحاب النبي ﷺ كانوا كبارًا في السن، وما منعهم كبر السن من الطلب والتعلم، فأصبحوا أساتذة الدنيا في العلم الشرعي، وإليهم المرجع في فهم نصوص القرآن والسنَّة، بل حتى الأنبياء ما أتاهم العلم إلا بعد الأربعين، والله تعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ما كنت تدري قبله ما الكتب السابقة ولا الإيمان ولا الشرائع الإلهية، حتى جاء الوحي بعد الأربعين، وكل نبي لا يوحى إليه إلا بعد الأربعين، إذًا لا تيأس وتقول مقولة العامة: «لمَّا شاب وَدُّوهُ الكُتَّاب»، فأحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «من المحبرة إلى المقبرة»، فاستمر في السباق إلى كل خير، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ، والمراد باليقين هنا: هو الموت كما ذكر العلماء.

وإليك أخي الكريم: ذكر بعض من طلب العلم، أو خدم هذا الدين بنفسه، أو بماله، أو بعلمه، وهو كبير في السن، فأصبح كبير السن والقدر، وذكر مثل هذه النماذج الطيبة ترفع همتك، وتجدد نشاطك، وتحيي قوتك بإذن الله.

---

(١) باب: الاغتباط في العلم والحكمة.

فممن استغل فرصة الكِبَر في البذل والعطاء وخدمة الدين

[١] حَكِيْمُ بنُ حِزَامِ بنِ خُوَيْلِدِ بنِ أَسَدٍ الأَسَدِيُّ رضي الله عنه

توفي سنة (٥٤هـ)

قلت: أسلم حكيم بن حزام رضي الله عنه وهو كبير السن عام الفتح، وسبق بعض من سبقه إلى الإسلام، وذلك بسبب بذله وكرمه وسخائه وجوده ونفقته في سبيل الله، وصدق رسولنا صلى الله عليه وسلم القائل: «...**خِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].

قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ المُنْذِرِ رحمه الله: «عَاشَ مائَةً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، سِتِّيْنَ سَنَةً فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَسِتِّيْنَ فِي الإِسْلَامِ»[(٢)].

وقال الذهبي رحمه الله: «لَمْ يَعِشْ فِي الإِسْلَامِ إِلاَّ بِضْعًا وَأَرْبَعِيْنَ سَنَةً»[(٣)].

قال حكيم بن حزام رضي الله عنه: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى العَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم

---

(١) البخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٤)، و«التاريخ الكبير» للبخاري (٣/ ١١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٥).

حَتَّى تُوُفِّيَ. متفق عليه[١].

أَعْتَقَ فِي الجَاهِلِيَّةِ مائَةَ رَقَبَةٍ، وَأَعْتَقَ فِي الإِسْلَامِ مِثْلَهَا، وَسَاقَ فِي الجَاهِلِيَّةِ مائَةَ بَدَنَةٍ، وَفِي الإِسْلَامِ مِثْلَهَا[٢].

وَعَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: مَا بَلَغَنَا أَنَّهُ كَانَ بِالمَدِيْنَةِ أَكْثَرَ حَمْلًا فِي سَبِيْلِ اللهِ مِنْ حَكِيْمٍ.

وَقِيْلَ: إِنَّ حَكِيْمًا بَاعَ دَارَ النَّدْوَةِ مِنْ مُعَاوِيَةَ بِمائَةَ أَلْفٍ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ: بِعْتَ مَكْرُمَةَ قُرَيْشٍ!

فَقَالَ: ذَهَبَتِ المَكَارِمُ يَا ابْنَ أَخِي إِلاَّ التَّقْوَى، إِنِّيْ اشْتَرَيْتُ بِهَا دَارًا فِي الجَنَّةِ، أُشْهِدُكُم أَنِّي قَدْ جَعَلْتُهَا للهِ.

لَمَّا تُوُفِّيَ الزُّبَيْرُ، لَقِيَ حِكِيْمٌ عَبْدَ اللهِ بنَ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: كَمْ تَرَكَ أَخِي مِنَ الدَّيْنِ؟

قَالَ: أَلْفَ أَلْفٍ، قَالَ: عَلَيَّ خَمْسُ مائَةِ أَلْفٍ[٣].

وعند موت حكيم رضي الله عنه قال: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، قَدْ كُنْتُ أَخْشَاكَ، وَأَنَا اليَوْمَ أَرْجُوْكَ[٤].

ومِمن استغل فرصة الكِبَرِ في طلب العلم

[٢] محدث ما وراء النهر أبو أحمد عيسى بن مُوسَى البُخَارِيُّ، الأَزْرَق، غُنْجَار رحمه الله، توفي سنة (١٨٦هـ)

قلت: عِيْسَى بنُ مُوْسَى البُخَارِيُّ مُحَدِّث ما وراء النهر، رحل وحمل عن سفيان

---

(١) البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩)، و«الطبقات الكبرى» (ص:٢٢٢).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٠٧٣) بإسنادين، قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٨٤): أحدهما حسن، وانظر «جمهرة نسب قريش» (ص:٣٤٥).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩-٥١).

الثوري وطبقته.

قَالَ الحَاكِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «هُوَ إِمَامُ عَصرِه، طَلَبَ الحَدِيْثَ عَلَى كِبَرِ السِّنِّ، وَرَحَلَ»(١).

[٣] الفقيه الثقة الثبت الحَارِثُ بنُ مِسْكِيْنِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ يُوْسُفَ الأُمَوِيُّ شيخ الإمام النسائي رَحِمَهُ اللَّهُ ولد سنة (١٥٤) وتوفي سنة (٢٥٠هـ)

قلت: قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢): طَلَبَ العِلْمَ عَلَى كِبَرٍ.

وقال في «تذكرة الحفاظ»: «قال الخطيب: كان فقيهًا ثقة ثبتًا، حمل إلى بغداد وسجن في المحنة فلم يجب، فلم يزل محبوسًا إلى أن ولي المتوكل فأطلقه، ثم ولاه قضاء مصر، ثم استعفى من القضاء سنة خمس وأربعين فأعفى، مات سنة خمسين ومائتين في ربيع الأول، وله ست وتسعون سنة رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان مع إمامته في العلم وزهده وعبادته قوّالًا بالحق، من قضاة العدل».

[٤] سلطان العلماء أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ابن أبي القاسم المعروف بابن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٥٧٧هـ) وتوفي سنة (٦٦٠هـ)

قلت: قالوا عنه: فتح عينيه على واقع متضارب بين ترف المترفين وبؤس المساكين المحرومين، حيث كان والده رَحِمَهُ اللَّهُ يشتغل من كد يده، عاملًا في الأسواق أو عند الناس، ولما توفي رَحِمَهُ اللَّهُ لم يجد اليتيم من يطعمه ويأويه فاشتغل في الجامع الأموي بدمشق، ينظف المسجد ويحرس نعال المصلين بعد أن توسط له الفخر بن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك، كما سمح له بأن ينام الليل في زاوية بأحد دهاليز المسجد على الرخام.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٨٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥٤)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ٧٥).

و يحكي ابن السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ [١] أن الشيخ عز الدّين كان فِي أول أمره فَقِيرًا جدًّا وَلم يشْتَغل إِلَّا على كِبَر، وَسبب ذَلِك أنه كَانَ يبيت فِي الكلاسة[٢] من جَامع دمشق، فَبَاتَ بهَا لَيْلَة ذَات برد شَدِيد فَاحْتَلَمَ فَقَامَ مسرعًا وَنزل فِي بركَة الكلاسة فَحصل لَهُ ألم شَدِيد من الْبرد، وَعَاد فَنَامَ فَاحْتَلَمَ ثَانِيًا فَعَاد إِلَى الْبركَة، لِأَن أَبْوَاب الْجَامِع مغلقة وَهُوَ لا يُمكنهُ الْخُرُوج فطلع فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ من شدَّة الْبرد، ثمَّ سمع النداء فِي الْمرة الْأَخِيرَة يَا ابْن عبد السَّلَام أَتُرِيدُ الْعلم أم الْعَمَل؟ فَقَالَ الشَّيْخ عز الدّين: الْعلم؛ لِأَنَّهُ يهدي إِلَى الْعَمَل، فَأصْبح وَأخذ «التَّنْبِيه» فحفظه فِي مُدَّة يسيرَة وَأَقْبل على الْعلم فَكَانَ أعلم أهل زَمَانه.

[٥] الإِمام المحدث الفقيه الظاهري ابْنُ حَزْمٍ أَبُو مُحَمَّد عَلِي بن أَحْمَدَ بن سَعِيْدٍ الأندلسي القُرْطُبِي رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٣٨٤هـ) وتوفي سنة (٤٥٦هـ)

قلت: ومن أشهر من ذكر عنهم الطلب بعد كبر السن: ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ [٣]: قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ طَرْخَان التركِي: قَالَ لِي الإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بن مُحَمَّد - يَعْنِي: وَالِد أَبِي بَكْرٍ ابنِ العَرَبِي -: أَخْبَرَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ ابنُ حَزْمٍ أَن سَبَبَ تَعَلُّمه الفِقْه أَنَّهُ شَهِدَ جِنَازَة، فَدَخَلَ المَسْجَدَ فَجَلَسَ وَلَمْ يَركع، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: قُمْ فَصلِّ تحيَّة المَسْجَد، وَكَانَ قَدْ بلغَ سِتًّا وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، قَالَ: فَقُمْتُ وَركعتُ، فَلَمَّا رَجعنَا مِنَ الصَّلاَةِ عَلَى الجِنَازَة دَخَلْتُ المَسْجَد فَبَادرتُ بِالرُّكُوْع، فَقِيْلَ لِي: اجْلِسْ اجْلِسْ، لَيْسَ ذَا وَقتَ صَلاَة - وَكَانَ بَعْدَ العَصْر - قَالَ:

---

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢١٢-٢١٣).

(٢) الكلاسة: زاوية في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ١٩٩).

فَانْصَرَفت وَقَدْ حَزِنْتُ، وَقُلْتُ لِلأَسْتَاذ الَّذِي رَبَّانِي: دُلنِي عَلَى دَار الفَقِيْه أَبِي عَبْدِ اللهِ ابنِ دحُّوْنَ.

قَالَ: فَقصدتُه وَأَعْلَمتُه بِمَا جرَى، فَدلَّنِي عَلَى «مُوَطَّأ مَالِكٍ» فَبدَأْتُ بِهِ عَلَيْهِ، وَتتَابعت قِرَاءتِي عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ نَحْوًا مِنْ ثَلاَثَة أَعْوَام، وَبدَأْتُ بِالمنَاظرَة.

ونقل الحموي[1]: عن أبي محمد ابن العربي أيضًا: أن أبا محمد ابن حزم ولد بقرطبة، وجده سعيد ولد بأونبه، ثم انتقل إلى قرطبة وولي فيها الوزارة ابنه أحمد ثم ابنه عليّ الإمام، وأقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنة ستًا وعشرين سنة، وقال: إنني بلغت إلى هذا السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات. اهـ.

[٦] عالم أهل خراسان خَارِجَةُ بنُ مُصْعَبِ بن خَارِجَةَ الضُّبَعِيُّ السّرخسي رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (٩٠هـ) وتوفي سنة (١٦٨هـ)

قلت: عالم أهل خراسان، رحل في طلب العلم وهو كبير، وسمع الكثير[2].

قال الدينوري رَحِمَهُ اللهُ[3]: «وكان من أفقه أهل «خراسان» وأرضاهم عندهم».

[٧] المقرئ المعروف وشيخ العربية الإمام الكِسائِيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ حمْزَةَ بن عبْدِ الله رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (١١٩هـ) وتوفي سنة (١٨٩هـ)

قلت: ومن العلماء الذين طلبوا العلم في الكِبَر الإمام الكسائي المقرئ المعروف، وشيخ العربية، الذي قال عنه الإمام الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَبَحَّرَ فِي

(١) «معجم الأدباء» (٤/ ١٦٥٢).

(٢) «الوافي بالوفيات» (٤/ ٣٤٢)، و«تاريخ الإسلام» (١٠/ ١٥٧).

(٣) «المعارف» (١/ ٤٦٨).

النَّحوِ، فَهُوَ عِيَالٌ عَلَى الكِسَائِيِّ»[١].

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «الإِمَامُ، شَيْخُ القِرَاءةِ وَالعَرَبِيَّةِ...وَاخْتَارَ قِرَاءةً اشْتُهِرَتْ، وَصَارَتْ إِحْدَى السَّبْعِ» .اهـ.

قال أبو البركات الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «قال أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء: إنما تعلم الكسائي النحو على الكِبَر، وكان سبب تعلمه أنه جاء يومًا وقد مشى حتى أعيا، فجلس إلى قومٍ فيهم فضل، وكان يجالسهم كثيرًا، فقال: قد عييت، فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن! فقال: كيف لحنت؟ فقالوا: إن كنت أردت من التعب، فقل: أعييت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل: عييت مخففة، فأنف من هذه الكلمة وقام من فوره فسأل عمن يعلم النحو، فأرشدوه إلى معاذ الهراء، فلزمه حتى أنفذ ما عنده، ثم خرج إلى البصرة فلقي الخليل بن أحمد وجلس في حلقته، فقال رجل من الأعراب: تركت أسدًا وتميمًا وعندهما الفصاحة، وجئت إلى البصرة؟!

وقال للخليل بن أحمد: من أين علمُك؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج الكسائي وأنفذ خمس عشرة قنينة حبرًا في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ، ولم يكن له هم غير البصرة والخليل، فوجد الخليل قد مات وجلس في موضعه يونس بن حبيب البصري النحوي، فجرت بينهما مسائل أقرّ له يونس فيها، وصدره موضعه».اهـ.

(١) «تاريخ بغداد» (١١/ ٤٠٥)، «البداية والنهاية» (١٠/ ٢١٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٣١-١٣٢).
(٣) «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» (ص:٥٩).

[٨] سليم بن أيّوب بن سليم أبُو الْفَتْح الرَّازِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٣٦٠هـ) تقريبًا، وتوفي (٤٤٧هـ)

قَالَ سَهْلُ بنُ بِشْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (١):

حَدَّثَنَا سُلَيْمٌ أَنَّهُ كَانَ فِي صِغَرِه بِالرَّيِّ، وَلَهُ نَحْوٌ مِنْ عَشْرِ سِنِيْنَ، فَحَضَرَ بَعْضَ الشُّيُوْخِ وَهُوَ يُلقِّنُ، قَالَ: فَقَالَ لِي: تَقدَّمْ فَاقرَأْ، فَجهدْتُ أَنْ أَقرَأَ الفَاتِحَةَ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ؛ لانْغِلاَقِ لِسَانِي، فَقَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: قُلْ لَهَا تَدعُو لَكَ أَنْ يَرزُقَكَ اللهُ قِرَاءةَ القُرْآنِ وَالعِلْمَ، قُلْتُ: نَعَمْ، فَرَجَعتُ، فَسَأَلْتُهَا الدُّعَاءَ، فَدَعتْ لِي، ثُمَّ إِنِّيْ كَبِرتُ، وَدَخَلتُ بَغْدَادَ، فَقَرَأْتُ بِهَا العَرَبِيَّةَ وَالفِقْهَ، ثُمَّ عُدتُ إِلَى الرَّيِّ، فَبَيْنَا أَنَا فِي الجَامعِ أُقَابِلُ «مُخْتَصَرَ المُزَنِيِّ» وَإِذَا الشَّيْخُ قَدْ حَضَرَ، وَسلَّمَ عَلَيْنَا، وَهُوَ لا يَعْرِفُنِي، فَسَمِعَ مُقَابَلَتَنَا وَهُوَ لا يَعْلَمُ مَاذَا نَقُوْلُ، ثُمَّ قَالَ: مَتَى يُتَعَلَّمُ مِثْلُ هَذَا؟

فَأَردتُ أَنْ أَقُوْلَ: إِنْ كَانَتْ لَكَ وَالِدَةٌ، فَقُلْ لَهَا تَدعُو لَكَ، فَاسْتَحيَيْتُ.

[٩] شيخنا الإمام الهمام مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (١٣٥٢هـ) وتوفي سنة (١٤٢٢هـ)

قلت: فقد طلب العلم في المدينة النبوية وهو ابن (٣٥) سنة تقريبًا.

قال شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمته: درست في الكتب حتى انتهيت من منهج المكتب، ثم ضاع من العمر ما شاء الله في غير طلب علم، لأنه ما كان هنالك من يرغب أو يساعد على طلب العلم، وكنت محبًّا لطلب العلم، وطلبت العلم في «جامع الهادي» فلم أساعد على طلب العلم، وبعد زمن اغتربت إلى أرض الحرمين ونجد، فكنت أسمع الواعظين ويعجبني وعظهم، فاستنصحت بعض الواعظين ما هي

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٦٤٥-٦٤٦).

الكتب المفيدة حتى أشتريها؟ فأرشد إلى «صحيح البخاري»، و«بلوغ المرام»، و«رياض الصالحين»، و«فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، وأعطاني نسيخات من مقررات التوحيد، وكنت حارسًا في عمارة في الحجون بمكة، فعكفت على تلك الكتب، وكانت تعلق بالذهن لأن العمل في بلدنا على خلاف ما فيها، خصوصًا «فتح المجيد» اهـ.

تنبيه:

أولًا: نسأل الله تعالى أن يعين من أكرمه الله بالاتجاه إلى طلب العلم وهو كبير السن، فإن الله قد أراد به خيرًا.

ثانيًا: نوصيه أن لا يلتفت لكلام الناس وأن يستمر ولا ييأس، ولا يقول بلغت من الكِبَر عتيًّا، ولَمَّا شَاب ودّوه الكتّاب كما تقول العامة، لأنه بذلك يَحرم نفسه من العلم والخير.

ثالثًا: نوصيه أن يختار عالِمًا يثق بعلمه ودينه ليطلب العلم عليه؛ لأن طلب العلم عن طريق المشايخ والعلماء أوفر وأيسر وأسهل وأضمن وأحكم.

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح حلية طالب العلم»[١]: «وأخذ العلم عن الأشياخ له فوائد، منها:

اختصار الطريق بدلًا من أن يذهب يقلب في بطون الكتب وينظر ما هو القول الراجح، وما سبب رجحانه، وما هو القول الضعيف، وما سبب ضعفه، بدلًا من ذلك يمد المعلم هذه لقمة سائغة، يقول: واختلف العلماء في كذا على قولين أو ثلاثة أو أكثر، والراجح كذا، والدليل كذا، وهذا لا شك أنه نافع لطالب العلم».

---

(١) «شرح حلية طالب العلم» (ص:٨٠).

قلت: صدق الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنك تأتي مثلًا إلى الشيخ فتسأله عن مسألة فيها خلاف، كالقراءة خلف الإمام - مثلًا - فيلخص لك هذا المبحث الذي وصل البحث فيه إلى مجلد أو مجلدين في بضع كلمات، ولو جلست تبحث في هذا الموضوع لمكثت عدة أشهر، لكن الشيخ يختصر لك الزمان.

***

الفصل الثامن

معاقون لم تعقهم الإعاقة عن استغلال الفرص والنجاح والتفوق

قلت: لا تمثل الإعاقة الجسدية لدى كثير من أصحابها سوى دافع للإبداع والإنجاز وتحقيق الذات إذا استغلوا الفرص[1]، فابن عباس ﵄ ترجمان القرآن وحبر الأمة كان فاقدًا للبصر، والعلامة ابن باز ﵀ كان شيخ عصره ووحيد دهره كان فاقدًا لبصره كذلك، وغيرهما كثير وكثير جدًّا، وما سأذكره هنا إنما هو قطرة من مطرة، والشاهد من ذلك أن هذه الإعاقة لم تمنعهم من تحقيق ذواتهم وتسجيل بصماتهم في سجل الإبداع والإنجاز والنجاح والتفوق، فقد استغلوا أعمارهم، ليلهم ونهارهم، لم يتركوا فرصة من فرص الليل والنهار إلا استغلوها لتحقيق النجاح،

---

(١) **فائدة**: من لطائف الأسانيد: روى القزويني في كتابه «التدوين في أخبار قزوين»: حدثنا المزكوم، عن الزمِن، عن المفلوج، عن الأثرم، عن الأحدب، عن الأصم، عن الضرير، عن الأعمش، عن الأعور، عن الأعرج، عن الأعمى أن النبي ﷺ توضأ مرة مرة...

ومتن الحديث صحيح، فقد أخرجه البخاري (١/ ٧٠) من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس به، وهؤلاء أحد عشر نفسًا كلهم صاحب عاهة أو مرض، وهم:

(١) المنحني: أبو علي بن أبي الحسين الأصبهاني . (٢) المزكوم: أبو علي الصولي . (٣) الزمِن: أحمد بن محمد ابن سليمان . (٤) المفلوج: محمد بن محمد بن سليمان الطوسي. (٥) الأثرم: الحسن بن مهران. (٦) الأحدب: عبد الله بن الحسين، قاضي المصيصة. (٧) الأصم: عبد الله ابن نصر الأنطاكي . (٨) الضرير: أبو معاوية. (٩) الأعمش: سليمان بن مهران . (١٠) الأعور: إبراهيم النخعي. (١١) الأعرج: الحكم بن مهران. (١٢) الأعمى: عبد الله بن عباس ﵄. انظر «التدوين في أخبار قزوين» (٢ / ٦٣ – ٦٤).

والازدهار، فأصبح الأعمى، والأعرج، والأشل، والأصم، والأعور، والأبرص، والأسود، والأفطس، و...أصبحوا قادة، وسادة وقضاة، وعلماء، وحكماء، وعظماء، و...، لأنهم استغلوا فرص الحياة، والحياة فرص.

ومن هؤلاء الذين لم تعقهم الإعاقة في استغلال الفرص في طلب العلم وغيره

[١] عالم مكة وإمام الدنيا أبو محمد عطاء بن أبي رباح أسلم بن صفوان رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٢٧هـ) وتوفي سنة (١١٥هـ)

قلت: قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ عطاء أسودَ، أعورَ، أفْطَسَ، أشَلَّ، أعرجَ، ثم عَمِيَ، وكان ثقةً فقيهًا»[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحِ الْفِهْرِيُّ مَوْلَاهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَكِّيُّ، أَحَدُ كِبَارِ التَّابِعِينَ الثِّقَاتِ الرُّفَعَاءِ، يُقَالُ إِنَّهُ أَدْرَكَ مِائَتَيْ صَحَابِيٍّ، وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَمِعْتُ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: كَانَ عَطَاءٌ أَسْودَ، أَعْوَرَ، أَفْطَسَ، أَشَلَّ، أَعْرَجَ، ثُمَّ عَمِيَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ ثِقَةً فَقِيهًا عَالِمًا كَثِيرَ الْحَدِيثِ، وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَا بَقِيَ أَحَدٌ فِي زَمَانِهِ أَعْلَمَ بِالْمَنَاسِكِ مِنْهُ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ: وَكَانَ قَدْ حَجَّ سَبْعِينَ حِجَّةً، وَعُمِّرَ مِائَةَ سَنَةٍ، وَكَانَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ يُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ مِنَ الْكِبَرِ وَالضَّعْفِ وَيَفْدِي عَنْ إِفْطَارِهِ، وَيَتَأَوَّلَ الْآيَةَ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٌ طَعَامُ مِسۡكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤].

وَكَانَ يُنَادِي مُنَادِي بَنِي أُمَيَّةَ فِي أَيَّامِ مِنىً: لا يُفْتِي النَّاسُ فِي الْحَجِّ إِلَّا عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا رَأَيْتُ فِيمَنْ لَقِيتُ أَفْقَهَ مِنْهُ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٠)، و«تاريخ الإسلام» (٧/ ٤٢٣).

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَاتَ عَطَاءٌ يَوْمَ مَاتَ وَهُوَ أَرْضَى أَهْلِ الْأَرْضِ عِنْدَهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: كان في الْمَسْجِدِ فِرَاشُ عَطَاءٍ عِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ مِنْ أحسن الناس به صَلَاةً.

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَالْحَسَنُ وَإِبْرَاهِيمُ وَعَطَاءٌ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةَ الْأَمْصَارِ.

وَقَالَ عَطَاءٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحَدِّثُنِي بِالْحَدِيثِ فَأُنْصِتُ لَهُ كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُهُ، وَقَدْ سَمِعْتُهُ قَبْلَ أن يولد، فأريه أني إنما سمعته الآن منه.

وفي رواية: أنا أحفظ منه له فأريه أني لم أسمعه[1].

[٢] الفقيه أَبُو سَعِيدٍ أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عفَّانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الْأُمَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ

توفي سنة (٨٥هـ)

قلت: أبان هو ابن الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان به صَمَم، وحَوَل، وبَرَص، ثم أصابه الفالج وهو شلل يصيب أحد جهتي الجسم طولًا.

كان أبان رَحِمَهُ اللَّهُ مع هذا من فقهاء التابعين وعلمائهم في الحديث والفقه، عيّنه عبد الملك بن مروان واليًا على المدينة عام (٧٦هـ)، كما كان يقضي بين الناس[2].

[٣] الإمام المحدث الكبير الشهير صاحب السنن المشهورة مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بْنِ سَوْرَةَ بْنِ مُوسَى بْنِ الضَّحَّاكِ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٢١٠هـ) وتوفي سنة (٢٧٩هـ)

قلت: هو الإمام الحافظ المحدث محمد بن عيسى الترمذي صاحب السنن

---

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٣٠٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٥١).

المشهورة، وأحد أصحاب الكتب الست المشهورة في الحديث، اخْتُلِفَ فِيْهِ، فَقِيْلَ: وُلِدَ أَعْمَى، وَالصَّحِيْحُ أَنَّهُ أَضَرَّ فِي كِبَرِهِ بَعْدَ رِحْلَتِهِ وَكِتَابَتِهِ العِلْمَ، ولكنه أوتي من المواهب والأخلاق ما جعله من كبار العلماء، برع في علم الحديث، وصَنَّفَ عددًا من الكتب النافعة المفيدة، من أهمها: «سنن الترمذي»، «الشمائل المحمدية»، «العلل»، «الزهد»[(١)].

[٤] أحلم العرب الأَحْنَفُ بن قَيْسِ بن مُعَاوِيَةَ بن حُصَيْنٍ التَّمِيْمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ

توفي سنة (٦٧هـ)

قلت: الأحنف بن قيس هو الذي يضرب به المثل في الحِلم فيقال «أحلم من قيس»، كان في رجليه اعوجاج وكان ملتصق الفخذين فشق ما بينهما، وكان أعرجًا قصير القامة.

قَالَ العِجْلِيُّ: «الأَحْنَفُ بَصْرِيٌّ، ثِقَةٌ، كَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ، وَكَانَ أَعْوَرَ، أَحْنَفَ، دَمِيْمًا، قَصِيْرًا، كَوْسَجًا[(٢)]، ومع هذا كله فقد جمع خصال الشرف والسيادة والمروءة والحنكة والحزم.

قيل عنه: إذا غضب غضب له مئة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب[(٣)].

[٥] مُوْسَى بن نُصَيْرٍ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ اللَّخْمِيُّ بالولاء فاتح الأندلس وإفريقيا رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (١٩هـ) وتوفي سنة (٩٦هـ)

قلت: موسى بن نصير من قبيلة بكر بن وائل، كان من كبار الفاتحين المسلمين،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٧٠).

(٢) يعني: لا شعر على عارضيه، أو نقي الخدين من الشعر.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٨٦)، و«تلقيح فهوم أهل الأثر» لابن الجوزي (ص:٣٢٨).

قاوم الروم وفتح الأندلس وإفريقيا كما فتح مدنًا كثيرة في أوروبا، وكان هذا القائد أعرج، ورغم ذلك فقد بلغ النهاية في القوة والشجاعة وعلو الهمة[١].

[٦] المحدث الفقيه الحافظ الورع مُحَمَّدُ بن سِيرِيْنَ أَبُو بَكْرٍ الأَنْصَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وفي سنة (١١٠هـ)

قلت: عاش محمد بن سيرين التابعي الشهير والعالِم النحرير الثقة الثبت الإمام ما بين سنة (٣٣-١١٠) هجرية في البصرة، وكان مصابًا بالصمم منذ الصغر، ولكن لم تكن تلك العاهة عائقًا له عن طلب العلم.

قال عنه الإمام الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: عليكم بذلك الأصم.

وكذلك الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إذا حَدَّثَ الأصم بشيء فاشدد يديك.

وقال العِجْلِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا رَأَيْتُ أَحدًا أَفْقَهَ فِي وَرَعِهِ، وَلَا أَوْرَعَ فِي فَقْهِهِ مِنْ مُحَمَّدِ بنِ سِيْرِيْنَ.

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ جَرِيْرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ ابْنُ سِيْرِيْنَ فَقِيْهًا، عَالِمًا، وَرِعًا، أَدِيْبًا، كَثِيْرَ الحَدِيْثِ، صَدُوْقًا، شَهِدَ لَهُ أَهْلُ العِلْمِ وَالفَضْلِ بِذَلِك، وَهُوَ حُجَّةٌ.

وَقَالَ هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: هُوَ أَصْدَقُ مَنْ أَدْرَكْتُ مِنَ الْبَشَرِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ ثِقَةً، مَأْمُونًا، عَالِمًا، رَفِيعًا، فَقِيهًا، إِمَامًا، كَثِيرَ الْعِلْمِ، ورعًا، وكان به صمم.

وقال ابْنُ عَوْنٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ أَرْجَى الناس لهذه الأمة، وأشد الناس إزارًا على نفسه، وأشدهم خوفًا عليها.

وقال: لم أر فِي الدُّنْيَا مِثْل ثَلَاثَةٍ: مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ في العراق، والقاسم بن محمد

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٤٨٧).

في الحجاز، وَرَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ بِالشَّامِ، وَكَانُوا يَأْتُونَ بِالْحَدِيثِ عَلَى حُرُوفِهِ.

وَقَالَ ابْنُ شوذب رَحِمَهُ اللهُ: ما رأيت أحدًا أجرأ على تعبير الرؤيا مِنْهُ.

وَقَالَ عُثْمَانُ الْبَتِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ: لَمْ يَكُنْ بِالْبَصْرَةِ أَعْلَمُ بِالْقَضَاءِ مِنْهُ[١].

[٧] الفقيه الحافظ مُغِيرَةُ بن مِقْسَمٍ أبو هِشَامٍ الضَّبِّيُّ مولاهم رَحِمَهُ اللهُ،

توفي سنة (١٣٣هـ)

قلت: الإِمَامُ العَلاَّمَةُ الثِّقَةُ أَبُو هِشَامٍ الضَّبِّيُّ مَوْلَاهُم الكُوْفِيُّ الأَعْمَى الفَقِيْهُ الحافظ أحد الأعلام، مات سنة (١٣٣هـ).

قَالَ مُغِيْرَةُ رَحِمَهُ اللهُ: مَا وَقَعَ فِي مَسَامعِي شَيْءٌ فَنَسِيتُه.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ: مُغِيرَةُ صَاحِبُ سُنَّةٍ، ذَكِيٌّ، حَافِظٌ، ولد أعمى، وكان عجبًا في الذكاء[٢].

[٨] العلامة نور الدين أبو طالب عبد الرحمن بن عمر العَبْدَلِياني البصري البغدادي الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (٦٢٤هـ) وتوفي سنة (٦٨٤هـ)

قلت: كف بصره وله عشر سنين، وقدم بغداد وتفقه ولازم الاشتغال حتى أذن له في الفتوى سنة (٦٤٨هـ)، وترقّى حتى عُيِّنَ مُدَرِّسًا للحنابلة في المدرسة المستنصرية سنة (٦٨١هـ).

قال الصفدي رَحِمَهُ اللهُ: كان محققًا للمسائل عارفًا بالخلاف، صحيح النقل لمذهبه ومذهب غيره، تام الأنس، حسن العشرة والخُلُق، ينبسط مع جلسائه بحسب

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠٩)، و«تاريخ الإسلام» (٧/ ٢٤١)، و«تاريخ بغداد» (٣/ ٢٨٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٠)، و«تاريخ الإسلام» (٣/ ٧٣٨).

أحوالهم، وكان لا يكاد يُغْلَب في البحث والمجادلة والمعارضة، من تصانيفه: «جامع العلوم في تفسير كتاب الله الحي القيوم» أربع مجلدات، و«الحاوي في الفقه» كتاب جليل القدر، كثير الفوائد[١].

[٩] الإمام الحافظ المفسر الكبير قَتَادَةُ بنُ دِعَامَةَ بنِ قَتَادَةَ بن عَزِيْزٍ السَّدُوسِي رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (٦٠هـ) وتوفي سنة (١١٨هـ)

قلت: قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: قتادة عالم بالتفسير وباختلاف العلماء، ثم قال عنه بعد أن أطنب في ذكره: قلَّ أن تجد من يتقدمه.

وقال معمر بن راشد رَحِمَهُ اللهُ: سمعت قتادة يقول: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا.

وكان قتادة كما هو المعلوم من أهل البصيرة دون البصر[٢].

[١٠] الإمام البارع في العلوم والفنون عبد الرحمن بن عبد الله ابن أحمد الخثعميّ السهيليّ رَحِمَهُ اللهُ

ولد سنة (٥٠٨هـ) وتوفي سنة (٥٨١هـ)

قلت: عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعميّ السهيليّ، حافظ، عالم باللغة والسِّيَر، ضرير.

قال ابن الزبير: كان عالمًا بالقراءات، بارعًا في ذلك، جامعًا بين الرواية والدراية، نحويًا متقدمًا، أديبًا عالمًا بالتفسير وصناعة الحديث، حافظًا للرجال والأنساب، عارفًا بعلم الكلام والأصول، حافظًا للتاريخ، واسع المعرفة، غزير العلم، نبيهًا ذكيًّا،

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ١٩٤)، و«الأعلام» للزركلي (٣/ ٣١٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٦٩).

صاحب اختراعات واستنباطات، تَصَدَّر للإقراء والتدريس، وبَعُدَ صيته، كف بصره وهو ابن سبع عشرة سنة، ومن تصانيفه: «الروض الأنف» في شرح السيرة النبوية لابن هشام، «التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام»، وهو أول من أَلَّف في هذا العلم من علوم القرآن(١).

[١١] الإمام الكبير العلم القاسم بن فِيرُّه بن خلف بن أحمد الرعينيّ أبو محمد الشاطبي القاهري رَحِمَهُ اللَّهُ

ولد سنة (٥٣٨هـ) وتوفي سنة(٥٩٠هـ)

قلت: القاسم بن فِيرُّه بن خلف بن أحمد الرعينيّ أبو محمد الشاطبي، إمام القراء، كان ضريرًا.

قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: كان إمامًا فاضلًا في النحو، والقراءات، والتفسير، والحديث، علامة نبيلًا، محققًا ذكيًّا، كثير المحفوظ بارعًا في القراءات، أستاذًا في العربية، حافظًا للحديث، شافعيًّا، صالحًا صدوقًا، وقد ولد أعمى.

له قصيدة «حرز الأماني ووجه التهاني»، و«الرائية في الرسم».

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد سارت الركبان بقصيدتيه: «حرز الأماني»، و«عقيلة أتراب القصائد» اللتين في القراءات والرسم، وحفظهما خلق لا يحصون، وخضع لهما فحول الشعراء، وكبار البلغاء، وحذّاق القراء، فلقد أبدع وأوجز، وسهّل الصعب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: صَنَّفَ «الشاطبية» في القراءات السبع، فلم يسبق إليها، ولا يلحق فيها، وفيها من الرموز كنوز لا يهتدى إليها إلا كل ناقد بصير، هذا مع أنه ضرير!

وفيه يقول أبو عبد الله الآبار رَحِمَهُ اللَّهُ: المبصر قلبه لأن القرآن نوره، والإيمان

---

(١) «البداية والنهاية» (١٢/ ٣١٨)، و«الأعلام» للزركلي (٣/ ٣١٣).

مشكاة فهمه إذا اشتبهت أموره.

وقد تبارى العلماء في شرح الشاطبية، وعد لها حاجي خليفة إلى عصره أكثر من (٢٥) شرحًا[1].

[١٢] مَسْرُوقُ بنُ الأَجْدَعِ بن مَالِكِ الوَادِعِيُّ الهَمْدَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ

توفي سنة (٦٢هـ)

قلت: كان مَسْرُوْقُ بنُ الأَجْدَعِ أحدب، أعرج، أشل من جراح كانت أصابته يوم القادسية، وفلج أيضًا.

وعن الشعبي رَحِمَهُ اللهُ قال: ما علمت أحدًا كان أطلب للعلم منه[1].

[١٣] مؤسس علم النحو أَبُو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ ظَالِمُ بنُ عَمْرٍو رَحِمَهُ اللهُ

توفي سنة (٦٩هـ)

قلت: أَبُو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ قاضي الكوفة، تَابِعِيٌّ جَلِيلٌ، واضع علم النحو، كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى إِلَيْهِ عِلْمَ النَّحْوِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ الْكَلَامَ اسْمٌ وَفِعْلٌ وَحَرْفٌ، ثم إن أبا الأسود نحى نَحْوَهُ وَفَرَّعَ عَلَى قَوْلِهِ، وَسَلَكَ طَرِيقَهَ، فَسُمِّيَ هَذَا الْعِلْمُ النَّحْوَ لِذَلِكَ، وَكَانَ الْبَاعِثَ لِأَبِي الأسود على ذَلِكَ تَغَيُّرُ لُغَةِ النَّاسِ، وَدُخُولُ اللَّحْنِ فِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ أَيَّامَ وِلَايَةِ زِيَادٍ عَلَى الْعِرَاقِ، وَكَانَ أَبُو الْأَسْوَدِ مُؤَدِّبَ بَنِيهِ، فَإِنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ يَوْمًا إِلَى زِيَادٍ فَقَالَ: تُوُفِّيَ أَبَانَا وَتَرَكَ بَنُونَ، فَأَمَرَهُ زِيَادٌ أَنْ يَضَعَ لِلنَّاسِ شَيْئًا يَهْتَدُونَ بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَيُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَا وَضَعَ مِنْهُ بَابُ التَّعَجُّبِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ابْنَتَهُ قَالَتْ لَهُ ليلة: يا أبت ما أَحْسَنُ السَّمَاءِ، قال نُجُومُهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٦١)، و«البداية والنهاية» (١٣/ ١٠)، «معجم الأدباء» (٥/ ٢٢١٧)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٢٦٠)، ومقدمة «حرز الأماني ووجه التهاني» (ص:١١).

(٢) «تلقيح فهوم أهل الأثر» لابن الجوزي (ص:٣٢٨).

أَسْأَلْ عَنْ أَحْسَنِهَا إِنَّمَا تَعَجَّبْتُ مِنْ حُسْنِهَا، فَقَالَ قُولِي: مَا أَحْسَنَ السَّمَاءَ.

قَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ وَقَدْ أَسْلَمُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَرَهُ، كان أعرج، مفلوجًا، أبخر، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَقَطَ المَصَاحِفَ[1].

[١٤] سماحة العلامة الكبير عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد سنة (١٣٣٠) وتوفي سنة (١٤٢٠هـ)

قلت: كان ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ علّامة عصره، وداعية مصره، وشيخ الإسلام الجليل، غير فاقد البصر، ثم أصابه مرض الجدري المنتشر في تلك الفترة عام (١٣٤٦هـ) وضعف بصره ثم فقده عام (١٣٥٠هـ).

ثم إنه حفظ القرآن الكريم قبل سن البلوغ، ثم جَدَّ في طلب العلم على العلماء في الرياض، وأخذ على علماء كثر حتى صار إمامًا يُعَوَّل عليه، عُيِّنَ في القضاء عام (١٣٥٠هـ) ولم ينقطع عن طلب العلم، حيث لازم البحث والتدريس ليل نهار ولم تشغله المناصب عن ذلك مما جعله يزداد بصيرة ورسوخًا في كثير من العلوم، وقد عنى عناية خاصة بالحديث وعلومه حتى أصبح حكمه على الحديث من حيث الصحة والضعف محل اعتبار، وهي درجة قل أن يبلغها أحد خاصة في هذا العصر، وظهر أثر ذلك على كتاباته وفتاواه حيث كان يتخير من الأقوال ما يسنده الدليل[2]. وصدق الله القائل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٨١)، و«البداية والنهاية» (٨/ ٣١٢)، و«تلقيح فهوم أهل الأثر» لابن الجوزي (ص:٣٢٦)، و«الأعلام» للزركلي (٣/ ٢٣٦).

(٢) للاستزادة: انظر «مجلة الأحمدية» «العدد ١٧/ عام ٢٠٠٤»، و«سيرة وحياة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، وما قيل فيه من شعر ونثر» لإبراهيم بن عبد الله الحازمي، و«جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ» لمحمد بن إبراهيم الحمد.

خاتمة رائعة عن الإعاقة ترفع المعنويات والطاقة

أخيرًا: هناك الكثير والكثير جدًّا من الشخصيات الإسلامية معاقون ولكن استغلوا الفرص، ووضعوا بصماتهم في كتاب التاريخ البشري، وكما قُلْتُ في البداية ما هذه إلا أمثلة لإبراز دور المعاقين في الحياة، وأنهم ليسوا عاجزين كما يظن البعض، بل هم قادرون ومبدعون وعظماء، وما الإعاقة إلا إعاقة الجهل والكسل وتنويم العقل والذهن والتكاسل والتواكل.

إن فقدان جزء من الجسم ليس نهاية الحياة بل بداية للإصرار والمواصلة، إن فقدان حاسة من الحواس ليست نهاية مطاف بل بداية إبداع وإلهام، إن الإعاقة الحقيقية هي النظرة الضيقة التي تجعل صاحبها مكبل الأغلال، إن الإعاقة هي تعسف الفكر وانغلاقه وعدم الاستجابة لكل المؤثرات، فانْعَم يامن فقدت وعُوِّضْت فَنَبَغْت وبعاهتك تألَّقت ونجحت وتفوقت وأَبْدَعْت.



السلف الصالح وعلى رأسهم الصحابة ﷺ هم القدوة الحسنة في اغتنام الفرص

وبعد هذه الجولة المباركة في ذكر نماذج وصور مشرقة من حياة السلف الصالح، وفي مقدمتهم الصحابة رضي الله عنهم في استغلال الفرص في هذه الحياة، فإنه يجب علينا الاقتداء بهم، فإن الله يقول: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فلا تقتدي إلا بالمهتدي.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الممتحنة: ٦].

فأصحاب النبي ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ [التوبة:١٠٠]، هم القدوة، فلماذا نترك القدوة الحسنة الطيبة المباركة التي استغلت فرص الحياة، وجعلت الدنيا مطية الآخرة، ونذهب إلى غيرهم من المفسدين في الأرض، فإن شبابنا اليوم يتخذون من المهرجين، والعابثين، والمغنين، واللاعبين، قدوات لهم، ويتركون هذا الْمَعِين الضخم الصافي الذي لا ينضب، من القدوات الذين يزخر بهم تاريخنا الإسلامي، من صحابة الرسول ﷺ، والتابعين لهم بإحسان!

فالواجب على شبابنا اليوم أن يتأسوا بهم، وللأسف الشديد، فإنك إذا نظرت إلى حال شبابنا، وشباب الصحابة، رأيت العجب العُجاب، والفرق الشاسع، ما الذي شغل أولئك؟ وما الذي يشغل هؤلاء؟

الذي شغل الصحابة والسلف هو اقتناص الفرص للآخرة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فكل حياتهم لله، وإذا نظرت إلى شبابنا رأيت العجب العجاب، وهو اشتغالهم باقتناص فرص الدنيا للدنيا، ومنهم من لم يستغل حتى فرص الدنيا، ولذا فقد جاءت الإحصائيات بأن ثلاثة أرباع شبابنا

يشتغلون بالقنوات الفضائية، ولعب الورق، والجلوس في المقاهي والمدرجات، وسماع الأغاني، وضياع الأوقات بالجوالات وغيرها.

فيا أخي الحبيب: أفق من غفلتك وغَيِّر حياتك فإن العمر قصير.

ولله در القائل:

قبورنا تُبنى ونحن ما تُبنا   يا ليتنا تُبنا من قبل ما تُبنى

***

أيها البصير العمر قصير فلا تضيعه في الحقير

نعم إخواني في الله، إن أكبر مشكلة تواجه كل مسلم بل كل إنسان، أن حياته محدودة وقصيرة، فمهما بلغ من الحرص والجهد لكسب الحسنات فلا يزال العمر قصيرًا، قال ﷺ: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**» «حسن» رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه(١).

فلو كان عمر الفرد منا ستين سنة مثلًا، فإن ثلثها سيكون للنوم - على افتراض أن الإنسان ينام ثمان ساعات يوميًّا - أي ثلث عمره، وثلثه الثاني في العمل، أي ثمان ساعات أخرى يوميًّا، فهذه أربعون سنة في النوم والعمل، وخمس عشرة سنة تكون فترة الطفولة والمراهقة والمشاغبة غالبًا، فهذه خمسة وخمسون سنة ذهبت بين العمل والنوم والطفولة، فماذا بقي لك يا ابن الستين؟

بقي لك خمس سنوات، قد تُمضي منها سنتين أو أكثر في تناول وجبات الطعام وقضاء الحاجة وغيرها، إذًا ماذا بقي لمن خلقه الله للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؟

بقي من الستين ثلاث سنوات، كم عندك من محرمات، ومكروهات، ومباحات، ومجالس لهو ولعب ...الخ.

بالله ماذا ستقول لربك يوم القيامة إذا سألك عن عمرك فيما أفنيته؟

إذًا أمامنا مشكلة عظيمة وهي قصر أعمارنا مع كثرة التكاليف التي أمر الله بها، فما الحل؟

---

(١) «سنن الترمذي» (٣٥٥٠)، و«سنن ابن ماجه» (٤٢٣٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٥)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٣)، و«السلسلة الصحيحة» (٧٥٧)، وصححه شيخنا مقبل رحمه الله في «الصحيح المسند» (١٢٨٥)، و«الجامع الصحيح» (٣٧٧٩).

الحل: هو أن نستغل الفرص، وأن نصرخ بأعلى أصواتنا، ونقول: الحياة فرص، ونحول هذه المباحات إلى طاعات، فنجعل النوم طاعة، والعمل طاعة، والطعام والشراب طاعة، وذلك بالاحتساب، كاحتساب النوم للتقوي لصلاة الليل وصلاة الفجر، واحتساب الأكل والشرب للتقوي على العمل والطاعة، واحتساب الكسب الحلال منعًا لسؤال الناس، وحماية لأطفالنا وزوجاتنا من الفقر، أو للإنفاق على المحتاجين...وهكذا، فَنُحَوِّل بالنية الطيبة كل ما ذكرنا من النوم والعمل والطعام والشراب وجميع المباحات في ميزان حسناتنا، أليست هذه فرصة ثمينة يجب أن نستغلها، والحياة فرص، فنجعل كل الحياة لله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقال ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...**» **متفق عليه عن عمر بن الخطاب** رضي الله عنه[١].

وقال معاذ رضي الله عنه: «إِنِّي لَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي» متفق عليه[٢].

وقال ابن رجب رحمه الله[٣]: ومتى ما نوى المؤمن بتناول شهواته المباحة التقوي على الطاعة كانت شهواته له طاعة يثاب عليها كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ، وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ فَيُصَلِّيَ مِنَ اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّى يُصْبِحَ، كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ» **«حسن» رواه النسائي وابن ماجه وغيرهما عن أبي الدرداء** رضي الله عنه[٤].

---

(١) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (١٧٣٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٩٢).

(٤) «سنن النسائي» (١٧٨٧)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٤٤) وغيرهما، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١٧٨٧)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١١١٣)، و«صحيح الجامع» (٥٩٤١)، و«صحيح الترغيب» (٢١و٦٠١).

كيف تَزِن الأمور عند النشاط والفتور؟

قال النبي ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ» «صحيح» رواه أحمد وابن حبان، والبيهقي، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما[(١)].

نعم أخي العاقل الفاضل، إن لكل عمل شِرَّة، أي نشاطًا، ورغبةً، وحلاوةً، وشوقًا، ولذةً، وإقبالًا، فإذا أحس المؤمن بهذه الشرة وهذا النشاط وهذه الرغبة فهذه فرصة، والحياة فرص، يستغلها استغلالًا عظيمًا في الإكثار من الصلاة، والإكثار من الصيام، والإكثار من الصدقات، والإكثار من قراءة القرآن، والإكثار من الذِّكْر، والإكثار من صلة الأرحام، والإكثار من الدعوة إلى الله، ومن طلب العلم الشرعي، المهم الإكثار من جميع الطاعات والقربات، فإن هذا النشاط فرصة والحياة فرص، قد لا يعود لك هذا النشاط إلى يوم القيامة.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره[(٢)]: «قَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ: مَنْ أَخَّرَ الْفُرْصَةَ عَنْ وَقْتِهَا فَلْيَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ فَوْتِهَا، وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

إِذَا هَبَّـتْ رِيَاحُـكَ فَاغْتَنِمْهَـا ... فَـإِنَّ لِكُـلِّ خَافِقَـةٍ سُـكُونُ
وَلَا تَغْفُـلْ عَـنِ الْإِحْسَـانِ فِيهَـا ... فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ

(١) «مسند أحمد» (٦٩٥٨)، و«صحيح ابن حبان» (١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٩٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (١١)، و«صحيح الجامع» (٢١٥٢)، و«صحيح الترغيب» (٥٦)، وشيخنا مقبل رحمه الله في «الصحيح المسند» (٨٠٢)، و«الجامع الصحيح» (٨٩ و٣٢٥٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٨٤).

وقد سمعت العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «سلسلة الهدى والنور» يستشهد بالبيت الأول كثيرًا.

ثم اعلم أخي الحبيب أن هذا النشاط لن يستمر، لأن هذه سُنَّة الله في عباده، فسوف يعقبه فتور وكسل؛ لقوله ﷺ: «**وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ**» أي فتور وكسل، فإذا أحس المؤمن بهذا الفتور يجب عليه أن يتماسك، وأن يسدد ويقارب، ولا يصل به الفتور والكسل إلى حد الخطر وترك الواجبات والوقوع في المحرمات والشهوات والشبهات والعياذ بالله ومجالسة البطالين، فهذا منعطف خطير قد يؤدي بصاحبه إلى الانقلاب والعياذ بالله، بل يجب عليه في هذه الحالة أن يحافظ على رأس المال وهي الواجبات والبعد عن المحرمات، فقد كنت في الشرة والنشاط من السابقين فكن عند الفترة والكسل من المقتصدين.

قال الإمام ابن القيّم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ لِكُلِّ عَامِلٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فالطالب الجاد لا بد أن تعرض له فترة، فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد، فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرّم، رجي له أن يعود خيرًا ممّا كان».

وقال في موضع آخر[1]: «إِنَّ الْمُقْبِلَ عَلَى اللهِ الْمُطِيعَ لَهُ يَسِيرُ بِجُمْلَةِ أَعْمَالِهِ، وَكُلَّمَا زَادَتْ طَاعَاتُهُ وَأَعْمَالُهُ ازْدَادَ كَسْبُهُ بِهَا وَعَظُمَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ سَافَرَ فَكَسَبَ عَشْرَةَ أَضْعَافِ رَأْسِ مَالِهِ، فَسَافَرَ ثَانِيًا بِرَأْسِ مَالِهِ الْأَوَّلِ وَكَسْبِهِ، فَكَسَبَ عَشْرَةَ أَضْعَافِهِ أَيْضًا، فَسَافَرَ ثَالِثًا أَيْضًا بِهَذَا الْمَالِ كُلِّهِ، وَكَانَ رِبْحُهُ كَذَلِكَ، وَهَلُمَّ جرًّا، فَإِذَا فَتَرَ عَنِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٢٢).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٠٥).

السَّفَرِ فِي آخِرِ أَمْرِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَاتَهُ مِنَ الرِّبْحِ بِقَدْرِ جَمِيعِ مَا رَبِحَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْهُ».

وقال رَحِمَهُ اللهُ [١]: «قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: إِنَّ لِهَذِهِ الْقُلُوبِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا، فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَخُذُوهَا بِالنَّوَافِلِ، وَإِنْ أَدْبَرَتْ فَأَلْزِمُوهَا الْفَرَائِضَ.

وَفِي هَذِهِ الْفَتَرَاتِ وَالْغُيُومِ وَالْحُجُبِ، الَّتِي تَعْرِضُ لِلسَّالِكِينَ مِنَ الْحِكَمِ مَا لا يَعْلَمُ تَفْصِيلَهُ إِلَّا اللهُ، وَبِهَا يَتَبَيَّنُ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ.

فَالْكَاذِبُ: يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَعُودُ إِلَى رُسُومِ طَبِيعَتِهِ وَهَوَاهُ.

وَالصَّادِقُ: يَنْتَظِرُ الْفَرَجَ وَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَيُلْقِي نَفْسَهُ بِالْبَابِ طَرِيحًا ذَلِيلًا مِسْكِينًا مُسْتَكِينًا، كَالْإِنَاءِ الْفَارِغِ الَّذِي لا شَيْءَ فِيهِ الْبَتَّةَ، يَنْتَظِرُ أَنْ يَضَعَ فِيهِ مَالِكُ الْإِنَاءِ وَصَانِعُهُ مَا يَصْلُحُ لَهُ، لا بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ - وَإِنْ كَانَ هَذَا الِافْتِقَارُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ - لَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِنْكَ، بَلْ هُوَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكَ بِهِ، وَجَرَّدَكَ مِنْكَ، وَأَخْلَاكَ عَنْكَ، وَهُوَ الَّذِي ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ أَقَامَكَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْحَمَكَ وَيَمْلَأَ إِنَاءَكَ، فَإِنْ وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلْبٌ مُضَيِّعٌ، فَسَلْ رَبَّهُ وَمَنْ هُوَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْكَ وَيَجْمَعَ شَمْلَكَ بِهِ».

يقول لكم ربكم الكريم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

أخي العزيز، قيل إنه أُجْرِيَت مقابلة مع أحد رجال الأعمال الكبار في هذه الدنيا، فقالت له المرأة المذيعة مقدمة البرنامج: كيف حصلت على هذا المال وهذه الثروة الهائلة؟

فأعطاها ورقة بيضاء - أو شيك مفتوح - وقال لها: اكتبي ما شئتِ وسوف أعطيك، فاستحت هذه المرأة ولم تكتب شيئًا، لأن هذا البرنامج يبث على الهواء أمام

(١) المرجع السابق (٣/ ١٢٢).

العالم، فقال لها: الحياة فرص، وأنا رجل أستغل الفرص، وأنتِ لو استغليتِ الفرصة وكتبتِ ما تريدين أعطيتك لكنك ضيعتي الفرصة أما أنا فلا أضيع الفرص أبدًا، هكذا هم التجار، والهوامير(١) كما يقال، والأغنياء، والأثرياء، وأرباب الملايين، والقصور، والدور، والحشم، والخدم في هذه الدنيا يستغلون الفرص، والحياة عندهم فرص.

لكن تعال أخي الحبيب اللبيب العاقل الفاضل أدلك على تجارة خير لك والله من الدنيا وما فيها، قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

***

(١) قال في «لسان العرب» (٥/ ٢٦٦): «انْهَمَرَ كَهَمَر، فَهُوَ هامِرٌ ومُنْهَمِرٌ: سَالَ. وهَمَرَ الماءَ والدمعَ وَغَيْرَهُ يَهْمِرُه هَمْرًا: صَبَّه. والهَمْرَة: الدُّفْعَةُ مِنَ الْمَطَرِ. والهَمَّارُ: السَّحَابُ السَّيَّال؛ قَالَ: أَناخَتْ بِهَمَّارِ الغَمامِ مُصَرِّحٍ ... يَجُودُ بمطلُوقٍ مِنَ الماءِ أَصْحَمَا، وهَمَرَ الْكَلَامَ يَهْمِرُه هَمْرًا: أَكثر فِيهِ. وَرَجُلٌ مِهْمارٌ: كَثِيرُ الْكَلَامِ. والهَمْرُ: شِدَّةُ العَدْوِ. وهَمَرَ الفرسُ الأَرضَ يَهْمِرُها هَمْرًا واهْتَمَرها: وَهُوَ شِدَّةُ ضَرْبِهِ إِياها بِحَوَافِرِه، وأَنشد: عَزَازَة ويَنْهَمِرنَ مَا انْهَمَرْ».

العمل قليل والربح كثير، بحث رائع جداً يشد الهمم ويجعلك في القمم

أخي العاقل الحكيم يفكر التجار في أمر دنياهم كيف ينفقون قليلًا ليربحوا كثيرًا، ألسنا نحن أحق بهذا التفكير والتدبير، فينبغي لنا أن نفكر كتفكيرهم بل أشد ولكن في أمر آخرتنا، فَلِمَ لا نتاجر مع الكريم الرزاق الغني الجواد فننتقي العمل الذي يَدُرُّ علينا أجرًا أكثر من غيره؟

فلو أن رجلًا ترك اعتكافه في مسجد رسول الله ﷺ الذي يتضاعف فيه ثواب الصلاة إلى ألف صلاة فيما سواه، لمجرد أن جاءه رجل في حاجة فخرج معه لحاجته، لعلمه بأن قضاء حوائج الناس خير من اعتكافه شهرًا كاملًا في المسجد النبوي الشريف، لَعُدَّ هذا الرجل صاحب عقلية تجارية أخروية صحيحة، لأنه انتقى الأجر الأعظم طالما أن كلا العبادتين المخير بينهما من السنن الفاضلة.

فإن أردت أن تكون من تجار الآخرة فاستغل الفرص، فإن الحياة فرص، وإضاعة الفرص غصص، وتبقى مكانك سر.

فهناك أعمال يسيرة تتضاعف فيها الأجور، وكما يقال: رأس المال قليل والربح كثير.

أذكر لك على سبيل المثال ما يلي:

أولًا: التوبة إلى الله تعالى من الذنوب والمعاصي تَجُبُّ ما قبلها من المآسي، وتحول جبال السيئات إلى حسنات رواسي

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال، والذي رجحه ابن كثير وغيره من المحققين وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، وهو الذي عليه الأدلة الشرعية من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ هو أن الله يبدل السيئات إلى حسنات على ظاهر الآية، فيصبح أفجر خلق الله ولي من أولياء الله، فإن سحرة فرعون تحولوا في لحظة من فجرة إلى بررة.

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ شَابٌّ فَقَامَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَدَعْ سَيِّئَةً إِلَّا عَمِلَهَا، وَلَا خَطِيئَةً إِلَّا رَكِبَهَا، وَلَا أَشْرَفَ لَهُ سَهْمٌ فَمَا فَوْقَهُ إِلَّا اقْتَطَعَهُ بِيَمِينِهِ، وَمَنْ لَوْ قُسِّمَتْ خَطَايَاهُ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَغَمَرَتْهُمْ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَسْلَمْتَ؟» أَوْ «أَنْتَ مُسْلِمٌ؟»، قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «اذْهَبْ، فَقَدْ بَدَّلَ اللهُ سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: «وَغَدَرَاتُكَ وَفَجَرَاتُكَ» ثَلَاثًا، فَوَلَّى الشَّابُّ وَهُوَ يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْمَعُهُ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى عَنِّي، أَوْ خَفِيَ عَنِّي. «صحيح» رواه الطبراني وابن أبي عاصم وابن الأثير[٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١١٣)، و«منهاج السنة النبوية» (٢/ ٤٠٠).

(٢) الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢٣٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٧١٨)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٦٣٣) رقم (٦١٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٣٩١).

أخي الحبيب: لا تظن أن ثمار التوبة تحويل السيئات إلى حسنات فقط، بل هناك ثمار كثيرة، وكبيرة، وغزيرة، يتذوق حلاوتها كل من عرف حقيقة التوبة، وتعبد الله بها، فهي سبب كل خير وفلاح، وسبب طمأنينة النفس، واستكانة الروح، وطرب القلب، ونشوته، وفرحته، فإن الله جل وعلا يحب التائب ويفرح بتوبته، ويورثه في قلبه حلاوة، وسعادة، وفرحًا.

وأذكر هنا بعضًا من ثمار التوبة غير ما تقدم:

(١) محبة الله تبارك وتعالى للتائب.

أخي الكريم، لو لم يكن للتوبة من ثمار إلا أنها طريق محبة الله، ورضاه، لكفى بذلك عزًّا وشرفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وإذا أحبك الله فلا خوف عليك ولا حزن، قال تعالى في الحديث القدسي: «...**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» رواه البخاري(١).

فانظر إلى هذه الثمار العظيمة الكريمة، والأرباح الضخمة، لمن تاب وأناب، فالتائب إلى الله سبحانه محبوب عند الله، مُؤَيَّد بعونه، مصان محفوظ من كل سوء وبلية، تتنزل عليه الرحمات، وتتغشاه البركات، وتُستجاب له الدعوات، إذا أخذ أخذ بنور الله، وإذا بطش بطش بنور الله، وإذا مشى مشى بنور الله، لأنه لَبَّى نداء الله واستجاب لأمره، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا

(١) البخاري (٦٥٠٢).

وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [التحريم: ٨].

فالعاقل من يطمع في رحمة الله ورضوانه، ويقدم بين يدي طمعه التوبة، والانكسار، والرجوع عن المعاصي والخطايا، والإقلاع والندم على ما فات من التفريط في الطاعات والقربات، ومما يدل على أن التوبة من أَجَلِّ القربات وأحبها إلى الله وأوجبها لرضاه وفرحه ما جاء **عن أنس بن مالك الأنصاري** رضي الله عنه **خادم رسول الله** ﷺ **أنه قال: قال رسول الله** ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**» رواه مسلم(١).

(٢) طمأنينة النفس.

أخي الكريم، اعلم أن ضرر المعاصي على الأرواح والنفوس أخطر من ضرر الأمراض على الأجساد، بل إن ضرر المعصية يشمل الروح والبدن، فترى العاصي قد اجتمعت عليه أنواع الهموم والغموم، وألوان الوساوس والهواجس، فلا تجده إلا قلقًا فزعًا خائفًا، وما ذلك إلا بسبب ما اقترفه من المعاصي والخطيئات.

ولذلك كانت التوبة طمأنينة للنفس، وسعادة للقلب، قال الحسن البصري رحمه الله: «الحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظلمة في القلب، ووهن في البدن، فالتوبة دواء لأمراض النفس والبدن، فهي دواء يصقل القلوب ويجلي عنها أسباب الضيق والضنك وهو الران، قال تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، والقلوب إذا أزيل عنها الران أصبحت خفيفة مرحة لا تعرف اليأس

(١) مسلم (٢٧٤٧).

ولا يصيبها النكد، وما أصاب عَبْدًا هَمّ ولا غَمّ ولا اكتئاب إلا بسبب الذنوب.

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ صَفَى صُفِيَ لَهُ، وَمَنْ كَدَرَ كُدِرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي ليله كوفئ فِي نَهَارِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَاره كوفئ فِي لَيْلِهِ»(١).

(٣) اجتناب سخط الله عَزَّ وَجَلَّ.

اعلم أخي الكريم: أن التوبة وقاية من عذاب الله وعقابه، ذلك لأن الذنوب موجبة للسخط والنكال، والتوبة ماحية للذنوب ناسخة لها، لذلك قال تعالى عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، وإنما كان تسبيح يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فتفكر - وفقك الله - في أن الذنوب تنقضي لذاتها وتبقى تبعاتها، وأن التوبة هي فصل ما بين العبد وبين العقاب، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**» متفق عليه(٢).

أخي المسلم: أقبل على الله إقبال القَلِق الفَزِع، واسأله سؤال الخائف المضطر، وكن موقنًا بقبول توبتك عنده، فإنه سبحانه جواد كريم، واعلم بأن كل بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا

(١) «ذم الهوى» لابن الجوزي ص (١٨٥).

(٢) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

(٣) «سنن الترمذي» (٢٤٩٩)، و«سنن ابن ماجه» (٤٢٥١)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٢٩)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٧٧)، و«المشكاة» (٢٣٤١) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واحتج به شيخنا مقبل في «المخرج من الفتنة» (١٤٥).

لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» رواه مسلم[(١)].

فتذكر أنك بشر، وأن أحكام البشرية جارية عليك من السهو والغفلة والنسيان والخطأ وغلبة الطبع، وهذا يقتضي أن تكون ملازمًا للتوبة في كل حين.

وأخيرًا هذه نصيحة العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ لنا جميعًا أن ننتهز فرصة العمر بالتوبة إلى الله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ [(٢)]: «فكر أيها الإنسان؛ تجد أنك على خطر؛ لأن الموت ليس له أجل معلوم عندنا، قد يخرج الإنسان من بيته ولا يرجع إليه، وقد يكون الإنسان على كرسي مكتبه ولا يقوم منه، وقد ينام الإنسان على فراشه ولكنه يُحْمَل من فراشه إلى سرير غسله، وهذا أمر يستوجب منا أن ننتهز فرصة العمر بالتوبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يكون الإنسان دائمًا يستشعر بأنه تائب إلى الله وراجع ومنيب حتى يأتيه الأجل وهو على خير ما يرام».

ثانياً: حسنة التوحيد هي أعظم الحسنات ولهذا أحرقت كل السيئات

اعلم أخي الكريم: أن فضائل التوحيد كثيرة، وكثيرة جدًّا، أذكر لك منها ما ذكره العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

١) خير الدنيا والآخرة من فضائل التوحيد وثمراته.

٢) التوحيد هو السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة، يدفع الله به العقوبات في الدارين ، ويبسط به النعم والخيرات.

٣) التوحيد الخالص يثمر الأمن التام في الدنيا والآخرة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

---

(١) مسلم (٢٧٤٩).

(٢) «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٠٨).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٤) يحصل لصاحبه الهدى الكامل، والتوفيق لكل أجر وغنيمة.

٥) يغفر الله بالتوحيد الذنوب ويُكَفِّر به السيئات، ففي الحديث القدسي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مغْفِرَةً**» «حسن» رواه الترمذي[1].

٦) يدخله الله به الجنة، فعن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**» متفق عليه[2].

وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» متفق عليه[3].

٧) التوحيد يمنع دخول النار بالكلية إذا كمل في القلب، ففي حديث عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «...**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**» متفق عليه[4].

٨) يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى حبة من خردل من إيمان.

٩) التوحيد هو السبب الأعظم في نيل رضا الله وثوابه، وأسعد الناس بشفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ**» رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

---

(١) «سنن الترمذي» (٣٤٥٠)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠٥)، و«صحيح الجامع» (٤٣٣٨)، و«السلسلة الصحيحة» (١٢٧).

(٢) البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٣) البخاري (٦٢٦٨)، ومسلم (٩٤).

(٤) البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

(٥) البخاري (٩٩).

١٠) جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتيب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

١١) يُسَهِّل على العبد فعل الخيرات، وترك المنكرات، ويسلِّيه عن المصائب، فالموحد المخلص لله في توحيده تخف عليه الطاعات، لِمَا يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهوِّن عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي، لِمَا يخشى من سخط الله وعقابه.

١٢) التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

١٣) التوحيد يخفف عن العبد المكاره، ويهوِّن عليه الآلام، فبحسب كمال التوحيد في قلب العبد يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة، وتسليمٍ ورضًا بأقدار الله المؤلمة، وهو من أعظم أسباب انشراح الصدر.

١٤) يحرِّر العبد من رِقّ المخلوقين والتعلُّقِ بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العزُّ الحقيقي، والشرف العالي، ويكون مع ذلك متعبدًا لله لا يرجو سواه، ولا يخشى إلا إيَّاه، وبذلك يتمُّ فلاحه، ويتحقق نجاحه.

١٥) التوحيد إذا كمل في القلب، وتحقَّق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام فإنه يصير القليل من عمل العبد كثيرًا، وتضاعف أعماله وأقواله الطيبة بغير حصر ولا حساب.

١٦) تكفَّل الله لأهل التوحيد بالفتح، والنصر في الدنيا، والعز والشرف، وحصول الهداية، والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

١٧) الله ﷻ يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمنُّ عليهم بالحياة الطيبة، والطمأنينة إليه، والأُنس بذكره.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ في آخر المبحث في كتابه «القول السديد»[١]: «وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة، والله أعلم». اهـ. بتصرف يسير.

ثالثاً: المتمسك بالسنة في آخر الزمان له أجر خمسين شهيداً من الصحابة الكرام

قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ أَوَ مِنْهُمْ؟

قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ» «صحيح» رواه الطبراني وابن نصر عن عتبة بن غزوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢].

وفي رواية «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ زَمَانَ صَبْرٍ، للمُتَمَسِّكِ فِيهِ أَجْرُ خَمْسِينَ شَهِيدًا مِنْكُمْ» «صحيح» رواه الطبراني عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣].

قال في الدرر السنية[٤]: «المعنى الذي لأجله استحق الأجر العظيم والثواب وساوى فضل خمسين من الصحابة إنما هو لعدم المعاون والمساعد، على ما ذكره الحافظ أبو سليمان الخطابي، وأبو الفرج عبد الرحمن بن رجب وغيرهما.

فالمستقيم على المنهج السوي والطريق النبوي عند فساد الزمان ومروج الأديان غريب ولو عند الحبيب، إذ قد توفرت الموانع، وكثرت الآفات، وتظاهرت القبائح والمنكرات، وظهر التغيير في الدين والتبديل، واتباع الهوى والتضليل، وفقد المعين، وعَزَّ من تلوذ به من الموحدين، وصار الناس كالشيء المشوب، ودارت بين الكل

---

(١) «القول السديد شرح كتاب التوحيد» (ص:٢٦).

(٢) الطبراني في «الكبير» (٢٨٩)، وابن نصر في «السنة» (٣٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «السلسلة الصحيحة» (٤٩٤).

(٣) الطبراني في «الكبير» (١٠٣٩٤)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٢٢٣٤).

(٤) «الدرر السنية» (٨/ ٩١).

رحى الفتن والحروب، وانتشر شر المنافقين، وعيل صبر المتقين، وتقطعت سبل المسالك، وترادفت الضلالات والمهالك، ومنع الخلاص ولات حين مناص؛ فالموحد بينهم أعز من الكبريت الأحمر، ومع ذلك فليس له مجيبٌ ولا راع، ولا قابلٌ لما يقول ولا داع، وقد نصبت له رايات الخلاف، ورمي بقوس العداوة والاعتساف، ونظرت إليه شزر العيون، وأتاه الأذى من كل منافق مفتون، واستحكمت له الغربة، وأفلاذ كبده تقطعت مما جرى في دين الإسلام وعراه من الانثلام والانفصام، والباطل قد اضطرمت ناره، وتطاير في الآفاق شراره؛ ومع هذا كله فهو على الدين الحنيفي مستقيم، وبحجج الله وبراهينه مقيم، فبالله قل لي هل يصدر هذا إلا عن يقين صدق راسخ في الجنان، وكمال توحيد وصبر وإيمان، ورضى وتسليم لما قدره الرحمن؟ وقد وعد الله الصابرين جزيل الثواب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقد قال بعض العلماء -رحمهم الله-: من اتبع القرآن والسنة، وهاجر إلى الله بقلبه، واتبع آثار الصحابة، لم يسبقه الصحابة إلا بكونهم رأوا رسول الله ﷺ». اهـ.

وفي ذلك الزمان، فالكل له أعوان وإخوان، ومساعدون ومعاضدون، ولهذا قال علي بن المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما ذكره عنه ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مناقب الإمام أحمد ابن حنبل»[١]: «ما قام أحد بالإسلام بعد رسول الله ﷺ ما قام أحمد ابن حنبل، قيل: يا أبا الحسن ولا أبا بكر الصديق؟ قال: إن أبا بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان له أصحاب وأعوان، وأحمد بن حنبل لم يكن له أصحاب». اهـ.

وقد روى الإمام مسلم[٢] عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**».

---

(١) «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» (ص:١٤٨).

(٢) مسلم (١٤٥).

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الحديث[١]: «أما إنه ما يذهب الإسلام، ولكن يذهب أهل السنة، حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد أو رجلان».

وروى البخاري[٢] عَنْ مِرْدَاسٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ**قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ، الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ، أَوِ التَّمْرِ، لا يُبَالِيهِمُ اللهُ بَالَةً**» **قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: «يُقَالُ حُفَالَةٌ وَحُثَالَةٌ».**

وكان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول لأصحابه: «يا أهل السنة ترفقوا رحمكم الله، فإنكم من أقل الناس»[٣].

وقال يوسف بن عبيد: «ليس شيء أغرب من السنة، وأغرب منها من يعرفها»[٤].

وروى مسلم في صحيحه[٥] عن معقل بن يسار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أن رسول الله** ﷺ قال: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**».

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لو أن رجلًا من الصدر الأول بُعث ما عرف من الإسلام شيئًا إلا هذه الصلاة»، ثم قال: «أما والله لئن عاش على هذه المنكرات، فرأى صاحب بدعة يدعو إلى بدعته، أو صاحب دنيا يدعو إلى دنياه، فعصمه الله عَزَّ وَجَلَّ، وقلبه يحن إلى ذلك السلف، ويتبع آثارهم ويستن بسنتهم، ويتبع سبيلهم، كان له أجر عظيم»[٦].

---

(١) «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» لابن رجب (ص:٢٨-٢٩).
(٢) البخاري (٦٤٣٤).
(٣) «أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٤/ ٢٣).
(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٦٤).
(٥) مسلم (٢٩٤٨).
(٦) «كشف الكربة في وصف أهل الغربة» (١/ ٣٢٣).

وروى المبارك بن فضالة[١] رَحِمَهُ اللَّهُ - أحد علماء الحديث بالبصرة - عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ذكر الغني المترف الذي له سلطان، يأخذ المال ويدعي أنه لا عقاب فيه، وذكر المبتدع الضال، الذي خرج على المسلمين وتأول ما أنزل الله في الكفار على المسلمين، ثم قال: «اعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كَانُوا أَقَلَّ النَّاسِ فِيمَا مَضَى، وَهُمْ أَقَلُّ النَّاسِ فِيمَا بَقَى، الَّذِينَ لَمْ يَذْهَبُوا مَعَ أَهْلِ الْأَتْرَافِ فِي أَتْرَافِهِمْ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْبِدَعِ فِي بِدَعِهِمْ، وَصَبَرُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ حَتَّى لَقُوا رَبَّهُمْ فَكَذَلِكَ فَكُونُوا إِنْ شَاءَ اللهُ».

ثم قال: «والله لو أن رجلًا أدرك هذه المنكرات، يقول هذا: هلم إلي! ويقول هذا: هلم إلي! فيقول: لا أريد إلا سنة محمد ﷺ، يطلبها ويسأل عنها، إن هذا له أجر عظيم، فكذلك فكونوا إن شاء الله».

وعن مورق رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «المتمسك بطاعة الله إذا جنب الناس عنها كالكارِّ بعد الفارِّ»[٢].

قال أبو السعادات ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: إذا ترك الناس الطاعات ورغبوا عنها، كان المتمسك بها له ثواب كثواب الكارِّ في الغزو بعد أن فرَّ الناس عنه»[٣].

رابعاً: الإكثار من الصلاة في الحرم المكي الشريف

١) صلاة الفريضة في الحرم المكي بمائة ألف فريضة.

٢) صلاة النافلة بمائة ألف نافلة.

٣) صلاة الجمعة بمائة ألف جمعة.

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٢/ ٦٧٨).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٦١).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٢٣٤).

٤) صلاة الجنازة بمائة ألف صلاة جنازة.

وتوضيح ذلك: ركعتان في المسجد الحرام نافلة، تساوي (٢٠٠ ألف ركعة)، أي صلاة النوافل في (٤٦) سنة كاملة.

وصلاة (١٠) ركعات في المسجد الحرام تساوي (٢٣٠) سنة، أي مليون ركعة.

قال أبو بكر النقاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]: «فَحَسَبْتُ ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ فَبَلَغَتْ صَلَاةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عُمْرَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً وَسِتَّةِ أَشْهُرٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، وَصَلَاةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَهِيَ خَمْسُ صلوَات عمر مِائَتي سنة وسبع وَتِسْعِينَ سَنَةً وَتِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرِ لَيَالٍ».

الدليل: قوله ﷺ: **«صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ»** **«صحيح» رواه أحمد وابن ماجه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا** [(٢)].

فعلى العاقل أن يستغل فرصة وجوده في الحرم إذا حج، أو اعتمر، أو كان من أهل مكة، فإن النبي ﷺ يقول: **«اسْتَمْتِعُوا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ فَإِنَّهُ قَدْ هُدِمَ مَرَّتَيْنِ ويُرْفَعُ فِي الثالثة»** **«صحيح» رواه الطبراني وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا** [(٣)].

ومن جملة الاستمتاع بالبيت العتيق الطواف به، والصلاة فيه، والنظر إليه، إنها

---

(١) «التحقيق» لابن الجوزي (٢/ ١٤٢).

(٢) «مسند أحمد» (١٤٦٩٤)، و«سنن ابن ماجه» (١٤٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٢٧)، و«صحيح الجامع» (٣٨٣٨)، و«الإرواء» (١١٢٩)، و«صحيح الترغيب» (١١٧٣)، وشيخنا مقبل في «الصحيح المسند» (٢٢٨)، و«الجامع الصحيح» (٨٠٨).

(٣) «الطبراني» (١٤٠٣٣)، و«صحيح ابن حبان» (٦٧٥٣)، و«الحاكم» (١٦١٠)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٦٧١٨)، و«صحيح الجامع» (٩٥٥)، و«السلسلة الصحيحة» (١٤٥١)، واحتج به شيخنا مقبل في «غارة الأشرطة» (١/ ٤٢٧).

فرصة عظيمة، والحياة فرص، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُنْزِلُ اللهُ ﷻ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِشْرِينَ وَمِائَةَ رَحْمَةٍ، سِتُّونَ مِنْهَا لِلطَّائِفِينَ وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ، وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ**» «حسن» رواه الأزرقي في «أخبار مكة» وغيره[1].

---

(١) قَالَ الأَزْرَقِي: حَدَّثَنِي جَدِّي، عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَالِمٍ، وَسَلِيمِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**يُنْزِلُ اللهُ ﷻ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِشْرِينَ وَمِائَةَ رَحْمَةٍ، سِتُّونَ مِنْهَا لِلطَّائِفِينَ، وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ، وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ**) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٥٠٠ رقم ٥٦٠).

قال شيخنا المُحَدِّث وصي الله بن محمد عباس حفظه الله: وإسناده «حسن»، فجد الأزرقي ثقة، وهو أحمد بن محمد بن الوليد، وسعيد بن سالم وهو القداح أبو عثمان المكي صدوق، ولا يضر وجود سليم بن مسلم الخشاب وهو متروك فقد جاء قرينًا لسعيد فالعمدة على سعيد، وابن جريج ثقة مدلس ولكن روايته عن عطاء تحمل على السماع.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: ابن جريج أثبت الناس في عطاء، وصح عن ابن جريج قوله: إذا قلت: قال عطاء فأنا سمعته، وإن لم أقل سمعت.

ويقويه الطريق الموقوف على ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا نحوه عند الفاكهي.

وأورده المنذري في «الترغيب والترهيب» وقال: رواه البيهقي «يعني في شعب الإيمان» بإسناد «حسن».

وبه قال مجاهد وعطاء فيما روى عنهما عبد الرزاق والفاكهي.

نعم ورد هذا الحديث من طرق ضعيفة جدًا أيضًا، ولا تضر هذه الطرق في صحة الحديث أو حسنه في شيء. اهـ. وانظر «تاريخ المسجد الحرام» لشيخنا وصي الله عباس حفظه الله (ص:٣٦٧).

قلت: قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «السلسلة الضعيفة» (١٨٧): قال الأزرقي في «أخبار مكة» (٢٥٦) حدثني جدي عن سعيد بن سالم وسليم بن مسلم عن ابن جريج به، وهذا إسناد لا بأس به إلى ابن جريج فإن جد الأزرقي ثقة، واسمه أحمد بن محمد بن الوليد، وسعيد بن سالم هو القداح، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق يهم.

وأما قرينه سليم بن مسلم فهو الخشاب وهو متروك فلا يعتد به والعمدة على القداح، فلولا عنعنة ابن جريج فإنه مدلس، لحكمت على هذا السند بأنه حسن.

=

قال المحب الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا الحديث[١]: «**في القسمة وجهان**: الأول على المسمى بالسوية لا على العمل قلة وكثرة وما زاد على المسمى فله ثواب من غير هذا الوجه، الثاني قسمتها على العمل لأن الحديث ورد في سياق الحث

=

قلت: وهو «حسن» إن شاء الله، فقد تقدم أن رواية ابن جريج عن عطاء تحمل على السماع، فقد صح عن ابن جريج نفسه أنه قال: إذا قلت: قال عطاء فأنا سمعته وإن لم أقل سمعت. كما في «تهذيب الكمال» (١٨/ ٣٥١)، و«تهذيب التهذيب» (٦/ ٤٠٦).

وقال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٤/ ٣٥٢/ ١٧٥٧) في حديث رواه ابن جريج، عن عطاء.

قال: «وابن جريج وإن كان مدلسًا، فروايته عن عطاء محمولة على السماع، لقوله هو نفسه: إذا قلت: قال عطاء، فأنا سمعته منه وإن لم أقل سمعت».

وكذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١/ ٥٢)، وفي «الإرواء» (٣/ ٩٧).

لكن قد يقول قائل: ابن جريج هنا لم يقل قال عطاء بل قال عن عطاء!

والجواب: أَنَّ «قال» مثل «عن» عند الجمهور.

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: و«قال» تساوي «عن» عند غالب أهل العلم.

والخلاصة: أن هذا الحديث «حسن» إن شاء الله، وقد حسنه جمع من أهل العلم منهم:

١) المنذري كما في «الترغيب والترهيب» (٢/ ١٢٣) رقم الحديث (١٧٦١).

٢) الدمياطي في «المتجر الرابح» (٨٥٠).

٣) والعراقي في «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» (٢/ ٦٢٩).

٤) والسخاوي في «الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية» (١/ ٣١)، وانظر كذلك «المقاصد الحسنة» ص (٧٤٣) رقم الحديث (١٣٥١).

٥) ابن حجر الهيتمي المكي في «الزواجر» (١/ ٣٣٧).

٦) العلامة وصي الله عباس المدرس بالمسجد الحرام.

٧) حسنه كذلك مجموعة من الباحثين حققوا المطالب العالية للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (٧/ ١٠٨-١٠٩) رقم الحديث (١٢٩٥).

(١) «فيض القدير» (٢/ ٣١٧).

والتحضيض فلا يستوي فيه عامل الأقل والأكثر ولأن الرحمات متنوعة بعضها أعلى من بعض، فرحمة يعبر بها عن المغفرة وأخرى عن العصمة وأخرى عن الرضى وأخرى عن القرب وأخرى عن تبوء مقعد صدق وأخرى عن النجاة من النار إلى غير نهاية، إذ لا معنى للرحمة إلا العطف فتارة يكون بنعمة وتارة بدفع نقمة وكلاهما ينوع إلى غير نهاية ومع ذلك يفرض التساوي بين مقل ومكثر ومخلص وغيره وحاضر القلب وساه وخاشع وغيره فالأرجح أن ينال كل بقدر عمله ما يناسبه من الأنواع، قال: ويحتمل أن يحصل لكل طائف ستون ويكون العدد بحسب عمله في ترتيب أعلى الرحمات وأوسطها وأدناها ويحتمل أن جميع الستين بين كل الطائفتين والأربعين بين المصلين والعشرين بين الناظرين وتكون القسمة على حسب أحوالهم في العدد والوصف حتى يشترك الجم الغفير في الرحمة الواحدة وينفرد الواحد برحمات وفي الحديث فضل الطواف على الصلاة والصلاة على النظر إذا تساووا في الوصف فيخص به عموم خبر واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، والصلاة خير موضوع، وخرج بقوله إذا تساووا في الوصف ما لو اختلف وصف المتعبدين فكان الطائف ساهيًا غافلًا والمصلي أو الناظر خاشعًا فالخاشع أفضل، وقال كثير في توجيه الحديث: إن المئة وعشرين قسمت ستة أجزاء: فجعل جزء للناظرين، وجزآن للمصلين؛ لأن المصلي ناظر غالبًا، والطائف لما اشتمل على النظر وصلاة ركعتيه كان له ثلاثة أجزاء وفيه نظر؛ لأن الطائف الأعمى وكذا المصلي لهما ما ثبت لهما وإن لم ينظرا وكذا لو تعمد ترك النظر فيهما لا ينقص حظه، وأما النظر في الطواف فإن لم يقترن بقصد تعبد فلا أثر له وإن قصده نال به أجر الناظرين زائدًا على أجر الطواف».

قلت: يا له من أجر عظيم وفضل كريم من الرحمن الرحيم «**يُنْزِلُ اللهُ** ﷻ **عَلَى هَذَا الْبَيْتِ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِشْرِينَ وَمِائَةَ رَحْمَةٍ**» أي: الرحمة تنزل على الكعبة والحرم

على مدار أربعة وعشرين ساعة في الليل والنهار، ستون رحمة خاصة بالطائفين، فرضًا أو نفلًا، ليلًا أو نهارًا، كل من يطوف بالبيت تنزل عليه هذه الرحمات، ثم قال ﷺ: «**وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ**» يعني: أربعين رحمة خاصة بالمصلين إلى جانب مائة ألف صلاة لمن صلى في الحرم، فأنت إذا صليت في الحرم فرضًا أو نفلًا تنزل عليك هذه الرحمات.

ثم قال ﷺ: «**وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ**» أي: تنزل عشرون رحمة هذه خاصة للناظرين بأبصارهم إلى الكعبة، ومن طاف وصلى ونظر فقد استكمل جميع الرحمات في هذا الحديث، وقد جاء عن طاووس، ومجاهد، وعطاء، وعبد الرحمن بن الأسود: «النَّظَرُ إِلَى الْبَيْتِ عِبَادَةٌ» رواه ابن أبي شيبة[(١)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النَّظَرُ إِلَى الْبَيْتِ عِبَادَةٌ»[(٢)].

وعلى فرض عدم صحة الأدلة، مع صحتها والحمد لله فإن النظر من حيث العموم داخل في عموم تعظيم شعائر الله، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، وهذا يرجع إلى قصد الناظر وحاله، فإذا نظر إلى الكعبة على سبيل التفكر والذكر والتعظيم فإن ذلك يورث له زيادة الإيمان وانشراح الصدر والقرب من المولى ويؤجر على ذلك لصحة قصده، فصار النظر إلى الكعبة بهذا الاعتبار طريقًا إلى زيادة الإيمان وداخل في معنى التعبد يثاب عليه العبد، وقد قال نحو هذا العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)].

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣/ ٣٤).

(٢) انظر «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف» للمرداوي (٤/ ٥٠)، و«مجموع الفتاوى» (٢٦/ ٤١٣). **تنبيه**: لم يصح مرفوعًا مع شهرته، وقد بينت ذلك في كتابي «إسعاف الأخيار بما اشتهر ولم يصح من الأحاديث والآثار والقصص والأشعار» (٢/ ١٣١-١٣٢).

(٣) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١٣/ ١٠٢-١٠٣).

وصية الشيخ عبد الله خياط رَحِمَهُ ٱللَّهُ - إمام المسجد الحرام - للحجاج والمعتمرين

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...إن زيارتك لهذه البقاع المقدسة هي فرصة العمر، وإذا ذهبت الفرصة فقد لا تعود، فعليك أن تنتهز هذه الفرصة الذهبية التي أتاحها الله لك لحج بيته وزيارة هذه البقاع المقدسة وتحرص كل الحرص على أن لا تضيع منك ساعة لا تشغلها بعبادة ربك وطاعته...»(١).

فائدة: ومن صور استغلال الفرص في الحرم المكي، أن مجموعة من السلف طافوا بالبيت سباحة، ومنهم البدر بن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ طاف بالبيت سباحة، كلما حاذى الحَجَر غطس لتقبيله، واتفق لغيره من المكِّيِّين وغيرهم، بل قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ طاف سباحة، وقد جاء سيل طبق الأرض وامتنع الناس من الطواف(٢).

خامساً: إذا صليت على عدة جنائز في الصلاة الواحدة في الحرم المكي فلك بكل جنازة مائة ألف قيراط، وبهذا أفتى الشيخ ابن باز وابن عثيمين -رحمهما الله-

الدليل: عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ»، قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ؟ قَالَ: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ»** متفق عليه(٣).

قلت: لك قيراط واحد من الأجر إذا كانت الصلاة في غير المسجد الحرام، أما

---

(١) «ما يجب أن يعرفه المسلم عن دينه» (ص:٩).

(٢) «أخبار مكة» للفاكهي (١/ ٢٥١ رقم ٤٨٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٧٠)، و«صفة الصفوة» (١/ ٣٠٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٨/ ١٧٨)، و«الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٨٢)، و«المطر والرعد والبرق» لابن أبي الدنيا (ص:٧٤)، و«كشف الخفاء» للعجلوني (٢/ ٢٥٩).

(٣) البخاري (١٣٢٥)، ومسلم (٩٤٥).

الصلاة في المسجد الحرام فتقدم أنها بمائة ألف صلاة.

وقد سئل العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: رجل صلى على خمس جنائز صلاة واحدة، فهل له بكل جنازة قيراط أم أن القيراط على عدد الصلوات؟

فأجاب: نرجو له قراريط بعدد الجنائز، لقول النبي ﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ شَهِدَ دَفْنَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ**» رواه مسلم[٢]، وما جاء في معنى ذلك من الأحاديث، وكلها دالة على أن القراريط تتعدد بعدد الجنائز، فمن صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراط، ومن صلى عليها وتبعها حتى يفرغ من دفنها فله قيراطان، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى وجوده وكرمه على عباده، فله الحمد والشكر لا إله غيره ولا رب سواه، والله ولي التوفيق.

وسئل العلامة ابن عثيمين[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الحرم تتعدد الجنائز فهل يتعدد الأجر الذي أخبر عنه الرسول ﷺ؟

فأجاب: «إذا تعددت الجنائز في صلاة واحدة هل يأخذ الإنسان أجر عدد هذه الجنائز؟ الظاهر: نعم، لأنه يصدق عليه أنه صلى على جنازتين أو ثلاث أو أربع فيأخذ الأجر، لكن كيف ينوي؟ ينوي الصلاة على واحدة أو على الجميع؟ ينوي الصلاة على الجميع».

قلت: فإذا صليت خمس صلوات وفي كل صلاة صليت على جنازة فلك (٥٠٠٠٠٠) صلاة، أي (٥٠٠٠٠٠) قيراط من الحسنات، والقيراط مثل جبل أحد، وأحيانًا يكون في الصلاة الواحدة أكثر من جنازة، فلك بكل صلاة صليتها على ميت مائة ألف قيراط.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٣٧).
(٢) مسلم (٩٤٦).
(٣) «لقاء الباب المفتوح» لقاء رقم (١٤٩).

سادساً: الخطوة الواحدة إلى صلاة الجمعة مبكرًا تعدل عبادة سنة فإذا مشيت إلى المسجد ألف خطوة فلك أجر ألف سنة صيامها وقيامها

والدليل: قوله ﷺ: «مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ، وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ، أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا» «صحيح» رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أوس بن أوس الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

قلت: قال بعض العلماء: لم نسمع في الشريعة حديثًا صحيحًا مشتملًا على مثل هذا الثواب إلا في هذا الحديث، لهذا الحديث وغيره قال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجمعة أحب إليَّ من حج التطوع»[(٢)].

وهذا الأجر العظيم في هذا الحديث يكون بخمسة شروط، وهي:

١) الاغتسال.
٢) الذهاب مبكرًا للمسجد.
٣) المشي إلى المسجد.
٤) الاقتراب من الخطيب.

---

(١) «مسند أحمد» (١٦١٧٣)، و«سنن الترمذي» (٤٩٦)، و«سنن أبي داود» (٣٤٥)، و«سنن النسائي» (١٣٨١)، و«سنن ابن ماجه» (١٠٨٧)، و«صحيح ابن حبان» (٢٧٨١)، و«مستدرك الحاكم» (١٠٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٤١٠)، و«صحيح سنن أبي داود» (٣٤٥)، و«صحيح سنن النسائي» (١٣٨٤)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٨٩٨)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٢٧٧٠)، و«صحيح الجامع» (٦٤٠٥)، و«صحيح الترغيب» (٦٩٠) وشيخنا مقبل في «تعليقه على المستدرك» (١/ ٤٠٩) رقم (١٠٤٣).

(٢) «فتح الباري» لابن رجب (١/ ١٧٦).

٥) الاستماع والإنصات للخطيب.

فإذا توفرت الشروط المذكورة في هذا الحديث الشريف وانتفت الموانع يكون له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد أجر صيام سنة وقيامها، فلو خطا من بيته إلى المسجد ألف خطوة مثلًا كان له أجر ألف سنة صيامها وقيامها لا رياء فيها ولا سمعة، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الجمعة: ٤]، ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحديث من حيث الإسناد لا بأس به ولا مطعن فيه، لكن من حيث ترتب الثواب العظيم على ذلك قد يستغربه بعض الناس، ولكن - يا أخي - لا تستغرب فضل الله ﷻ، فقد يكون العمل عملًا قليلًا وله ثواب كثير، وفضل الله تعالى واسع، لكن ما معنى: غسَّل واغتسل؟ معناها: غسَّل بتنظيف الجسم، واغتسل أي: بالغ في ذلك، أو اغتسل كغسل الجنابة، وبكّر وابتكر أي: بالغ في البكور، ودنا من الإمام واضح، واستمع ولم يَلْغُ أيضًا واضح»[١].

سابعاً: خمس صلوات في اليوم والليلة في المسجد مع جماعة المسلمين تعادل أجر خمس حجج، وفي الشهر (١٥٠) حجة، وفي السنة (١٨٠٠) حجة

والدليل: قوله ﷺ: «**مَنْ مَشَى إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي الْجَمَاعَةِ فَهِيَ كَحَجَّةٍ، وَمَنْ مَشَى إِلَى صَلَاةِ تَطَوُّعٍ فَهِيَ كَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ**» «حسن» رواه أحمد وأبو داود والطبراني والبيهقي وغيرهم عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢].

---

(١) «اللقاء الشهري» (٧٤).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٣٠٤)، و«سنن أبي داود» (٥٥٨)، والطبراني في «الكبير» (٧٥٧٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤٩١٠) وغيرهم، وحسنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٥٥٨)، و«صحيح الجامع» (٦٥٥٦).

وقال ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَة فَأَجره كَأَجر الْحَاج الْمُحْرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لا يُنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى إِثْرِ صَلَاةٍ لا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عليين» «حسن» رواه أحمد وأبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه(١).

الله أكبر، له بكل فريضة صلاها في المسجد مع الجماعة أجر حجة، فخمس صلوات في اليوم والليلة في المسجد مع جماعة المسلمين تعادل أجر خمس حجج، وفي الشهر (٣٠) حجة، وفي السنة (٥) صلوات في (٣٦٠) يومًا تساوي (١٨٠٠) حجة في سنة واحدة، فهذا أطول من عمر نوح عليه السلام.

فأين المضيعون لصلاة الجماعة عن هذا الثواب من الكريم الوهاب؟!

أكثر من ألف وثمانمائة حجة في عام واحد لمن يصلي صلاة الفريضة مع الجماعة، فكيف بالأجور الأخرى المترتبة على أدائها في المساجد حيث أمر الله؟!

هذا بالنسبة لصلاة الفريضة، وأما صلاة النافلة مثل صلاة الضحى أو التي شرع لها الاجتماع في المساجد خاصة فله بكل صلاة صلاها في المسجد أجر عمرة تامة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والمحروم من قعدت به معاصيه وذنوبه عن بيت ربِّه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثامناً: من حضر دروس العلم والمحاضرات وحلق التحفيظ في المساجد فله بكل حضور أجر حجة تامة

الدليل: قوله ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعلِّمَهُ، كَانَ

(١) «مسند أحمد» (٢٢٣٠٤)، و«سنن أبي داود» (٥٥٨)، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٥٦٧)، و«صحيح الجامع» (٦٢٢٨).

لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حِجَّتُهُ» «صحيح» رواه الطبراني عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

قلت: كل هذا الفضل يدل على قيمة العلم وأهميته، فكل ذهاب للمسجد من أجل أن تُعَلِّم أو تتعلم لك أجر حجة تامة لا نقص فيها، حجة ليست مقيدة بزمان ولا مكان، فقد تحصل على عدد من الحجج في اليوم الواحد إذا تكرر الذهاب للمسجد من أجل العلم، وكذلك من أجل الصلاة المكتوبة، فكل فريضة بحجة.

وهذا الفضل قطرة من مطرة، فطلب العلم من أَجَلِّ العبادات وأفضل القربات، وهو حياة القلوب، ونور الأبصار، به يُطاع الله عَزَّ وَجَلَّ ويُعبد، وبه يُحمد الرب ويُوَحَّد، وبه تُوصل الأرحام، ويُعرف الحلال من الحرام، فتعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل في الظلمة، والسنان على الأعداء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، وطلابه ترغب الملائكة في خلتهم وتضع لهم أجنحتها احتفاءً بهم، وكل رطب ويابس لَهُم يَسْتَغْفِر حَتَّى حيتان الْبَحْر وهوامّه، وسباع الْبر وأنعامه، وَالسَّمَاء ونجومها[(٢)].

وأهل العلم في المنارات العالية، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفضل العالم على العابد كفضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أدنى أمّته، كما خاطب بذلك أصحابه، ولم يأمر الله نبيه أن يطلب الزيادة من شيء إلا من العلم، فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

---

(١) الطبراني في «الكبير» (٧٤٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٨٦).

(٢) قلت: كثير من هذا الكلام يروى مرفوعًا ولا يثبت، ومنه ما يروى عن معاذ موقوفًا عليه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» (٩/ ٢١): «وهذا الكلام معروف عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رووه عنه بالأسانيد المعروفة وهو كلام حسن، ولكن روايته مرفوعًا فيه نظر».

وَحِلَق العلم من أعظم الوسائل الجالبة للعلم والخير، كما قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» متفق عليه عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه(١).

وَحِلَق العلم من أعظم السبل المؤدية إلى الجنة، قال ﷺ: «...مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ...» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه(٢).

فَحَرِيّ بنا الاهتمام بِحِلَق العلم، وقد وردت أحاديث في فضل حِلَق العلم عظيمة لا سيما في المسجد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «...وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ...» رواه مسلم(٣).

وفي إتيان المساجد لتعلم القرآن قال ﷺ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عز وجل، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ» رواه مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه(٤).

وهذا دليلٌ عظيمٌ على استحباب إتيان المساجد لِحِلَق الذِّكْر.

وقال ﷺ كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ»، قَالَ: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»، قَالَ: «فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ

(١) البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).
(٢) مسلم (٢٦٩٩).
(٣) المرجع السابق.
(٤) مسلم (٨٠٣).

أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ»، قَالَ: «فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟»، قَالَ: «فَيَقُولُونَ: لا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ؟»...، قَالَ: «فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ»، قَالَ: «يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[(١)].

وَحِلَق العلم هي المسؤولة في توزيع ميراث النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه خرج إلى السوق بعد موت النبي ﷺ، فرأى حال الناس فيه وهم يبتاعون ويشترون، فنادى في سوق المدينة بأن ميراث رسول الله ﷺ يُقَسَّم في المسجد وأنتم هاهنا! فلما ذهبوا ولم يجدوا شيئًا رجعوا وأخبروه، فقال لهم: وما رأيتم في المسجد؟ قالوا: رأينا قومًا يُصَلُّون، وقومًا يقرؤون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة رضي الله عنه: وَيْحَكُم فذاك ميراث محمد ﷺ. **«حسن موقوفًا»** رواه الطبراني[(٢)].

فكل ما سبق يبين أهمية تعاهد المساجد والتعلم فيها.

فَحَرِيّ بكل مسلم طالب للعلم، قارئ للقرآن، يبتغي الدار الآخرة، ويرغب في بركة العلم، أن يلتحق بحلقات القرآن في بيوت الله تعالى، وليس معنى هذا أن طلب العلم في غير المسجد ليس له ثمرة ولا بركة ولا أجر، لكن عقد الحِلَق في المسجد أولى وأفضل للعالِم والمتعلم، وأعظم بركة من غيره.

تاسعًا: صلاة الضحى تجزئ عن ثلاثمائة وستون صدقة وهي زكاة عن (٣٦٠) مفصلًا للإنسان

الدليل: قوله ﷺ: **«ابْنُ آدَمَ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ مَفْصِلٍ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ»، قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ يَتَكَلَّمُ بِهَا الرَّجُلُ صَدَقَةٌ، وَعَوْنُ الرَّجُلِ أَخَاهُ عَلَى**

(١) البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

(٢) الطبراني في «الأوسط» (١٤٢٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٨٣).

الشَّيْءِ صَدَقَةٌ، وَالشربةُ مِنَ الْمَاءِ يَسْقِيهَا صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» «صحيح» رواه البخاري في «الأدب المفرد» والطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [١].

وعن بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «فِي الْإِنْسَانِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ مَفْصِلًا، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِصَدَقَةٍ»، قَالُوا: وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «النُّخَاعَةُ تَرَاهَا فِي الْمَسْجِدِ فَتَدْفِنُهَا، أَوِ الشَّيْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَرَكْعَتَا الضُّحَى تُجْزِئُكَ» «صحيح» رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والطحاوي [٢] وأصله في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من المعلوم أن الإنسان فيه ثلاثمائة وستون مفصلًا، وأن النبي ﷺ حثنا على تقديم صدقة يومية عن كل مفصل من هذه المفاصل، شكرًا لله على هذه النعمة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]

كم من الوقت ستحتاجه لكسب مثل هذا العدد من الصدقات؟

ثلاثمائة وستون صدقة على كل مفصل صدقة، قد يصعب عليك الأمر شيئًا ما، لكن صلاة ركعتين أو أكثر في دقائق معدودة تقوم بها يوميًا تؤدي الدَّين الذي عليك، وهو صدقة على كل مفصل من مفاصلك، والله لو تَصَلَّبَ مِفْصَل في ظهرك أو في رقبتك أو في أي مكان من جسدك لدفعت على ذلك الملايين لو استطعت وربما بعت كل ما تملك من أجل العلاج مع وجود المرض والوجع والألم، ومن رحمة الله

---

(١) البخاري في «الأدب المفرد» «٤٢٢»، والطبراني في «الكبير» (١١٠٢٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الأدب المفرد» (٤٢٢)، و«صحيح الجامع» (٤٢).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٩٩٨)، و«سنن أبي داود» (٥٢٤٢)، «صحيح ابن حبان» (١٦٤٢)، «مشكل الآثار» للطحاوي (٩٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٥٢٤٢)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (١٦٤٠)، «إرواء الغليل» (٤٦١)، وشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيح المسند» (١٦١)، و«الجامع الصحيح» (٨٤٠).

بعباده وفضله وامتنانه أن كَثَّرَ لهم طرق الخير وأسباب الرضى والقبول ويسَّره على كل إنسان، وفَضَّلَ بعض الأعمال على بعض، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، ومن ذلك الفضل العظيم صلاة الضحى، فعلها يسير، وفضلها كبير، وثوابها جزيل، ولو لم يكن لها فضل إلا أنها تجزئ عن الصدقة التي تصبح على مفاصل الإنسان كل يوم لكفاها فضلًا وزاد المرء عليها حرصًا.

عاشراً: المؤذن المحتسب له أجر من صلى معه، فلو صلى معه ألف مصلي لكل مصلي أجر حجة وللمؤذن أجر ألف حجة للفرض الواحد

الدليل: قوله ﷺ: «**الْمُؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَى صَوْتِهِ، وَأَجْرُهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ صَلَّى مَعَهُ**» «صحيح» رواه أحمد والنسائي والطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه[(١)].

قلت: لقد جاءت أحاديث نبوية صحيحة كثيرة في فضل الأذان والمؤذنين، ولكن اقتطفت منها حديثًا واحدًا من باب الذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

أخي العزيز: إن جميع الفضائل والمزايا التي ذكرت في شأن الصلاة التي سيحصل عليها كل من صلى في المسجد مع الجماعة فإن المؤذن سيحصل على أكثر من ذلك.

تعال معي أخي المسلم الكريم نتجول تحت هذه الفقرة المذكورة في حديث الباب، ونسبح في بحر خِضَمٍّ من فضل الله وجوده وكرمه لم يسبح فيه ولم يغترف منه إلا قليل من الناس العارفين بهذا الفضل، ومن هذه الفضائل ما أخبر به النبي ﷺ أنَّ «**الْمُؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَى صَوْتِهِ، وَأَجْرُهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ صَلَّى مَعَهُ**»[(٢)].

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٥٠٦)، و«سنن النسائي» (٦٤٦)، و«معجم الطبراني الكبير» (٧٩٤٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٦٤٥)، و«صحيح الجامع» (٦٦٤٣)، وفي «صحيح الترغيب» (٢٣٦)، وشيخنا مقبل رحمه الله في «الصحيح المسند» (١٣٤).

(٢) سبق تخريجه.

وتخيل أخي المؤذن الكريم لو صلّى معك في مسجدك الذي تؤذن فيه خمسون مصلّيًا في كل فريضة، فلك ثواب خمسين مصلّيًا إضافة إلى ثوابك المتقدم، والذي يشتمل على ثواب سبع وعشرين صلاة، وثواب حجة، وثواب الخطوات إلى المسجد وغيرها كثير، فلو حسبنا فقط أيها المؤذن ما ستناله من ثواب للحج فإنك ستكسب في الفريضة الواحدة ثواب خمسين حجة أو أكثر بحسب عدد المصلين، لكن هنا على افتراض وجود خمسين مصلّيًا، إذًا في اليوم الواحد خمسة فرائض في خمسين مصليًا، يساوي (٢٥٠) حجة يوميًّا، فكيف إذا كان يصلي في الجامع مئات المصلين في كل فريضة فكم لك من الأجر العظيم، إن الأذان فرصة عظيمة، والحياة فرص.

لا تعجب أخي الكريم من فضل الله الواسع، ولكن اعجب من غفلة الناس عن هذا الخير، ولا تقل إن هذا الكلام لا يُصَدَّق، أو فيه مبالغة في الثواب، فقد قال ﷺ: **«لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ - الأذان - وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا - أي اقترعوا -...»** متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].

الحادي عشر: الصدقة الجارية عُمُرٌ ثاني، تصلك الحسنات وأنت في قبرك كالمتقاعد الذي يأتيه مُرَتَّبُه وهو لا يعمل إن صح التعبير

الدليل: قوله ﷺ: **«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»** رواه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهْرًا»** وفي رواية **«أو أجرى نهرًا»**، **«أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ**

---

(١) البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

(٢) مسلم (١٦٣١).

بَعْدَ مَوْتِهِ» «حسن» رواه البزار والبيهقي وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنه(١).

فاستغل أخي الكريم هذه الفرصة فقد يأتي عليك وقت لا تستطيع أن تتصدق

قال رسول الله ﷺ: «...**تَصَدَّقُوا قَبْلَ أَنْ لا تَصَدَّقُوا، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِرْهَمِهِ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ بُرِّهِ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ تَمْرِهِ، مِنْ شَعِيرِهِ، لا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الصَّدَقَةِ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**...» رواه مسلم والطبراني عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه(٢).

واعلم - رحمك الله - أن الصدقة الجارية هي التي تقدمها في حياتك وتستمر منفعتها بعد موتك لفترة من الزمن، تصل إليك وأنت في قبرك الأجور الكثيرة في الليل وفي النهار بقدر الانتفاع بهذه الصدقة الجارية، فأنت كالموظف المتقاعد يأتيك مُرَتَّبُك وأنت في بيتك لا تعمل شيئًا.

وأنواع الصدقة الجارية كثيرة جدًّا منها: بناء المساجد، أو المدارس، أو الأوقاف كبيت للأيتام أو الأرامل أو المحتاجين، أو حفر الآبار، أو جري الأنهار، أو سقي الماء في الأماكن العامة، أو غرس الأشجار النافعة، أو طبع الكتب وتوزيعها، أو توزيع المصاحف، أو تربية الأبناء التربية الشرعية، أو تعليم المسلمين العلم الشرعي ودعوتهم إلى الله، فهذه الأعمال المباركة تبقى لك بعد موتك.

الثاني عشر: ثواب قضاء حوائج الناس أفضل من الاعتكاف في المسجد شهراً

الدليل: قوله ﷺ: «...**ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن**

(١) «مسند البزار» (٧٢٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠٢)، و«صحيح الترغيب» (٧٣).

(٢) مسلم (١٠١٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٣٥٧).

أعتكف في المسجد شهرًا...» «حسن» رواه الطبراني وابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

وقال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» «حسن» رواه القضاعي عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢).

قلت: إن قضاء الحوائج واصطناع المعروف باب واسع يشمل كل الأمور المعنوية والحسية التي حثنا الإسلام عليها، وهي كذلك من الأخلاق الإسلامية العالية الرفيعة التى ندب إليها الإسلام وحث المسلمين عليها، وجعلها من باب التعاون على البر والتقوى الذي أمرنا الله تعالى به فقال في محكم تنزيله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ «أي ليعن بعضكم بعضًا على البر، وهو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الآدميين».

واعلم أن ثمار السعي في قضاء حوائج الناس كثيرة وكثيرة جدًّا، فمنها على سبيل المثال ما جاء في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ**» متفق عليه(٣).

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١٣٦٤٦)، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٣٦)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «السلسلة الصحيحة» (٩٠٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٦).

(٢) القضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٣٤)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٣٢٨٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٢٦).

(٣) البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

وفي رواية أخرى عند الطبراني بسند «حسن»[(١)]: «...**وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ، أَثْبَتَ الله** ﷻ **قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الأَقْدَامُ**».

ولأن المسلم يقوم بقضاء هذه الحاجات ابتغاء مرضاة الله تعالى، فإن الله ﷻ يُكافئه بالمساعدة في حاجته يوم احتياجه؛ سواء في الدنيا بتيسير من يكون له عونًا في قضاء حوائجه وتسهيل أعماله، أو في الآخرة بتثبيت الأقدام على الصراط، فواقع الأمر بهذه الصورة أن المستفيد الأكبر من قضاء الحاجات هو قاضي الحاجة نفسه، وصاحب الوجاهة الذي سعي مع غيره لمساعدته وقضاء مصلحته، وهذا هو المقصد الرئيس من هذه السُّنَّة النبوية.

وقضاء حوائج الناس من صفات المؤمنين وأهل المروءات، فإن أهل المروءات والنجدة لا يمكنهم أن يروا مضطرًا إلا أجابوه، ولا محتاجًا إلا أعانوه، ولا ملهوفًا إلا أغاثوه، فإن هذا من أصول المروءة كما قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «أول المروءة طلاقة الوجه، والثاني التودد، والثالث قضاء الحوائج»[(٢)].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المروءة: الإنصاف من النفس والتفضل»[(٣)].

وقال ﷺ: «**صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوْءِ وَالْآفَاتِ وَالْهَلَكَاتِ...**» **«صحيح» رواه الحاكم عن أنس بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)].

---

(١) الطبراني في «الكبير» (١٣٦٤٦)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٠٦).

(٢) «عيون الأخبار» (١/ ٤١٣).

(٣) «مكارم الأخلاق» (ص:١٢٨).

(٤) «مستدرك الحاكم» (٤٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٠٨)، و«صحيح الجامع» (٣٧٩٥).

الثالث عشر: الرباط في سبيل الله أجره المنقول عن الرسول ﷺ يُذْهِل العقول

قال ﷺ: «مَنْ رَابَطَ يَوْمًا وَلَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَ لَهُ أَجْرُ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا جَرَى لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ الْأَجْرِ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ» رواه مسلم والنسائي والحاكم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه[(١)].

وفي رواية: «مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، كَانَتْ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا» «حسن» رواه ابن ماجه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه[(٢)].

انظر أخي القارئ الكريم كيف أن المرابطة لفترة أربع وعشرين ساعة فقط يسجل لمن فعل ذلك كمن قام شهرًا وصامه، وتأمل مرة أخرى أخي القارئ الكريم من جاهد من الصحابة ومات مرابطًا فكم من الأجر كتب له منذ أن استشهد قبل أربعة عشر قرنًا حتى وقتنا هذا إلى قيام الساعة وهو يكتب له عن كل يوم ثواب من صام وقام شهرًا كاملًا، فكم من الحسنات سيجد هذا المجاهد في صحيفته يوم القيامة؟ وكم شهرًا سَيُسَجَّلُ له في صحيفته كأنه عاشها مطيعًا لله فيها؟

ألا تعلم بأن من مات مرابطًا من الصحابة قد سُجِّلَ له بإذن الله ثواب من صام وقام قرابة اثنين وأربعين ألف سنة إلى بداية هذا القرن! (٣٠) في (١٤٠٠) تساوي (٤٢٠٠٠) سنة.

أخي الكريم إن فاتك الرباط في الثغور فلا يفوتك الرباط في المساجد، فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مُنتظرُ الصلاةِ بعد الصلاةِ، كفارسٍ اشتَدَّ به**

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩١٣)، و«سنن النسائي» (٣١٦٧)، و«مستدرك الحاكم» (٢٤٢٢).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٢٧٦٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٧٦٦)، و«صحيح الترغيب» (١٢٢٤).

فرسُه في سبيل الله على كَشْحِهِ[١]، وهو في الرِّباط الأكبر» «حسن» رواه أحمد والطبراني[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ» رواه مسلم[٣].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ[٤]: «قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيُّ: قَوْلُهُ «فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ» أَيِ الرِّبَاطُ الْمُرَغَّبُ فِيهِ وَأَصْلُ الرِّبَاطِ الحبس على الشيء كَأَنَّهُ حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى هَذِهِ الطَّاعَةِ قِيلَ وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَفْضَلُ الرِّبَاطِ كَمَا قِيلَ الْجِهَادُ جِهَادُ النَّفْسِ وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ الرِّبَاطُ الْمُتَيَسِّرُ الْمُمْكِنُ أَيْ أَنَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبَاطِ هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْقَاضِي وَكُلُّهُ حَسَنٌ...» اهـ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ[٥]: «وأما المرابَطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات، وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله مجاهد وابن عباس وسهل بن حُنَيف ومحمد ابن كعب القُرَظي وغيرهم» اهـ.

---

(١) الكاشح: العدوّ الذي يضمر عداوته، ويطوي عليها كشْحه، أي: باطنه.

(٢) «مسند أحمد» (٨٦٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (٨١٤٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٠٨) برقم (٤٥٠) وشعيب الأرناؤوط في مسند أحمد(٨٦٢٥)، وأحمد شاكر في مسند أحمد (٨٦١٠).

(٣) مسلم (٢٥١).

(٤) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣/ ١٤١).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧٢).

الرابع عشر: أجر الصابرين بغير حساب لا يوزن بالميزان ولا يكال بالمكيال

الدليل: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١): «ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يُغرف لهم غرفًا».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢): «**فوائد وثمار الصبر كثيرة منها:**

(١) الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيرهم كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال سليمان بن القاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قال: كالماء المنهمر».

(٢) تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

(٣) ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] قال أبو علي الدقاق: «فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته»

(٤) أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وقال بعض السلف: وقد عزي على

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٧٩).

(٢) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص:٧٣)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٥١).

مصيبة نالته فقال: مالي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها.

(٥) أنه سبحانه جعل الصبر عونًا وعدة وأمر بالاستعانة به فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فمن لا صبر له لا عون له.

(٦) أنه سبحانه علّق النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ولهذا قال النبي ﷺ: «...وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ...» «صحيح رواه أحمد وعبد بن حميد والحاكم وغيرهم عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما[١]».

(٧) أنه سبحانه جعل الصبر والتقوى جُنَّة عظيمة من كيد العدو ومكره، فما استجن العبد من ذلك جنة أعظم منهما، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

(٨) أنه سبحانه أخبر أن ملائكته تسلم عليهم في الجنة بصبرهم كما قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

(٩) أنه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا بمثل ما عوقبوا به، ثم أقسم قَسَمًا مؤكدًا غاية التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فتأمل هذا التأكيد بالقَسَم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التي في الجواب.

(١٠) أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]،

(١) «مسند أحمد» (٢٨٠٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٦٣٦)، و«مستدرك الحاكم» (٦٣٠٤) وغيرهم، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٨٠٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).

وهؤلاء ثنية[(١)] الله من نوع الإنسان.

كان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها، وفيها: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت».

وكان محمد بن شبرمة رحمه الله إذا نزل به بلاء قال: «سحابة صيف ثم تنقشع».

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]: «لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا».

وقيل للأحنف بن قيس رحمه الله: ما الحِلْم؟ قال: «أن تصبر على ما تكره قليلًا».

وقال وهب رحمه الله: «مكتوب في الحكمة: قصر السفه النصب، وقصر الحلم الراحة، وقصر الصبر الظفر، وقصر الشيء وقصاراه غايته وثمرته»[(٢)].

الخامس عشر: العمل الصالح أيام عشر ذي الحجة لا يعدله شيء، وهذه العشر تحتوي على فضائل عشر

الدليل: قوله ﷺ: «مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ»، قَالُوا: وَلَا الجِهَادُ؟ قَالَ: «وَلَا الجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ» رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[(٣)].

---

(١) والمعنى: أن الأصل في الإنسان أنه موصوف باليأس والكفر عند المصيبة والفرح والفخر عند النعمة، واستثنى الله تعالى من ذلك الصابرين الصالحين، فمعنى ثنية: استثناء. انظر «عدة الصابرين» (ص:١٣٢) بتعليق إسماعيل مرحبا.

(٢) ذكر هذه الآثار ابن القيم رحمه الله في كتابه «عدة الصابرين» (ص:٩٥).

(٣) البخاري (٩٦٩).

قلت: كان رسول الله ﷺ يوصي بإكثار العمل الصالح في هذه الأيام، لأن في هذه العشر تضاعف الحسنات وتجاب الدعوات وتغفر الخطايا والسيئات، وهذه الأيام العظام يشترك في خيرها الحجاج إلى بيت الله الحرام والمقيمون في أوطانهم على الطاعات، والعمل المفضول في هذه العشر خير من العمل الفاضل في غيرها من الأوقات، وهذه العشر تحتوي على فضائل عشر:

- الأولى: أن الله تعالى أقسم بها في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢].
- الثانية: أنه سماها الأيام المعلومات، قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].
- الثالثة: أن الرسول ﷺ شهد لها بأنها أفضل أيام الدنيا فقال: «**أَفْضَلُ أَيَّامِ الدُّنْيَا أَيَّامُ الْعَشْرِ**» «صحيح» رواه البزار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما[(١)].
- الرابعة: أنه ﷺ حث على أفعال الخير فيها كما في حديث الباب.
- الخامسة: أنه أمر بكثرة التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير فيها.
- السادسة: أن فيها يوم التروية اليوم الثامن وهو من الأيام الفاضلة.
- السابعة: أن فيها يوم عرفة وهو اليوم التاسع، صومه يُكَفِّر ذنوب سنتين.
- الثامنة: استحب الجمهور صيام العشر، فقد ثبت **عن بعض أزواج النبي ﷺ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم تِسْعَ ذي الحجة...** «حسن» رواه أبو داود[(٢)].
- التاسعة: أن فيها يوم الحج الأكبر وهو يوم النحر.
- العاشرة: وقوع الأضاحي فيها التي هي عَلَم من معالم الملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية.

---

(١) «مسند البزار» (١١٢٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١١٣٣).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٤٣٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٣٧).

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «ومما يدل على فضيلة العشر من هذه الأحاديث أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله فيه للصلاة والذِّكْر حرصًا على اغتنام هذه الليالي المباركة بما هي جديرة به من العبادة، فإنها فرصة العمر وغنيمة لمن وفقه الله عَزَّ وَجَلَّ، فلا ينبغي للمؤمن العاقل أن يُفَوِّت هذه الفرصة الثمينة على نفسه وأهله، فما هي إلا ليال معدودة ربما يدرك الإنسان فيها نفحة من نفحات المولى فتكون سعادة له في الدنيا والآخرة، وإنه لمن الحرمان العظيم والخسارة الفادحة أن ترى كثيرًا من المسلمين يُمْضُون هذه الأوقات الثمينة فيما لا ينفعهم، يسهرون معظم الليل في اللهو الباطل، فإذا جاء وقت القيام ناموا عنه وفوَّتوا على أنفسهم خيرًا كثيرًا لعلهم لا يدركونه بعد عامهم هذا أبدًا، وهذا من تلاعب الشيطان بهم ومكره بهم وصده إياهم عن سبيل الله وإغوائه لهم».

السادس عشر: من زار مريضاً صلّى عليه سبعون ألف مَلَك

الدليل: قوله ﷺ: «**ما من امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا إِلَّا ابْتَعَثَ اللهُ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ فِي أَيِّ سَاعَاتِ النَّهَارِ كَانَ حَتَّى يُمْسِيَ وَأَيِّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ كَانَ حَتَّى يُصْبِحَ**» «صحيح» رواه أحمد وابن حبان عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

قلت: فضل زيارة المريض عظيمة وعظيمة جدًّا، **وقد وردت في السنة الصحيحة الكثير من الأحاديث التي تدل على فضيلة عيادة المريض وما فيه من الأجر العظيم والثواب الجزيل، من ذلك:**

(١) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٢٠/ ٣٣٩).

(٢) «مسند أحمد» (٧٥٤)، و«صحيح ابن حبان» (٢٩٥٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٢٩٤٧)، و«صحيح الجامع» (٥٦٨٧)، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٦٧).

١) أن سبعين ألفًا من الملائكة تستغفر له، فإن زار المريض في المساء فإنها تستغفر له حتى يصبح، وإن كان في الصباح تستغفر له حتى يمسي، لقوله ﷺ: «**إِذَا عَادَ الرَّجُلُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، مَشَى فِي خِرَافَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِنْ كَانَ غُدْوَةً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ كَانَ مَسَاءً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ**» «صحيح» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وأبو يعلى والبيهقي عن علي رضي الله عنه[١].

وقد عاد أبو موسى الأشعري رضي الله عنه الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال له علي رضي الله عنه: أعائدًا جئت أم زائرًا؟ فقال أبو موسى: بل جئت عائدًا، فقال علي رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا بَكَرًا شَيَّعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَادَهُ مَسَاءً شَيَّعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ، حَتَّى يُصْبِحَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ**» «صحيح» رواه أحمد والترمذي والحاكم[٢].

٢) ومن ثمار وفوائد زيارة المريض ما رواه مسلم عن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**»، **قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ:** «**جَنَاهَا**»[٣].

---

(١) «مسند أحمد» (٦١٢)، و«سنن أبي داود» (٣٠٩٨)، و«سنن ابن ماجه» (١٤٤٢)، و«مستدرك الحاكم» (١٢٩٣)، و«مسند أبي يعلى» (٢٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٤٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٩٨)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٤٢)، و«صحيح الجامع» (٦٨٢)، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٦٧).

(٢) «مسند أحمد» (٩٧٥)، و«سنن الترمذي» (٩٦٩)، و«مستدرك الحاكم» (١٢٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٩٦٩)، و«صحيح الجامع» (٥٧٦٧)، و«مشكاة المصابيح» (١٥٥٠).

(٣) مسلم (٢٥٦٨).

٣) وعائد المريض في ضمان الله تعالى أن يدخله الجنة ويعيذه من النار، ويكفي في فضل زيارة المريض هذا الفضل، ولو لم يكن منها إلا هذا لكفى، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ، وَمَنْ عَادَ مَرِيضًا كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ، وَمَنْ غَدَا إِلَى مَسْجِدٍ أَوْ رَاحَ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى إِمَامٍ يُعَزِّرُهُ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ، وَمَنْ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ لَمْ يَغْتَبْ إِنْسَانًا كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ**» «صحيح» رواه الطبراني وابن حبان وابن خزيمة والبيهقي والحاكم[(١)].

٤) قال الحافظ الزين العراقي[(٢)] رحمه الله: «فيه فضيلة المبادرة إلى الخصال المذكورة، وأنه إذا مات الإنسان على خصلة منها كان في ضمان الله، بمعنى أنه ينجيه من أهوال القيامة ويدخله دار السلام».

٥) عائد المريض تغمره الرحمة، فمن عاد مريضًا كان كمن يخوض في الرحمة، وينغمس فيها، وفي هذا إشارة لفضيلة هذه الطاعة والقربة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ يَخُوضُ فِي الرَّحْمَةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ اغْتَمَسَ فِيهَا**» «صحيح» رواه أحمد وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة وغيرهم[(٣)].

٦) ومن ثمار وفوائد زيارة المريض: أن الزائر يدعو له مَلَك من الملائكة بطيب العيش في الدنيا والآخرة، الذي يدعو لك مَلَك من الملائكة المعصومين، ومع هذا الدعاء المنزلة الرفيعة والعظيمة في الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) الطبراني في «الكبير» (٥٤)، و«صحيح ابن حبان» (٣٧٢)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٤٩٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٥٣٩)، و«مستدرك الحاكم» (٧٦٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٣٧٣)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٣٨٤).

(٢) «فيض القدير» (٤/ ٩٥).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٢٦٠) و«صحيح ابن حبان» (٢٩٥٦)، و«مستدرك الحاكم» (١٢٩٥) و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٠٨٣٤) وغيرهم، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان صحيح ابن حبان» (٢٩٤٥)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٥٠٤)، و«المشكاة» (١٥٨١).

ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلًا» «حسن» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه(١).

٧) ومن ثمار وفوائد زيارة المريض قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟...» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه(٢).

السابع عشر: أربع ثمار لصلة الأرحام لا يعلمها كثير من الناس

قلت: دعت آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ إلى صلة الرحم، ورغّبت فيها أعظم الترغيب، وكان الترغيب دينيًّا ودنيويًّا، ولا شك أن المجتمع الذي يحرص أفراده على التواصل والتراحم يكون حصنًا منيعًا، وقلعة صامدة، وينشأ عن ذلك أسر متماسكة، وبناء اجتماعي متين، يمد العالم بالقادة والموجِّهين والمفكِّرين والمعلِّمين والدُّعاة والمصلحين الذين يحملون مشاعل الهداية ومصابيح النور إلى أبناء أمّتهم وإلى الناس أجمعين.

ولصلة الرحم ثمار كثيرة منها:

(١) أنها سبب للبركة في الرزق والعمر: كل الناس يحبون أن يوسع لهم في الرزق، ويؤخر لهم في آجالهم؛ لأن حب التملك وحب البقاء غريزتان من الغرائز الثابتة في نفس الإنسان، فمن أراد ذلك فعليه بصلة أرحامه، كما تقدم في حديث أنس

(١) «مسند أحمد» (٨٥٣٦)، و«سنن الترمذي» (٢٠٠٨)، و«سنن ابن ماجه» (١٤٤٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٠٨)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٤٣)، و«صحيح الجامع» (٦٣٨٧)، و«المشكاة» (٥٠١٥).

(٢) مسلم (٢٥٦٩).

بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١).

(٢) صلة الرحم من الإيمان: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**» رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

أمور ثلاثة تحقق التعاون والمحبة بين الناس وهي: إكرام الضيف، وصلة الرحم، والكلمة الطيبة، وقد ربط الرسول ﷺ هذه الأمور بالإيمان، فالذي يؤمن بالله واليوم الآخر لا يقطع رحمه، وصلة الرحم علامة على الإيمان.

(٣) صلة الرحم سبب لصلة الله تبارك وتعالى لك: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**» رواه مسلم(٣).

وقد استجاب الله الكريم سبحانه لها، فمن وصل أرحامه وصله الله بالخير والإحسان، ومن قطع رحمه تعرّض إلى قطع الله إياه، وإنه لأمر تنخلع له القلوب أن يقطع جبار السموات والأرض عبدًا ضعيفًا فقيرًا.

(٤) صلة الرحم من أسباب دخول الجنة: قال النبي ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**» «صحيح» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤).

---

(١) البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٢) البخاري (٦١٣٨).

(٣) مسلم (٢٥٥٥).

(٤) «مسند أحمد» (٢٣٧٨٤)، و«سنن الترمذي» (٢٤٨٥)، و«سنن ابن ماجه» (٣٢٥١)، و«مستدرك =

الثامن عشر: الدال على الخير كفاعله من غير تعب ولا مشقة

الدليل: قوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه[١].

وقوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» رواه مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه [٢].

فمن دلَّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله، ومعناه أن من دلَّ غيره على فعل حسنٍ فله أجر الدلالة، وله ثواب يُشبه ثواب الفاعل، فكل من دل الناس إلى التوحيد والسُّنَّة والعلم النافع، أو من أعان على عمل صالح، أو كان سببًا فيه، أو دل عليه، ينال مثل أجر فاعله، مثل إعانة الحاج بالمال، أو تفطير الصائمين، أو توزيع الكتب النافعة، أو الأشرطة الدينية، أو المصاحف، أو دل على محاضرة، أو درس، أو حفظ قرآن، أو بناء مسجد، أو حفر بئر، أو أي عمل من أعمال الخير فله مثل أجر فاعله، فكن دلالًا إلى كل فضيلة، ومحذرًا من كل رذيلة، فهذه فرصة، والحياة فرص.

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: «قوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»، فإن بدلالته ونيته نزل منزلة الفاعل، ومثله: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ

=

الحاكم» (٧٢٧٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٨٥)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣٤)، و«صحيح الجامع» (٧٨٦٥)، و«السلسلة الصحيحة» (٥٦٩).

(١) مسلم (١٨٩٣).

(٢) مسلم (١٠١٧).

(٣) «طريق الهجرتين» (ص:٣٦٠).

الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه[(١)]، لأجل نيته واقتران مقدورها بها من الدعوة».

التاسع عشر: إعلام الأنام بفضل الصلاة على النبي عليه السلام

ذكر ابن القيم رحمه الله سبعة وثلاثين ثمرة من ثمار الصلاة على النبي ﷺ فيها خيري الدنيا والآخرة

قال ابن القيم رحمه الله[(٢)]:

«الْفَوَائِد والثمرات الْحَاصِلَة بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ:

- الأولى: امْتِثَال أَمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].
- الثَّانِيَة: مُوَافَقَته سُبْحَانَهُ فِي الصَّلَاة عَلَيْهِ ﷺ وَإِن اخْتلفت الصَّلَاتَان، فصلاتنا عَلَيْهِ دُعَاء وسؤال، وَصَلَاة الله تَعَالَى عَلَيْهِ ثَنَاء وتشريف.
- الثَّالِثَة: مُوَافقَة مَلَائكَته فِيهَا.
- الرابعة: حُصُول عشر صلوَات من الله على الْمُصَلِّي مرّة.
- الْخَامِسَة: أَنه يرفع عشر دَرَجَات.
- السَّادِسَة: أَنه يكْتب لَهُ عشر حَسَنَات.
- السَّابِعَة: أَنه يمحى عَنهُ عشر سيئات.
- الثَّامِنَة: أَنه يُرْجَى إِجَابَة دُعَائِهِ إِذا قدمهَا أَمَامه، فَهِيَ تصاعد الدُّعَاء إِلَى رب الْعَالمين.
- التَّاسِعَة: أَنَّهَا سَبَب لشفاعته ﷺ إِذا قرنها بسؤال الْوَسِيلَة لَهُ أَو أفردها.

---

(١) مسلم (٢٦٧٤).

(٢) «جلاء الأفهام» (ص:٤٤٥-٤٥٤).

- الْعَاشِرَة: أَنَّهَا سَبَب لغفران الذُّنُوب.
- الْحَادِيَة عشرَة: أَنَّهَا سَبَب لكفاية الله العَبْد مَا أهمه.
- الثَّانِيَة عشرَة: أَنَّهَا سَبَب لقرب العَبْد مِنْهُ ﷺ يَوْم الْقِيَامَة.
- الثَّالِثَة عشرَة: أَنَّهَا تقوم مقَام الصَّدَقَة لِذي الْعسرَة.
- الرَّابِعَة عشرَة: أَنَّهَا سَبَب لقَضَاء الْحَوَائِج.
- الْخَامِسَة عشرَة: أَنَّهَا سَبَب لصَلَاة الله على الْمُصَلِّي، وَصَلَاة مَلَائكَته عَلَيْهِ.
- السَّادِسَة عشرَة: أَنَّهَا زَكَاة للْمُصَلِّي وطهارة لَهُ.
- السَّابِعَة عشرَة: أَنَّهَا سَبَب لتبشير العَبْد بِالْجنَّةِ قبل مَوته.
- الثَّامِنَة عشرَة: أَنَّهَا سَبَب للنجاة من أهوال يَوْم الْقِيَامَة.
- التَّاسِعَة عشرَة: أَنَّهَا سَبَب لرد النَّبِي ﷺ الصَّلَاة وَالسَّلَام على الْمُصَلِّي وَالْمُسَلِّم عَلَيْهِ.
- الْعشْرُونَ: أَنَّهَا سَبَب لطيب الْمجْلس، وَأَن لا يعود حسرة على أَهله يَوْم الْقِيَامَة.
- الْحَادِيَة وَالْعشْرُونَ: أَنَّهَا سَبَب لنفي الْفقر.
- الثَّانِيَة وَالْعشْرُونَ: أَنَّهَا تَنْفِي عَن العَبْد اسْم الْبُخْل إِذا صلّى عَلَيْهِ عِنْد ذكره ﷺ.
- الثَّالِثَة وَالْعشْرُونَ: أَنَّهَا ترمي صَاحبهَا على طَرِيق الْجنَّة، وتخطئ بتاركها عَن طريقها.
- الرَّابِعَة وَالْعشْرُونَ: أَنَّهَا تنجي من نَتن الْمجْلس الَّذِي لا يذكر فِيهِ الله وَرَسُوله ويحمد ويثنى عَلَيْهِ فِيهِ وَيصلّى على رَسُوله ﷺ.
- الْخَامِسَة وَالْعشْرُونَ: أَنَّهَا سَبَب لتَمام الْكَلَام الَّذِي ابتدئ بِحَمْد الله وَالصَّلَاة على رَسُوله.
- السَّادِسَة وَالْعشْرُونَ: أَنَّهَا سَبَب لوفور نور العَبْد على الصِّرَاط.

- السَّابِعَة وَالْعِشْرُونَ: أَنه يخرج بهَا العَبْد عَن الْجفَاء.
- الثَّامِنَة وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهَا سَبَب لإبقاء الله سُبْحَانَهُ الثَّنَاء الْحسن للْمُصَلِّي عَلَيْهِ بَين أهل السَّمَاء وَالْأَرْض، لِأَن الْمُصَلِّي طَالب من الله أَن يثني على رَسُوله ويكرمه ويشرفه، وَالْجَزَاء من جنس الْعَمَل، فَلَا بُد أَن يحصل للْمُصَلِّي نوع من ذَلِك.
- التَّاسِعَة وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهَا سَبَب الْبركَة فِي ذَات الْمُصَلِّي وَعَمله وعمره وَأَسْبَاب مَصَالِحه؛ لِأَن الْمُصَلِّي دَاع ربه يُبَارك عَلَيْهِ وعَلى آله، وَهَذَا الدُّعَاء مستجاب، وَالْجَزَاء من جنسه.
- الثَّلَاثُونَ: أَنَّهَا سَبَب لنيل رَحْمَة الله لَهُ، لِأَن الرَّحْمَة إِمَّا بِمَعْنى الصَّلَاة كَمَا قَالَه طَائِفَة، وَإِمَّا من لوازمها وموجباتها على القَوْل الصَّحِيح، فَلَا بُد للْمُصَلِّي عَلَيْهِ من رَحْمَة تناله.
- الْحَادِيَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهَا سَبَب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وَذَلِكَ عقد من عُقُود الْإِيمَان الَّذِي لا يتم إِلَّا بِهِ؛ لِأَن العَبْد كلما أَكثر من ذكر المحبوب واستحضاره فِي قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضَاعف حبه وتزايد شوقه إِلَيْهِ وَاسْتولى على جَمِيع قلبه، وَإِذا أعرض عَن ذكره وإحضار محاسنه بِقَلْبِه نقص حبه من قلبه، وَلَا شَيْء أقرّ لعين الْمُحب من رُؤْيَة محبوبه، وَلَا أقرّ لِقَلْبِهِ من ذكره وإحضار محاسنه.
- الثَّانِيَة وَالثَّلَاثُونَ: أَن الصَّلَاة عَلَيْهِ ﷺ سَبَب لمحبته للْعَبد، فَإِنَّهَا إِذا كَانَت سَببًا لزِيَادَة محبَّة الْمصلى عَلَيْهِ لَهُ فَكَذَلِك هِيَ سَبَب لمحبته هُوَ للْمُصَلِّي عَلَيْهِ ﷺ.
- الثَّالِثَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهَا سَبَب لهداية العَبْد وحياة قلبه، فَإِنَّهُ كلما أَكثر الصَّلَاة عَلَيْهِ ﷺ وَذكره واستولت محبته على قلبه حَتَّى لا يبْقى فِي قلبه مُعَارضَة لشَيْء من أوامره وَلَا شكّ فِي شَيْء مِمَّا جَاءَ بِهِ بل يصير مَا جَاءَ بِهِ مَكْتُوبًا مسطورًا فِي قلبه لا يزَال يقْرَؤُهُ على تعاقب أَحْوَاله ويقتبس الْهدى والفلاح وأنواع الْعُلُوم مِنْهُ، وَكلما ازْدَادَ فِي ذَلِك بَصِيرَة وَقُوَّة وَمَعْرِفَة ازدادت صلَاته عَلَيْهِ ﷺ، وَلِهَذَا كَانَت صَلَاة أهل

الْعلم العارفين بسنّته وهديه المتّبعين لَهُ على خلاف صَلَاة الْعَوام عَلَيْهِ الَّذين حظهم مِنْهَا إزعاج أعضائهم بهَا ورفع أَصْوَاتهم.

● الرَّابِعَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهَا سَبَب لعرض اسْم الْمُصَلِّي عَلَيْهِ ﷺ وَذكره عِنْده، قال ﷺ: «...إِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» «صحيح» رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم عن أوس بن أوس رضي الله عنه[١].

وَقَال ﷺ: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ» «صحيح» رواه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[٢]، وَكفى بِالْعَبدِ نبْلًا أَن يذكر اسْمه بِالْخَيرِ بَين يَدي رَسُول الله ﷺ.

● الْخَامِسَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهَا سَبَب لتثبيت الْقدَم على الصِّرَاط وَالْجَوَاز عَلَيْهِ.

● السَّادِسَة وَالثَّلَاثُونَ: أَن الصَّلَاة عَلَيْهِ ﷺ أَدَاء لأَقل الْقَلِيل من حَقه، وشكر لَهُ على نعْمَته الَّتِي أنعم الله بهَا علينا، مَعَ أَن الَّذِي يسْتَحقّهُ من ذَلِك لا يُحْصى علمًا وَلَا قدرَة وَلَا إِرَادَة، وَلَكِن الله سُبْحَانَهُ لكرمه رَضِي من عباده باليسير من شكره وَأَدَاء حَقه.

● السَّابِعَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهَا متضمنة لذكر الله تَعَالَى وشكره وَمَعْرِفَة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلي عَلَيْهِ ﷺ قد تَضَمَّنت صلَاته عَلى ذكر الله وَذكر رَسُوله وسؤاله أَن يجْزِيه بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَهله كَمَا عرفنَا رَبنَا وأسماءه وَصِفَاته وهدانا إِلَى

---

(١) «مسند أحمد» (١٦١٦٢)، و«سنن أبي داود» (١٠٤٧)، و«سنن النسائي» (١٣٧٤) وغيرهم، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١٥٣١)، و«صحيح سنن النسائي» (١٣٧٤)، و«المشكاة» (١٣٦١)، و«صحيح الترغيب» (١٦٧٤).

(٢) «مسند أحمد» (٤٣٢٠)، و«سنن النسائي» (١٢٨٢)، و«صحيح ابن حبان» (٩١٤)، و«مستدرك الحاكم» (٣٥٧٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١٢٨٢)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٩١٠)، و«المشكاة» (٩٢٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٨٥٣).

طَرِيق مرضاته وعرفنا مالنا بعد الْوُصُول إِلَيْهِ والقدوم عَلَيْهِ، فَهِيَ متضمنة لكل الْإِيمَان، بل هِيَ متضمنة للإقرار بِوُجُوب الرب الْمَدْعُو وَعلمه وسَمعه وَقدرته وإرادته وحياته وَكَلَامه وإرسال رَسُوله وتصديقه فِي أخباره كلهَا وَكَمَال محبته، وَلَا ريب أَن هَذِه هِيَ أصُول الْإِيمَان، فَالصَّلَاة عَلَيْهِ ﷺ متضمنة لعلم العَبْد ذَلِك وتصديقه بِهِ ومحبته لَهُ، فَكَانَت من أفضل الأعمال.

العشرون: عظيم الأجر في قيام ليلة القدر

قال الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

وقال ﷺ: « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه[١].

قلت: قيام ليلة القدر أفضل عند الله من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، أي ثواب قيامها أفضل من ثواب العبادة لمدة ثلاث وثمانين سنة وثلاثة أشهر تقريبًا، ولو قمت ليلة القدر لمدة عشرين سنة تقريبًا فإنه يكتب لك بإذن الله ثواب يزيد على من عَبَدَ الله ألفًا وستمائة وستة وستين سنة (٣٣، ٨٣) في (٢٠) تساوي (٣٣، ١٦٦٦) سنة، فهذا عمرٌ بل أعمار كثيرة أضيفت إلى عمرك القصير، فما أكرم هذه الأمة على الله.

قال الرازي رحمه الله في تفسيره[٢]: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا عَبَدَ اللهَ تَعَالَى نَيِّفًا وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَمَنْ أَحْيَاهَا كُلَّ سَنَةٍ فَكَأَنَّهُ رُزِقَ أَعْمَارًا كَثِيرَةً».

---

(١) البخاري (١٩٠١).

(٢) «التفسير الكبير» (٣٢/ ٢٣٢).

الواحد والعشرون: حصول الأجر العظيم في قراءة القرآن الكريم

ففي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (١٩) حرفًا، بـ (١٩٠) حسنة!

قلت: لا تنس أخي الحبيب أن كل حرف تنطقه عند قراءة القرآن الكريم بحسنة، وتكتب عشر حسنات!

ففي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ مثلًا (١٩) حرفًا، تحسب بـ (١٩٠) حسنة!

فقط عند البسملة (١٩٠) حسنة، فكيف بالآيات، والتكرار التلقائي مع الحفظ وبعد الحفظ والمراجعة؟

«حقًّا فرصة العمر»، لأن بعض الموازين يوم الحساب قد لا تحتاج إلا لحسنة واحدة، لترجح كفة حسناتها على كفة سيئاتها، فينفتح الطريق بفضل الله ورحمته إلى الجنة!

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْف ولامٌ حَرْفٌ وَميمٌ حَرْفٌ»** «صحيح» رواه البخاري في «التاريخ» والترمذي وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

فإذا كان عدد أحرف القرآن الكريم (٣٤٠٧٤٠) حرفًا تقريبًا، فسوف تحصل على أجر عظيم إذا ختمت القرآن لمرة واحدة، فكل حرف بحسنة والحسنة بعشر أمثالها، وهذا يعنى أنك سوف تحصل على أجر (٣٤٠٧٤٠) في (١٠) تساوي (٣٤٠٧٤٠٠) ثلاثة ملايين وأربعمائة وسبعة آلاف وأربعمائة حسنة، وهذا لختمة واحدة فقط فكيف بك إذا ختمته في كل شهر مرة، وهذا يعنى أنك ستختم القرآن اثني عشرة مرة في العام، ويعنى ذلك أنك سوف تنال من الأجر بإذن الله:

---

(١) البخاري في «التاريخ» (٦٧٩)، و«سنن الترمذي» (٢٩١٠)، وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٩١٠)، و«صحيح الجامع» (٦٤٦٩)، و«المشكاة» (٢١٣٧).

(٣٤٠٧٤٠٠) في (١٢) تساوي(٤٠٨٨٨٨٠٠) أربعون مليونًا وثمانمائة وثمانية وثمانون ألف وثمانمائة حسنة.

وبعد أن علمت الأجر العظيم، فيا ترى كم سيكون نصيب القرآن من وقتك؟

فلو أعطيت وقت الجوال فقط للقرآن لكنت من الفائزين.

قال أحدهم: كنت أقول: كيف كان السلف يعكفون على القرآن طويلًا بلا كلل أو ملل؟

فلما رأيت العاكفين على الجوال زال العجب، وعلمت أن القلب إذا أحب شيئًا عكف عليه.

فاعكف على القرآن فإنه يسبقك إلى قبرك، والجوال أول ما يسحب منك عند موتك.

الثاني والعشرون: الأجر الموثوق لمن قال دعاء دخول السوق

[كتب الله له مليون حسنة، وحط عنه مليون سيئة، ورفع له مليون درجة، وبنى له بيتًا في الجنة]

الدليل: قوله ﷺ: «**مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفَ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفَ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفَ دَرَجَةٍ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**» «حسن» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[(١)].

---

(١) «مسند أحمد» (٣٢٧)، و«سنن الترمذي» (٣٤٢٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢٢٣٥)، و«مستدرك الحاكم» (١٩٧٤)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٤٢٨)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٣٥)، و«صحيح الجامع» (٦٢٣١)، و«الكلم الطيب» (٢٣٠)، وللفائدة انظر رسالة «القول الموثوق في تصحيح حديث السوق».

قد يقول قائل: ماهي الأسباب التي جعلت دعاء السوق مضاعفًا؟

والجواب: ما جاء في ذم الأسواق، فإن الأحاديث والآثار الصحيحة الواردة في ذم الأسواق ثابتة في كتب السنة الصحيحة، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا**» رواه مسلم(١).

قال النووي رحمه الله (٢): «لأنها محل الغش، والخداع، والربا، والأيمان الكاذبة، وإخلاف الوعد، والإعراض عن ذكر الله، وغير ذلك مما في معناه، والمساجد محل نزول الرحمة، والأسواق ضدها».

وقال ابن بطال رحمه الله (٣): «والأسواق قد غلب عليها اللغط واللهو والاشتغال بجمع المال، والكَلَب على الدنيا من الوجه المباح وغيره، ولذلك كان ذكر الله في السوق من أفضل الأعمال».

وقال القرطبي رحمه الله (٤): «في هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان، وهكذا قال علماؤنا، لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر كره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين، تنزيهًا لهم عن البقاع التي يعصى الله فيها، فحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته».

قلت: ومن الأسباب التي جعلت دعاء دخول السوق مضاعفًا: أن الناس في

---

(١) مسلم (٦٧١).
(٢) «شرح صحيح مسلم» (٥/ ١٧١) باختصار.
(٣) «شرح صحيح البخاري» (٦/ ٢٤٩).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٦).

السوق غافلون عن ذكر الله، والعبادة عند غفلة الناس لها مزية خاصة، لذلك قال ﷺ: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**» رواه مسلم عن معقل بن يسار رضي الله عنه[(١)]، لأن الناس في الهرج أي في أيام القتال والفتن غافلون عن الله وعن ذِكْره وعبادته، فعبادة الله في وقت الغفلة تشق على النفس، لأنه ليس هناك من تتأسى به، فالتأسي يسهل العمل ويعين عليه، ويسلي صاحبه، وأصعب ما يكون العمل عند عدم المُعِين، قال ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه[(٢)].

لماذا طوبى للغرباء؟

لأنه ليس لهم على الحق أعوان، وفي الحديث: «**إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»، **قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ أَوَ مِنْهُمْ؟ قَالَ**: «**بَلْ مِنْكُمْ**» «صحيح» رواه الطبراني وابن نصر عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه[(٣)].

لماذا له أجر خمسين من الصحابة؟

لأنه ليس معه معين إلا الله سبحانه وتعالى، فهو غريب يقوم بعبادة الله في غربته بدون معين أو مُذَكِّر أو مساعد أو مشجع له على الخير، لذلك استحق هذا الأجر العظيم[(٤)].

---

(١) مسلم (٢٩٤٨).

(٢) مسلم (١٤٥).

(٣) الطبراني في «الكبير» (٢٨٩)، وابن نصر في «السنة» (٣٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٤٩٤).

(٤) تنبيه: قال الشيخ عبدالعزيز الراجحي حفظه الله في «شرح عقيدة السلف وأصحاب الحديث»: «...ليس معنى ذلك: أنه أفضل من الصحابة؛ لأن الصحابة لهم مزية الصحبة ولا يلحقهم من بعدهم فيها، ولهم مزية الجهاد مع النبي ﷺ وتبليغ الدين، وهذه لا يلحقهم فيها من بعدهم إلى يوم القيامة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**تجدون على الخير عونًا، ولا يجدون على الخير عونًا**»، =

ومن فوائد عبادة الله في الغفلة أنها ملاذ من الفتن، ومخرج من البلايا والمحن، ونجاة من العقوبات، قال بعض السلف: «لولا من يذكر الله في غفلة الناس لهلك الناس».

وقد أحسن من قال:

لَـــوْلَا أُنَـــاسٌ لَهُـــمْ وِرْدٌ يَقُومُونَـــا ... وَآخَـــرُونَ لَهُـــمْ سَـــرْدٌ يَصُـــومُونَا

لَدَكْـدَكَتْ أَرْضُـكُمْ مِـنْ تَـحْـتِكُمْ سـحرًا ... فَـــإِنَّكُمْ قَـــوْمُ سَـــوْءٍ لا تُطِيعُونَـــا

الثالث والعشرون: التسبيح المضاعف فيه أجور تدهش العقول

عَنْ جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «**مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**»، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**» رواه مسلم[1].

قلت: إذا أردنا أن نعلم كم جلست أم المؤمنين جويرية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في مصلّاها لَقَدَّرْنا أنه من بعد صلاة الصبح حتى الظهيرة عند عودة النبي ﷺ، أي ما يقارب الخمس ساعات أو أزيد، ثم يخبرها النبي ﷺ بعد ذلك بكلماتٍ تزن ما قالته هي طوال هذه

=

والقاعدة عند أهل العلم تقول: إن المزية الخاصة لا تقضي على الفضائل العامة، وفضيلة التمسك فضيلة واحدة، لكن الصحابة لهم فضائل كثيرة، مثل مزية موسى أنه أول من يحشر يوم القيامة، ومع ذلك فنبينا ﷺ أفضل منه، قال النبي ﷺ: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من أفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، ولا أدري أفاق قبلي أم بعدي**»، وهذه منقبة خاصة لموسى والمناقب الخاصة لا تقضي على المناقب العامة، فليس معنى ذلك أنه أفضل من نبينا ﷺ».

(١) مسلم (٢٧٢٦).

المدة في الثواب والأجر، فلابد أن لهذه الكلمات شأنًا عظيمًا:

أولًا: كلمة «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» وردت في فضلها أحاديث كثيرة منها:

قوله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ**» «صحيح» رواه الترمذي وابن حبان والحاكم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما[(٢)]

وسُئِلَ رسول الله ﷺ: أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه[(٣)].

ثانيًا: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ**» فكأنك تقولها بعدد خلق الله، هذا العدد الذي لا يحصيه بشر، فخلق الله لا يحصى من حيث النوع، فهناك الإنس، والجن، والملائكة، والحيوانات بأنواعها المختلفة، والكائنات البحرية، والطيور وعالمها، والمطر، والرعد، والبرق، وسحب السماء ونجومها، وجبال الأرض وسهولها ورملها وترابها وما لا يحصى من الخلق، وتحت كل نوع عدد لا يحصيه بشر، فكم عدد البشر من أول آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، ونحن الأحياء الآن بالمليارات فكم يكون عددهم؟ وكم يكون عدد الملائكة الذين يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور في السماء لا يرجعون إليه إلى قيام الساعة؟ وكم عدد الجن وبقية المخلوقات من كواكب ونجوم ومجرّات لا نعلم عنها شيئًا؟

(١) البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) «سنن الترمذي» (٣٤٦٤)، و«صحيح ابن حبان» (٨٢٦)، و«مستدرك الحاكم» (١٨٨٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣٤٦٤)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٨٢٣)، و«صحيح الجامع» (٦٤٢٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٦٤).

(٣) مسلم (٢٧٣١).

كل هذا العدد يدرج في قول «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ**»، فلك بعدد هذه المخلوقات حسنات.

ثالثًا: قوله: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، رِضَا نَفْسِهِ**» أي أبلغ به رضا الله ﷻ، كما يقول أهل البلاغة: الأسلوب خبري اللفظ، إنشائي المعنى، الغرض منه الدعاء.

فأنت تسبح الله وتحمده، وفي نفس الوقت تدعو الله أن يبلغك ذِكْرك، هذا رضاه ﷻ.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم[1] **عن أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في آخر حديث رؤية الله ﷻ يوم القيامة: «...**هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**».

رابعًا: قوله: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ زِنَةَ عَرْشِهِ**» أي يكون وزنها في وزن عرش الله ﷻ، والعرش كما قال رسول الله ﷺ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ**» «صحيح لغيره» **رواه ابن جرير عن أبي ذر** رضي الله عنه[2].

هذا هو العرش فما بالكم بحملة العرش، قال رسول الله ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**» «**صحيح**» **رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما[3].

---

(١) مسلم (١٨٣).

(٢) «تفسير ابن جرير» (٥/ ٣٩٩)، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٧٢٧)، و«السلسلة الصحيحة» (١٥١)، و«صحيح الجامع» (٨٥٤)، و«المشكاة» (٥٧٢٨).

فكم يكون وزن العرش؟! وكم يبلغ وزن «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ زِنَةَ عَرْشِهِ**»؟!

خامسًا: قوله: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ**» وكأن قولك يحتاج لمداد كمداد كلمات الله حتى يكتب، ومعلوم أن مداد كلمات الله يفوق البحار والمحيطات ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومن الأحاديث المضاعفة: حديث أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟» قُلْتُ: أَذْكُرُ اللهَ، قَالَ: «أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِكَ اللهَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ؟ تَقُولُ: الْحَمْدُ لِلهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتُسَبِّحُ اللهَ مِثْلَهُنَّ»، ثُمَّ قَالَ: «تُعَلِّمُهُنَّ عَقِبَكَ مِنْ بَعْدَكَ» «صحيح» رواه الطبراني[(١)].

ويبقى شيء مهم وهو ألَّا نفتر عن ذكر الله، وأن نستشعر المعاني الإيمانية ونتفكر في الأذكار التي نرددها، وأن نصدق النية مع الله في كل شيء.

الرابع والعشرون: الذكر بأحب الكلام إلى الله

[فمائة تسبيحه كعتق مائة رقبة من ولد إسماعيل. ومائة تحميده تعدل أجر مائة فرس في سبيل الله. ومائة تكبيره تعدل مائة بدنة في سبيل الله. ومائة تهليله تملأ ما بين السماء والأرض]

الدليل: قوله ﷺ: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ**

(١) الطبراني في «الكبير» (٧٩٣٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٢٦١٥).

إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ» رواه مسلم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه[(١)].

وعَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنها قَالَتْ: مَرَّ بِي ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ، أَوْ كَمَا قَالَتْ، فَمُرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ وَأَنَا جَالِسَةٌ، قَالَ: «سَبِّحِي اللهَ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقِينَهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاحْمَدِي اللهَ مِائَةَ تَحْمِيدَةٍ، تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ، تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَبِّرِي اللهَ مِائَةَ تَكْبِيرَةٍ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ، وَهَلِّلِي اللهَ مِائَةَ تَهْلِيلَةٍ»، قَالَ ابْنُ خَلَفٍ: أَحْسِبُهُ قَالَ: «تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يُرْفَعُ يَوْمَئِذٍ لِأَحَدٍ مِثْلُ عَمَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ مَا أَتَيْتِ بِهِ» «حسن» رواه أحمد والبيهقي[(٢)].

ولهذه الكلمات الأربع فضائل كثيرة غير ما ذكرت في الباب، من ذلك:

أولًا: أنّها خير من الدّنيا وما فيها.

ثانيًا: أنّها أحبّ الكلام إلى الله تعالى.

ثالثًا: أنّها غِراس الجنّة، فكلّ له رزقُه في الجنّة على قدرِ تسبيحِه وحمدِه وتكبيرِه وتهليلِه.

رابعًا: أنّها تعدل الإنفاق في الأعمال العظام كما في هذا الحديث.

معنى الحديث:

قولها: «فمُرْني بعمل أعمله وأنا جالسة»: فيه علوّ همّة النّساء العجائز، إذ لم تترك العمل الصّالح محتجّةً بعجْزها، بل سألت عمّا يقوم مقام ذلك.

---

(١) مسلم (٢١٣٧).

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٩١١)، البيهقي في «الشعب» (٦١٢)، وحسنه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١٣١٦).

قوله: «**سَبِّحِي اللهَ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ**» أي قولي: سبحان الله مائة مرّة.

«**فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ رَقَبَةٍ**» أي: لك أجر من أعتق مائة إنسان من ولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ!

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ[١]: «وهذا تتميم ومبالغة في معنى العتق، لأنّ فكّ الرّقبة أعظم مطلوب، وكونه من عنصر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ الّذي هو أشرف النّاس نسبًا أعظم وأمثل».

قوله: «**وَاحْمَدِي اللهَ مِائَةَ تَحْمِيدَةٍ**» أي: قولي: الحمد لله مائة مرّة.

«**فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ**» أي: لك أجر من جهّز وحمل مائةً من الغزاة لقتال أعداء الله من الكفار!

ولا يخفَى أجر من جهّز غازيًا، فقد روى البخاري ومسلم[٢] عن زيدِ بنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا**».

وفي رواية ابن ماجه[٣]: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْغَازِي شَيْئًا**» «صحيح».

قوله: «**وَكَبِّرِي اللهَ مِائَةَ تَكْبِيرَةٍ**» أي: قولي: اللهُ أكبر مائة مرّةٍ.

«**فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ بَدَنَةٍ**» أي: مائة ناقة.

«**مُقَلَّدَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ**» أي: أهديتها، لأنّ تقليد النّاقة لا يكون إلاّ في الهدي إلى بيت الحرام، لذلك يقال: تقليد الهدي، والهدي هو ما يُهدى إلى الكعبة من النعم لتنحر وتوزع على فقراء مكة، وتقليده بأن يوضع على رقابها شيء كالقلادة من لحاء الشّجرة أو الصّوف ونحو ذلك، ليعلم أنّها هدي فلا يأكل منه إلاّ أهل الحرم، ولكن

---

(١) «فيض القدير» (٤/ ٨٧).

(٢) البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٧٥٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٧٥٩)، و«صحيح الجامع» (٦١٩٤)، و«صحيح الترغيب» (١٠٧٨).

كم من مُهدٍ وهو غير متقبّل منه، أما هنا في هذا الحديث فقد قال ﷺ: «**مُتَقَبَّلَة**».

قوله: «**وهلّلي الله مائة تهليلة**» أي: قولي: لا إله إلاّ الله مائة مرّة.

والعرب إذا كثُر استعمالهم لكلمتين ضمّوا بعض حروف إحداهما إلى بعض حروف الأخرى، وهو ما يُسمّى بالنّحت، كالحوقلة والبسملة.

قوله: «**فَإِنَّهَا تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**» يعني أنّ ثوابها يملأ ذلك الفضاء بين السماء والأرض.

قوله: «**وَلَا يُرْفَعُ يَوْمَئِذٍ لِأَحَدٍ عَمَلٌ أَفْضَلُ مِنْهَا**» أي: أكثر ثوابًا.

قوله «**إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَ إِنْسَانٌ بِمِثْلِ مَا أَتَيْتِ بِهِ**» فإنّه يرفع له مثله.

وقد ذهب أهل العلم كالنّووي رحمه الله وغيره إلى أنّ الأفضل الإتيان بهذه الأذكار ونحوها متتابعة في وقت واحد.

الخامس والعشرون: ألف حسنة أجر مائة تسبيحة، أو يحط عنك ألف خطيئة

قال ﷺ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» **فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ:** «**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ**» رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه[(١)].

قلت: الله أكبر، ألف حسنه في دقيقتين تقريبًا، ما أعظم فضله سبحانه، جعل الأجر العظيم على العمل اليسير ألف حسنه.

إخواني، الأجر عظيم والعمل يسير فاحرصوا على نيله.

---

(١) مسلم (٢٦٩٨).

ألف حسنة، والحسنة بعشر حسنات، أي: عشرة آلاف حسنة في دقيقتين، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ...**» متفق عليه[١].

فَذِكْرُ مائة تسبيحة لا تكلف قائلها أدنى جهد، ولا تأخذ من وقته إلا دقيقتين تقريبًا.

فهل يعقل إخواني أن تضيق علينا الأربع والعشرون ساعة ولا نجد فيها دقيقتين؟ إن كان ذلك كذلك فو الله إنها لخسارة وغفلة عظيمة.

السادس والعشرون: مليارات الحسنات لمن استغفر للمؤمنين والمؤمنات.

هل تريد مليارات من الحسنات في ثوانٍ؟

قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً**» «حسن» رواه الطبراني عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

فكم يا ترى عدد المؤمنين والمؤمنات منذ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قيام الساعة؟

كم الأولياء والشهداء؟ كم الدعاة والعلماء؟ كم الصالحون والأخيار؟ كم عدد الأحياء؟ وكم عدد الأموات؟...إلخ.

---

(١) البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) الطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٥٥)، وحسنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦).

السابع والعشرون: صيام النوافل سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات

(١) صوم يوم عرفة يكفر سنتين

الدليل: ما جاء عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة فقال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ»، قَالَ: وسُئِلَ عن صوم يوم عاشوراء فقال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ» رواه مسلم[1].

فضل صوم يوم عرفة: يُكَفِّرُ السنة الماضية والباقية:

يوم عرفة من أعظم الأيام في السَّنَة عند المسلمين، فهو من الأيام التي خُصَّتْ بالكثير من الفضائل والبركات، وهو من أيام شهر ذي الحجة، حيث يوافق اليوم التاسع منه، ويؤدي حجاج بيت الله الحرام في هذا اليوم أحد أهم مناسك الحج، وهو الوقوف بعرفة، فيقفون في عرفات، في هذا اليوم العظيم، ويعتبر وقوفهم هذا ركنًا من أركان الحج، وقد عَظَّمَ الله قدر هذا اليوم، فهو اليوم الذي اكتمل فيه الدين، وتمت فيه نعمة الله على هذه الأمّة، ففي هذا اليوم أنزل الله تبارك وتعالى على رسوله الكريم هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقد أخرج الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما[2]: «أن اليهود جاءت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقالوا له: إنكم تقرؤون آيةً لو أنزلت فينا نحن معشر يهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا - وأشاروا للآية المذكورة سابقًا - فقال لهم عمر رضي الله عنه: إني لأعلم حيث أُنْزِلَت، وأي يوم أُنْزِلَت، وأين رسول الله ﷺ حيث أُنْزِلَت، أُنْزِلَت بعرفة، ورسول الله ﷺ واقفٌ بعرفة».

---

(١) مسلم (١١٦٢).

(٢) البخاري (٤٦٠٦)، ومسلم (٣٠١٧).

ويوم عرفة هو من الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة التي يستحب فيها الإكثار من الأعمال الصالحة، حيث تكون الأعمال الصالحة في هذه الأيام أحب إلى الله وأعظم أجرًا من غيرها من الأيام، ومن تلك الأعمال الصالحة: صيام يوم عرفة وهو مستحب لغير الحاج، وأما الحاج فلا يستحب له أن يصوم هذا اليوم، لأن الرسول ﷺ قد أفطر فيه عندما كان حاجًّا، ولعل الحكمة من سُنَّة الإفطار في هذا اليوم للحاج هي أن الحاج يحتاج في هذا اليوم إلى ما يتقوى به على العبادة وأداء هذا الركن العظيم من أركان الحج، وفي صيام هذا اليوم بالنسبة لغير الحاج أجر كبير، حيث ثبت عن رسول الله ﷺ قوله: «**صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ**» رواه مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه[(١)].

فصيام هذا اليوم هو من مكفرات الذنوب التي يجب على المسلم أن يستغلها.

(٢) صوم يوم عاشوراء يكفر سنة

فضل صوم يوم عاشوراء: يُكَفِّرُ السنة الماضية.

فلنحرص على صومه لعل اللهَ يُكفِّر عنَّا ما حدث منّا من تقصير وزلل في السَّنَة الماضية، وليكون لنا باب خير نفتتح به عامنا الجديد، فقد روى الإمام البخاري رحمه الله[(٢)] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَرَّى صِيَامَ يَوْمٍ فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَهَذَا الشَّهْرَ يَعْنِي شَهْرَ رَمَضَانَ.

وهذا دليل على فضل هذا اليوم، لأن قول ابن عباس رضي الله عنهما: يَتَحَرَّى، - أي: يقصد صومه لتحصيل ثوابه والرغبة فيه - .

فهذا عمل المُصطفى ﷺ، وقد غَفَرَ اللهُ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فَحَرِيٌّ بك

(١) المرجع السابق.
(٢) البخاري (٢٠٠٦).

أيها المُسلم مُتابعة نبيِّك ﷺ ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

(٣) صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر نفلًا.

صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر نفلًا.

لقوله ﷺ: «صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ، أَيَّامُ الْبِيضِ صَبِيحَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ» «حسن» رواه النسائي وأبو يعلى والبيهقي عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه[(١)].

فصيام ثلاثة أيام من كل شهر مستحب، لقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «صُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ» متفق عليه[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيِ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ». متفق عليه[(٣)].

ويستحب أن تكون الأيام البيض، وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر على رأي الجمهور[(٤)]، لحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صُمْتَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَصُمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ» «صحيح» رواه الترمذي والنسائي[(٥)].

---

(١) «سنن النسائي» (٢٤٢٠)، و«مسند أبي يعلى» (٧٥٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٥٧٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢٤٢٠)، و«صحيح الجامع» (٣٨٤٩)، و«صحيح الترغيب» (١٠٤٠).

(٢) البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

(٣) البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٧٢١).

(٤) انظر «المجموع» للنووي (٦/ ٣٨٥).

(٥) «سنن الترمذي» (٧٦١)، و«سنن النسائي» (٢٤٢٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن =

(٤) صيام ستة أيام من شوال بعد صيام شهر رمضان كصيام الدهر فرضاً.

صيام الست من شوال كصيام الدهر فرضًا[١]:

الدليل: قوله ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**» رواه مسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه[٢].

وعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه - مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ - عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ صَامَ سِتَّةَ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ كَانَ تَمَامَ السَّنَةِ، مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**» «صحيح» رواه ابن ماجه[٣].

فبيَّن النبي ﷺ أن المقصود بالحديث هو مضاعفة الحسنات إلى عشر أمثالها، فصيام رمضان بعشرة أشهر، لأن اليوم بعشرة أيام، وستة أيام من شوال بستين يومًا، فتكون قد اكتملت السَّنَة.

وهنالك فرق بين أجر صيام الدهر الوارد في حديث الست من شوال، وحديث «**صوْمُ ثلاثَةِ أَيَّامٍ منْ كلِّ شَهرٍ صوْمُ الدهْرِ كُلِّهُ**» متفق عليه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما[٤].

وهو أن أجر الأول: هو أجر الفرض المضاعف، بمعنى أن له أجر صيام رمضان في العام كله.

=

الترمذي» (٦٠٨)، و«صحيح سنن النسائي» (٢٤٢٤)، و«المشكاة» (٢٠٥٧) و«الإرواء» (٩٤٧)، و«صحيح الجامع» (٧٨١٧).

(١) انظر «لطائف المعارف» لابن رجب (٣٤و٢٢٠).

(٢) مسلم (١١٦٤).

(٣) «سنن ابن ماجه» (١٧١٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٤٠٢)، و«صحيح الترغيب» (١٠٠٧)، و«صحيح الجامع» (٦٣٢٨).

(٤) البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (١١٦٢).

وأجر الثاني: هو أجر النافلة المضاعف، بمعنى أن له أجر صيام نافلة في العام كله[(١)].

الثامن والعشرون: هل تريد أن تكتب لك براءة من النار وبراءة من النفاق؟

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى للهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الأُولَى كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**» «حسن» رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه[(٢)].

قلت: لاشك أن أرفع غنيمةٍ وأفضل جائزةٍ ينالها الإنسان في حياته هي الفوز والظفر بالجنة، والنجاة والبراءة من النّار، يقول الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فكم من أناسٍ يسعون في حياتهم لتبرئة أنفسهم وعتقها من أسباب الخسارة المادية والاجتماعية وغيرها، وينسون أن يلزموا أنفسهم سُبل تخليصها من النار؛ هذه السبل الواضحة التي أرشدنا ووجّهنا إليها الرسول الكريم ﷺ، والتي منها ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله: ﷺ «**مَنْ صَلَّى لِلهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الأُولَى كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**» «حسن» رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه[(٣)].

---

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب (٣٤و٢٢٠).

(٢) «سنن الترمذي» (٢٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٠)، و«صحيح الجامع» (٦٣٦٥)، و«صحيح الترغيب» (٤٠٩).

(٣) نفس المرجع.

شرح الحديث:

يقول النبي ﷺ موجّهًا ومرغّبًا أمته «**مَنْ صَلَّى لِلَّهِ**» أي: خالصًا لله وابتغاء مرضاته.

قوله: «**أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ**» أي متتالية دون انقطاع في جماعة، وهذا العدد مقصودٌ غالبًا، إذ أن المرء إذا وصل إليه في المواظبة على العبادة، كانت له العبادة بعد ذلك سهلة فلا تشقُّ عليه.

قوله: «**يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى**» أي يكبّر التكبيرة التحريمية مع الإمام.

يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إِدْرَاكُ الْتَكْبِيْرَة الأُولَى سُنَّة مُؤَكَّدَة، وَكَانَ السَّلَفُ إِذَا فَاتَتْهُمْ عَزَّوْا أَنْفُسَهُمْ ثَلاثَةَ أَيَّام، وَإِذَا فَاتَتْهُمُ الْجَمَاعَةُ عَزَّوْا أَنْفُسَهُمْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ».

قوله: «**كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنْ النَّارِ**» أي: خلاصٌ ونجاةٌ من النار وعذابها.

قوله: «**وَبَرَاءَةٌ مِنْ النِّفَاقِ**» أي: يُنفى عنه وصف النفاق.

يقول الإمام الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أَيْ: يُؤَمِّنُهُ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَ الْمُنَافِقِ وَيُوَفِّقُهُ لِعَمَلِ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، وَفِي الْآخِرَةِ يُؤَمِّنُهُ مِمَّا يُعَذَّبُ بِهِ الْمُنَافِقُ وَيَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُنَافِقٍ يَعْنِي: بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى، وَحَالُ هَذَا بِخِلَافِهِمْ».

حرص السلف على إدراك تكبيرة الإحرام

ورد عن سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- آثار كثيرة تؤكد حرصهم ومواظبتهم على إدراك تكبيرة الإحرام، ومن ذلك ما رُوي عن سعيد بن الْمُسَيِّب رَحِمَهُ اللَّهُ قوله[3]:

---

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٣/ ٨٨٠).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «حلية الأولياء» (٢/ ١٦٣).

«مَا فَاتَتْنِي التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً، وَمَا نَظَرْتُ فِي قَفَا رَجُلٍ فِي الصَّلَاةِ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً».

وعن وكيع رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كَانَ الْأَعْمَشُ قَرِيبًا مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً لَمْ تَفُتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى، وَاخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ قَرِيبًا مِنْ سَنَتَيْنِ فَمَا رَأَيْتُهُ يَقْضِي رَكْعَةً»[(١)].

وعن إبراهيم النخع رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ»[(٢)].

وَعَنْ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ وَكِيعًا يَقُولُ: «مَنْ لَمْ يُدْرِكِ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى فَلَا تَرْجُ خَيْرَهُ»[(٣)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمَنْقُولُ عَنْ السَّلَفِ فِي فَضْلِ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى آثَارٌ كَثِيرَةٌ»[(٤)].

وبعد هذه الجولة اليسيرة في ذكر نبذة مختارة من فضائل الأعمال، وهي فيض من غيض، وقليل من كثير، وقطرة من مطرة، من فضل الله وكرمه على عباده، ولو أردنا أن نستقصي فضائل الأعمال لبلغت مجلدات، وإنما هذه إشارة، والحر تكفيه الإشارة، والبليد ولا غِرَارَة[(٥)]، فالواجب علينا جميعًا أن نغتنم هذا الفضل العظيم والعطاء الجزيل وأن نسارع وننافس ونسابق في هذه التجارة المباركة مع الله سبحانه وتعالى.

---

(١) «مسند ابن الجعد» (٧٥٥).

(٢) «حلية الأولياء» (٤/ ٢١٥).

(٣) «شعب الإيمان» للبيهقي (٢٦٥٢).

(٤) «التلخيص الحبير» (٢/ ١٣١).

(٥) قال في معجم اللغة العربية المعاصرة: غرارة: مفرد، جمع: غرائر.
١) كيس من الخيش ونحوه تُوضع فيه الحبوبُ، جوالق يكون فيها القديد والكعك.
٢) كيلٌ كانوا يتعاملون به إلى عهد قريب، ويُعادل ثمانين مُدًّا.
وانظر «معجم اللغة العربية المعاصرة» (٢/ ١٦٠٥).

ما هو مشروعك في الحياة، فإن الحياة فرص؟؟

تأملتُ كثيرًا في سِيَرِ العظماء والناجحين من هذه الأمة، وقلَّبتُ فكري في صفحات التاريخ كثيرًا في تلمس سِر نبوغهم وسبب تفوقهم.

فخلصتُ إلى نتيجةٍ مذهلةٍ فَحْواها: أن **من أراد السطوع فليستغل الفرص وليكن لديه مشروع!!**

فطريقُ المجد يا صاحِ يبدأ بمشروعٍ ترسمه بـ(بنان) همتك، وتشق دروبه بـ(سنانِ) عزيمتك، وتغتنم كل فرصة سانحة لك، فالوصول إلى ألف ميل يبدأ بخطوة، والسيل يبدأ بقطرة.

إن الميلادَ الحقيقي للإنسان - كما يقول أحد النجباء - ليس تلك اللحظة التي يخرجُ صارخًا إلى الدنيا من رحم أمه..

كلّا وألف كلّا، بل يولد الإنسان في اللحظةِ التي يعثرُ فيها على مشروع يرفعه الله به في الدنيا والآخرة.

بعدها ينطلقُ في خوضِ خطيرات الأمور، ويركب ظهورَ العوائق، ويتخطى رقابَ الموانع ويهتبل كل فرصة من أجل إتمام مشروعه وتحقيق طموحه، وإن هذا لَعَمْرُ الله هو عينُ المجدِ وقمةُ النبوغ.

واعلم يا صاحبي: أنك إن لم تزدْ على الدنيا شيئًا تنفع به نفسك، وتنفع به أمتك، فأنت شخصًا زائدًا عليها، وإن لم تضفْ في الوجود جديدًا فأنت ضيف ثقيل فيها!!

إن مشروعك يا أخي يبدأُ من أحلامك التي تعيشها اليوم، لتكتبَ واقعك غدًا في طيّاتِ الأيام مع الناجحين، والنابغين، والعلماء، والمصلحين، وحسن أولئك رفيقًا.

إن عمرك الحقيقي ليس تلك الساعات والأيام التي قضيتها في تتبع لذات الطعام والشراب، أو أفنيتها في التمتع بشهواتِ اللعب، وإغراءاتِ اللهو ولم تستغل فرص الحياة.

لا، بل إن حياتك الحقيقية بحجم الأحداث والمشاريع التي تتركها في الأرض في حياتك وبعد موتك.

واعلم - رحمك الله - أن أكبر المشاريع هي مشاريع الأنبياء والمرسلين، فقد جاؤوا بمشروع ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فمشروع جميع الأنبياء والمرسلين دعوة الناس إلى توحيد رب العالمين، وإصلاح الدنيا والدين على صراط مستقيم.

ثم مشاريع العلماء والدعاة الصادقين الصالحين المصلحين فهم ورثة الأنبياء، فمشاريعهم هي مشاريع الأنبياء والمرسلين، دعوة الناس إلى توحيد رب العالمين وإصلاح الدنيا والدين على صراط مستقيم.

ومن هؤلاء العلماء:

- **الصحابي الجليل أُبَي بن كعب رضي الله عنه، كان من أهم مشاريعه في الحياة: حفظ وضبط كتاب الله**، فلم يزل عاكفًا على مشروعه، غارقًا في تفاصيله، يستغل كل **فرصة**، حتى بلغ المنزلة التي قال له رسول الله ﷺ فيها: «**لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**» رواه مسلم(١).
- **وكان مشروع أبي هريرة رضي الله عنه حفظ سنة رسول الله ﷺ**، فصار ذاكرة الحديث، وراوية الإسلام، والحافظ الأول للسُّنَّة بلا منازع، وذلك لأن أبا هريرة رضي الله عنه استغلّ فرصة فراغه وقوة حفظه ودعاء النبي ﷺ له فلازمه ملازمة تامة.

---

(١) مسلم (٨١٠).

• **وكان مشروع عائشة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا العلم**، حتى قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا أعلم في أمة محمد ﷺ من النساء، بل ولا في النساء مطلقًا امرأة أعلم منها»(١).

• **وكان من أهم مشاريع حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نصرة الإسلام والعقيدة بالشعر**، حتى قال له النبي ﷺ: «**أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**» متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

• **وكان مشروع خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تأديب الكفار بالصّارم البتّار**، فما ترك فرصة إلا واستغلها في نصرة الإسلام وتحطيم الأوثان، حتى قلّده النبي ﷺ هذا الوسام على صدره فقال: «**خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ**» «صحيح» رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣).

• **وكان من أهم مشاريع عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنفاق ماله في سبيل الله ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، كالسيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار**، حتى قال ﷺ معجبًا به وببذله وإنفاقه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**» مرَّتَيْنِ. «حسن» رواه أحمد والترمذي(٤).

• **وكان أهم مشروع عند الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في حياته تصنيف كتابه «صحيح البخاري»**، مكث (ستة عشر) عامًا لإنجازه، لا يدع لحظة ولا فرصة إلا كتب فيها، حتى أصبح كتابه أصح كتابٍ بعد كتاب الله. **قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ**: «صَنَّفْتُ كتابي

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٤٠).

(٢) البخاري (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٣) «سنن الترمذي» (٣٨٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٢١)، و«صحيح الجامع» (٦٧٧٦)، وشيخنا مقبل في «الصحيح المسند» (٥٦٢).

(٤) أحمد في «فضائل الصحابة» (٨٤٦)، و«سنن الترمذي» (٣٧٠١)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٢٠)، و«مشكاة المصابيح» (٦٠٧٣)، واحتج به شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ في «المصارعة» (٢١٢).

الصحيح لست عشرة سنة خرجته من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى»[(١)].

• **وكان أهم مشاريع ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ تأليفُ كتابٍ في شرح صحيح البخاري**، فاستغرقَ (خمسة وعشرين) سنة لإتمامه[(٢)]، كان يصنع **الفرص** لنفسه حتى أنهى هذا المشروع العظيم سماه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، الذي **قال عنه الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ لما طُلب منه أن يشرح صحيح البخاري، قال قولته المشهورة:** «لا هجرةَ بعد الفتح»[(٣)].

وهناك كتاب آخر للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا وهو «الإصابة في تمييز الصحابة»، مكث في تأليفه (أربعين) سنة.

قال شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُ اللَّهُ في تحقيقه على «العواصم من القواصم»[(٤)]: «وقد ألَّف الحافظ ابن حجر كتابًا سماه «الإصابة في تمييز الصحابة» وهو جامع لما تفرق في الكتب التي أُلِّفت قبله مع تحقيق وإضافات كثيرة لم ترد عند غيره، وقد استغرق في تأليفه أربعين سنة، ولكنه لم يكمل...».

• **وكان مشروع الإمام ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ تقريب الفقه للفقيه والمتفقه، لم يدع فرصة في حياته إلا استغلها من أجل هذا المشروع الضخم**، فَصَنَّفَ كُتُبًا مازالت إلى يومنا هذا موردًا عذبًا للطالبين كالعمدة، والمُقْنِع، والكافي، وما المغني عنكم ببعيد (١٥) مجلدًا[(٥)].

---

(١) «مقدمة الفتح» (٤٩٠)، «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٠٥)، «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٧٦)، «تاريخ بغداد» (٢/ ١٤)، «وفيات الأعيان» (٤/ ١٩٠)، «تهذيب الكمال» (١١٧٠).

(٢) «الجواهر والدرر» للسخاوي (٢/ ٦٧٥).

(٣) «الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني» (٣/ ١٥١٧).

(٤) «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» لابن الوزير، تحقيق شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٤١١).

(٥) للاستزادة انظر «المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد» للشيخ بكر أبو زيد (٢/ ٧١٩).

• **وكان مشروعُ صيرفي الحديث في عصره الإمام الرباني محمد ناصر الدين الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ **تقريب السنة بين يدي الأمة،** لقد كان آية في استغلال الفرص، فأثمر تصانيف بديعة في الحديث والسُّنَّة زادت عن (١١٣) كتابًا ما بين تأليف وتحقيق وتعليق وتخريج.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)]: «...إنّي أسألُ اللهَ سبحانه وتعالى أن يُعينَني على إتمام ما أقدرُ عليه من مشروعي القديم «تَقْريب السُّنَّة بين يَدَي الأُمّة» الذي أفنيتُ فيه شَبَابي، وقضيتُ فيه كهولَتي، وأُتَمِّم به - الآن - شيخوختي».

• **وكان مشروع الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ **أنه أوقف نفسه لخدمة الدين،** وخدمة جميع المسلمين في كل ساعة وحين، وله قصص في خدمة الدين وخدمة المسلمين أغرب من الخيال، إنه أُمَّة في رَجُل، **كان له مشروع في علم الحديث وبقية العلوم،** ومشروع في العبادة، ومشروع في الإفتاء، ومشروع في قضاء حوائج الناس، لأنه يمكن للإنسان أن يكون له أكثر من مشروع في حياته، **فهذا عبد الله بن المبارك كان له مشروع في العلم،** ومشروع في الجهاد، ومشروع في الصدقة، ومشروع في العبادة، **وابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ **كان له مشروع في العلم، ومشروع في الجهاد، ومشروع في العبادة،** ومشروع في الزهد، ومشروع في الرد على الفرق المخالفة.

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٦/ ٨).

فائدة: وللعلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ قصة لطيفة تُعْرَف بقصة «الورقة الضائعة» وكيف استغل الفترة التي حددها له الطبيب بعدم القراءة في الكتب لمدة ستة أشهر، وذلك لوجع في عينيه، فاستغل هذه المدة وكانت السبب لموسوعته العلمية «تقريب السنة بين يدي الأمة»، وكان نتيجة هذه الفرصة هي أن جمع أربعين مجلدًا (هي فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية)، ومن هذه المجلدات استقى مؤلفاته...

القصة ذات شجون ذَكَرَها بطولها في مقدمة كتابه «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية» (ص:٨-١٥) انظرها إن شئت.

• **وكان مشروعُ العلامة المتفنن ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تدريس العلم الشرعي للعامة والخاصة**، فأعرضَ عن المناصب، وأشاح عن الدنيا وجهه، وبقي يُدَرِّس في مسجده بعنيزة أكثر من خمسين سنة متتالية، لا يدع فرصة إلا استغلها في نشر الخير للغير حتى بلغت دروسه المسجلة له أكثر من (٥٠٠٠) ساعة عدا الدروس التي لم تُسَجَّل، وهي كثيرة وكثيرة جدًّا، وبلغت مؤلفاته أكثر من تسعين كتابًا ورسالة[١].

• **وكان للشيخ العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ مشاريع كثيرة، وتصانيف وفيرة**، منها المشروع الذي نص عليه وهو كتاب: «التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل»، طبع منه الجزء الأول، فقد قال عنه: «أما بعد: فهذا كتابٌ أُراه من مشاريع العُمر سميته «التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل».

• **وكان مشروعُ الشيخ عبد الرحمن السميط رَحِمَهُ اللَّهُ الدعوة إلى الله في أفريقيا**، فأسلمَ على يده (١١) مليونًا، بعد أن قضى (٢٩) سنة ينشر الإسلام في القارة السوداء[٢].

قال ﷺ: «...**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» متفق عليه عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣].

وقال ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا...**» رواه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤].

ختامًا قد يقول قائل: إنَّ أصحاب هذه المشاريع تجار وعلماء، فماهي مشاريع مَنْ دُونَهُم؟

---

(١) «الجامع لحياة الشيخ» (ص:١٥٤)، و«ابن عثيمين الإمام الزاهد»، و«صفحات مشرقة في حياة الشيخ محمد ابن عثيمين».
(٢) «الموسوعة العالمية الحرة».
(٣) البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٤) مسلم (٢٦٧٤).

قلت: هناك مشاريع عظيمة لا تحتاج لكثير علم ولا لكثير مال، وقد قال ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا...**» رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه[(١)].

من هذه المشاريع العظيمة: تعليم أبناء المسلمين الفاتحة في المسجد أو المدرسة أو في البيت عن طريق الأبوين أو في أي مكان، فهذا مشروع ضخم، وأرباحه كبيرة، ورأس المال يسير، يستطيعه الكثير والكثير من الناس، والموفق من وفقه الله.

فقد بوَّب الإمام البخاري رحمه الله: باب تعليم الصبيان القرآن.

وقال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» رواه البخاري عن عثمان رضي الله عنه [(٢)].

وقد اشتهر عن جمع من السلف الصالح تعليمهم القرآن الكريم للصبيان، منهم: أبو منصور الخياط الزاهد المقرئ (ت ٤٩٩هـ)، اختار هذا المشروع وهو التفرغ لتعليم الصبيان سورة الفاتحة.

قال السمعاني رحمه الله: «رأوه بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بتعليمي الصبيان فاتحة الكتاب»[(٣)].

الله أكبر، والله إن هذه **الفرصة** يغفل عنها جمهور الدعاة والمعلِّمين إلا من رحم الله، فهذا الطفل الذي حفظ الفاتحة على يديك كم لك من الأجور كلما صلّى الفرائض والنوافل، وقد يُعَمَّر هذا الإنسان أعوامًا عديدة وأزمنة مديدة، وقد يُعَلِّم هو أيضًا أمّة من الناس الفاتحة والأجر يصل إليك، فيا الله لا تحرمنا فضلك.

ومن المشاريع الضخمة: مشروع الأم في تربية أبنائها، فإن المرأة الصالحة من أهم مشاريعها تربية أبنائها التربية الإسلامية الصحيحة، فهو شغلها الشاغل في الليل

---

(١) مسلم (٢٦٢٦).

(٢) البخاري (٥٠٢٧).

(٣) «معرفة القراء الكبار» (٢٥٦)، «غاية النهاية» (٢/ ٥٧)، «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٢٢٤).

والنهار، لا تدع فرصة في صلاح أبنائها إلا استغلتها، وقد أحسن من قال:

الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا   أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ

وقبل ذلك قوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا...**» متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما(٢).

❊❊❊

(١) البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

مشاريع أربعة من سادات المسلمين مختلفة

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]

اجتمع عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعروة بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك ابن مروان بفناء الكعبة، فاستغلوا هذه الفرصة فقال لهم مصعب: تمنوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقال مصعب بن الزبير: أتمنى ولاية العراق، والزواج من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وتمنى عروة بن الزبير الفقه - أي: أنه سأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقه الفقه - ويُحْمَل عنه الحديث، وتمنى عبدالملك بن مروان الخلافة العظمى على المسلمين، وتمنى عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الجنة.

هذه مشاريع هؤلاء الأربعة، ولعلها كانت - والله أعلم - ساعة إجابة، فكل واحد منهم دعا وتمنى، فنال ما تمنى، فمصعب طلب الإمارة والزوجتين، مع صعوبة تحصيل زواج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة كما هو معروف، لكن مع ذلك نالهما، وأَصْدَقَ كل واحدة خمسمائة ألف درهم، وجهزها بمثلها، وأصبح أمير العراق لأنه دعا وتمنى، ثم لم يترك فرصة من فرص الحياة إلا استغلها لتحصيل ما تمنى لأن الأمنية لوحدها لا تكفي، وأما عروة بن الزبير فقد طلب الفقه والحديث والعلم الشرعي، فنال ما تمنى وأصبح من الفقهاء السبعة والعلماء الكبار، وأما عبد الملك بن مروان فقد نال الخلافة العظمى على جميع المسلمين، وأما عبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقد طلب الجنة، ولعله قد نالها.

فهذه مشاريع هؤلاء الأربعة، كل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، فكل واحد يتمنى حسب همته ورغبته، والهمة رزق من الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد:٢٦]، ومن حكمته سبحانه وتعالى أَنْ فاضل بين خلقه في قواهم العملية، كما فاضل بينهم في قواهم العلمية.

قال المتنبي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صغارها ... وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ(١)

مشروع محمد بن أبي عامر الحاجب المنصور رَحِمَهُ اللهُ

(من الفقراء المعدمين إلى خليفة للمسلمين)

قلت: محمد بن عبد الله بن أبي عامر - الحاجب المنصور - له قصة عجيبة غريبة مذهلة، كان من الفقراء المُعْدَمِين ومن عامة المسلمين في الأندلس، وكانت له همة عجيبة، وإرادة قوية، ومشروع عظيم، وهو أن يصبح حاكم الأندلس!!

وقد كان رَحِمَهُ اللهُ يخبر أصحابه المقربين إليه بمشروعه هذا، حتى أنه لربما قَلَّدَهُم الخُطط والمناصب وهو لايزال في حداثة سنّه!!

وإليكم هذه القصة التي أوردها ابن الخطيب السلماني في كتابه «أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، وأوردها أيضًا ابن النباهي في ترجمة القاضي الجليل محمد بن يبقى بن زرب في كتابه «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» وغيرهما من المؤرخين(٢):

---

(١) انظر «المنتظم من تاريخ الملوك والأمم» (٦/ ١٣٤)، «الحلة السيراء» (١/ ٣٠)، «البداية والنهاية» (٨/ ٣٥١)، «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٧١)، «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٩).

(٢) انظر «أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» (ص:٥٩)، و«المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» (ص:٨١)، و«الكامل» لابن الأثير (٧/ ١٢٠)، و«نفح الطيب» (١/ ٣٩٦-٤٢٣)، و«الدولة العامرية» لابن حيان، و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبدالواحد بن علي التميمي المراكشي المتوفى سنة (٦٤٧) (ص:٣١).

تنبيه: وأما قصة أنه كان حَمَّارًا فلم أجد لها مصدرًا، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن أعجب أحواله - أي محمد بن أبي عامر - أنه كان على بصيرة من أمره، هانئًا بما ذخرت له الأيام في حداثة سنّه، فكان يتكلم في ذلك بين أصحابه، وكأنه أُلْهِمَ ما خبأه الله له من الغيب، فَحَدَّثَ ابن أبي الفيّاض في كتابه قال: أخبره الفقيه أبو محمد علي بن أحمد، قال: أخبرني محمد بن موسى بن عزرون، قال: أخبرني أبي قال: اجتمعنا يومًا في متنزه لنا بجهة الناعورة بقرطبة، ومعنا ابن أبي عامر وهو في حداثته، وابن عمه عمرو بن عبد الله بن عسقلاجة، والكاتب ابن المرعزّي، ورجلٌ يعرف بابن الحسن من جهة مالقه، وكانت معنا سفرة فيها طعامٌ، فقال ابن أبي عامر - الحاجب المنصور - من ذلك الكلام الذى كان يتكلم به: لا بد لي أن أملك الأندلس، وأقود العساكر، وينفذ حكمي في جميع الأندلس!! ونحن نضحك منه ونهزأ به، وقال: تمنّوا عليّ، فقال ابن عمه عمرو: أتمنّى أن توليني على المدينة، نضرب ظهور الجناة، ونفتحها مثل هذه الشاردة.

وقال ابن المرعزّي: أشتهي أن توليني أحكام السوق.

وقال ابن الحسن: أحب أن توليني القضاء بجهتي.

قال موسى بن عزرون: فقال لي: تمنّ أنت، فشققت لحيته، وأسمعته كلامًا سمجًا قبيحًا...».

وقيل إن الأخير قال: إذا أفضى إليك الأمر فأْمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذَّنَب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع علي الذباب والنحل!

وإليك أخي الكريم: ملخص هذه القصة وأحداثها الغريبة وكيف وصل هذا الرجل العظيم إلى الحكم في قفزات سريعة:

انطلق ابن أبي عامر بكل إصرار وَجِدٍّ يبحث عن الطريق الموصل إلى الهدف المنشود.

وإذا كانت النُّفوسُ كِبارًا　　　تَعِبَت في مُرادِها الأجسامُ

فقرر الالتحاق بسلك الدولة، فقيل إنه اتخذ له دكانًا بجوار دار الخلافة يكتب المعاريض حتى يصل خبره للخليفة؛ لأنه كان موهوبًا في الخط والشعر والتعبير وغير ذلك من العلوم، وقيل: إنه التحق بقسم الشرطة ليكون جنديًّا، وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

الشاهد من ذلك أنه بذل جهدًا عظيمًا في عمله هذا حتى ذاع صيته واشتهر بين الناس، وأعجب به الأعيان والقيادات المقربة من الخليفة، وترقى في عمله حتى أصبح رئيسًا لقسم الشرطة في الدولة الأموية في الأندلس، وكان آية في الحزم والجد والاجتهاد والأمانة، وشاء الله أن يموت الخليفة الأموي ويتولى الخلافة بعده ابنه هشام المؤيد بالله وعمره في ذلك الوقت عشر سنوات، وهل يمكن لهذا الطفل الصغير من إدارة شؤون الدولة، فأجمعوا على أن يجعلوا عليه وصيًّا، ولكن خافوا أن يجعلوا عليه وصيًّا من بني أمية فيأخذ المُلك منه، فقرروا أن يكون مجموعة من الأوصياء من غير بني أمية، وتم الاختيار على محمد بن أبي عامر وغالب والمصحفي، هؤلاء الثلاثة فقط، وكان محمد بن أبي عامر مُقَرَّب إلى صبح أم الخليفة، واستطاع أن يمتلك ثقتها وقلبها، فوشى بالمصحفي عندها، وأزيل المصحفي من الوصاية، لضعف فيه لا يصلح معه للدولة، وتزوج ابن أبي عامر ابنة غالب، ثم تخلص من غالب، ثم أصبح بعد ذلك هو الوصي الوحيد، فأعاد هيكلة الدولة وبنائها من جديد، فحارب الفساد الديني والدنيوي بقوة، ونشر العلم بقوة، وجهز الجيش بقوة، ثم اتخذ مجموعة من القرارات، فقرر أن الخليفة لا يخرج إلا بإذنه، وقرر انتقال شئون الحكم إلى قصره، وجَيَّشَ الجيوش، وفتح الأمصار، واتسعت دولة بني أمية في عهده، وحقق من الانتصارات ما لم يحققه خلفاء بني أمية في الأندلس، حتى اعتبر بعض المؤرخين أن تلك الفترة فترة انقطاع في الدولة الأموية، وسميت بالدولة العامرية، وقد خاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤) معركة ضد الكفرة ، لم

يُهْزَم في أيٍّ منها قط ولم تنكس له راية، وكان بعد كل غزوة يضع غبار ثيابه في قارورة حتى امتلأت، وأوصى بدفنها معه في قبره.

وكان ملوك النصارى يُقَبِّلُون قدمه ويده من فرط الهيبة ويطلبون رضاه.

ووسّع جامع قرطبة الكبير - ثاني أكبر جامع في العالم آنذاك - وكان يعمل بنفسه مع بقية العمال في التوسعة.

وبنى مدينة الزاهرة بالقرب من قرطبة - كوردوبا حاليًّا - وجعلها عاصمة الدولة العامرية.

هكذا صنع الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، واستطاع بتوكله على الله، ثم باستغلاله للفرص، ثم بقدراته الكامنة التي منحه الله إياها أن يحقق أهدافه.

والقصة لم تنتهِ بعد، ففي يوم من الأيام وبعد ثلاثين سنة، والحاجب المنصور يعتلي عرش الخلافة وحوله الفقهاء والأمراء والعلماء، تذكر أصحابه الذين كانوا معه في بداية الحياة حين كان يقول لهم: أنا مشروعي في الحياة أن أصبح خليفة على الأندلس فما تتمنون؟ فيضحكون منه، أرسل إليهم بعد أن حقق الله له مراده، فماذا جرى يا ترى؟ ندع الحديث لواحد منهم:

قال صاحبه المستهزئ الساخر موسى بن عزرون: فلم يك إلا أن صار المُلك إليه، فولّى ابن عمه المدينة، وولّى ابن المرعزّي السوق، وكتب لابن الحسن بالقضاء كما طلبوا منه في بداية الأمر، قال: وأغرمني أنا مالًا عظيمًا، أجحفني وأفقرني لقبيح ما كنت جئت به.

قلت: لأنه هو الذي أسمعه كلامًا سمجًا، وقبض على لحيته، واستهزأ به، وضحك عليه حين سمع منه ذلك المشروع الضخم، وهو أن يكون خليفة للمسلمين.

وقيل: إنه أمر بالأخير أن يطاف به قرطبة كلها على حمار ووجهه إلى الذَّنَب وهو مطلي بالعسل ليجتمع عليه الذباب والنحل كما طلب هو! والله المستعان.

وصدق الله القائل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

***

أخيرًا: مشاريع الفاشلين الراسبين أربعة

إذا قلت لهذا الصنف من الناس ما هو مشروعك في الحياة؟ فإن الحياة فرص، وحياتك فرصة؟

فيقول لك: مشروعي أن أجد عملًا ومالًا.

تقول له: ثم ماذا؟ يقول لك بعد ذلك: أبني بيتًا.

تقول له: ثم ماذا؟ يقول لك: ثم أتزوج.

تقول له: ثم ماذا؟ يقول لك: يكون عندي أسرة وأولاد.

تقول له: ثم ماذا؟ يقول لك: لا شيء، هذا أهم شيء في الحياة، الزوجة، والمال والبيت، والأولاد.

وملخَّص مشاريع الفاشلين في أربعة أشياء: (القَرْش والكَرْش والفَرْش والعَرْش).

القَرْش: المال بجميع أشكاله وصوره من حلاله أو حرامه.

والكَرْش: الأكل والشرب بجميع أشكاله وصوره.

والفَرْش: النوم والزوجة والنكاح.

والعَرْش: المناصب الدنيوية بجميع أنواعها وصورها وأشكالها.

وختامًا نقول له: هذه مشاريع البهائم والكفار، أنت تأكل وهم يأكلون، أنت تشرب وهم يشربون، أنت تنام وهم ينامون، أنت تَنْكِح وهم يَنْكِحون...الخ.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

أخي الحبيب: بعد هذه الجولة الممتعة في المشاريع المختلفة، **ما هو المشروع الذي قررت أن تختاره لنفسك؟ فقلْ لي ما هو مشروعك في الحياة أقلْ لك من أنت؟؟!!**

فقد قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ».

قال ابن أَبِي الدُّنْيَا: قَالَ عمرو بْن بحر: «لا أعلم في كلام الناس كلمة أحكم من هذه الكلمة»[(١)].

ختامًا: أخي الحبيب: إذا أردت أن يكون لك مشروع ناجح، فأوصيك أولًا بتصحيح النية، فمن صلحت نيته صلح مشروعه في الحياة، ومن ساءت نيته ضاع كل عمله.

ثم أوصيك بالانطراح بين يدي الله تعالى واللجوء إليه، فهو الذي يهديك للتي هي أقوم، ويدلّك للتي هي أحسن، فربك سبحانه لا يختار لك إلا ما هو خير لك، فهو الأعلم بك وبقدراتك وبمصلحتك.

ثم أوصيك باستثمار الوقت، فمن أراد لمشروعه قوة وأثرًا ونجاحًا فعليه أن يرتّب وقته ويحدّد أولوياته، فصاحب المشروع لن يبلغ هدفه ولن يصل إلى نهاية مشروعه ما لم يكن أشحّ بوقته من شح البخيل بماله.

ثم أوصيك بالصبر على طول الطريق، فإنه لا سبيل للوصول إلى غايات الإنسان إلا بعد عرق ينزف على الأرض برهانًا على مشقة الطريق.

وقد أحسن من قال:

لَوْلا المَشَقّةُ سَادَ النّاسُ كُلُّهُمُ ... الجُودُ يُفْقِرُ وَالإقدامُ قَتّالُ

---

(١) «تاريخ بغداد» (٦/ ١٧٨)، و«الذخيرة» (١/ ٢٢٦).

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على أن من ضيع الفرص في دار المقامة تحسر عليها في يوم القيامة

نعم أيها الأعزاء سنندم على فوات الفرص التي فرطنا فيها، ولا يفيق الكثير من غفلته إلا عند غمرات الموت، يوم يقول قائلهم: ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

سيتحسرون ولكن في دركات النار يوم ينادون بل يستغيثون: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾ فيأتيهم الجواب: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١].

والله يا عبد الله، سوف تتحسر على كل لحظة من لحظات الحياة، إذا لم تستغل فيها الفرص، حتى وإن كنت من أهل الجنة، كما قال ﷺ: «**مَا قَعَدَ قَوْمٌ مَقْعَدًا لا يَذْكُرُونَ فِيهِ اللهَ ﷻ، وَيُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لِلثَّوَابِ**» «صحيح» رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه[1].

(١) «مسند أحمد» (٩٩٦٥)، و«صحيح ابن حبان» (٥٩١)، و«مستدرك الحاكم» (١٨١٠) وغيرهم، وصححه الشيخ الألباني في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٥٩١)، و«السلسلة الصحيحة» (٧٦و٧٧)، وشيخنا مقبل في «الصحيح المسند» (١٣٢٨)، و«الجامع الصحيح» (٥٥٦).

إخواني وأحبابي أفيقوا قبل الحسرة والندامة، فالناس جميعهم يوم القيامة، برهم وفاجرهم، مسلمهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم، تتقطع قلوبهم ندمًا وأسفًا وحسرة، على ما فاتهم من طاعة الله، فالكافر والفاجر والعاصي يتحسر ويندم على تفريطه، وعدم انقياده لأمر ربه، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

وأيضًا المسلم المطيع كما تقدم في الحديث الصحيح يتحسر على أنه لم يزداد من الأعمال الصالحة، يتحسر على بعض أوقاته التي ضيعها في شهواته، وعلى ما أنفق من ماله في ملذاته، وعلى ما بذل من جهده في سبيل مباحاته ومحبوباته، بل يتحسر ويندم على أنه لم يضاعف ويكثر من أعماله الصالحة، فإن كان قد بنى لله مسجدًا، يندم على أنه لم يبن لله مسجدين، وإن كان من أهل القيام بركعتين في جوف الليل، يندم على أنه لم يقم بثلاث عشرة ركعة، وإن كان يقرأ صفحة من كتاب الله في اليوم، يندم أنه لم يقرأ صفحتين أو جزء أو جزئين أو أكثر، وهكذا بقية الأعمال الصالحة يندم أنه لم يستغل فرصة الحياة، والحياة فرص.

فيوم القيامة - أيها الأخوة - هو يوم الحسرة الحقيقية، والندم الذي لا ينفع صاحبه، فليس هناك إلا جنة أو نار، يقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ**

فَلَا مَوْتَ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا. متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١).

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ لا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لا مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ**» متفق عليه(٢).

فأي حسرة - أيها الإخوة - تنتظر المفرطين والمتهاونين والتاركين لأمر الله تعالى، المعرضين عن أمره ونهيه.

أي حسرة - إخواني في الله - تنتظر من لم يستغل فرص الحياة والعمر والليالي والأيام والساعات واللحظات والثواني والأنفاس، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] قال: نعد أنفاسهم في الدنيا(٣).

أيها الإخوة: هل تأملتم حال بعض الناس عندما يفوته أمر من أمور الدنيا، هل استشعرتم مقدار ندمه وألمه وحسرته، لو فاتك منصب تستحقه، أو حُرِمْتَ من ترقية كنت تنتظرها، أو فُضِّلَ عليك غيرك بمبلغ من المال، أو فشل ابنك في دراسته، أو غير ذلك من أمور الدنيا، يا ترى ما مقدار حسرتك وألمك على فوات هذه الفرصة عنك،

---

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٣٢).

هذا من أجل حطام فانٍ، أو من أجل شيء تستطيع تعويضه وتداركه ما دمت حيًّا بإذن الله، فكيف أخي بحسرة من فاته نعيم دائم من الله تعالى يوم القيامة، أو صار من أهل عذابه وعقابه والعياذ بالله فكيف التدارك؟

نعم - أخي المسلم - ذكر الله لنا حال هؤلاء في يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

فمن شدة ألمه وحسرته وندمه، لا يكفيه العض على يد واحدة، إنما يعض كلتا يديه، أو يداول بينهما في العض.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ، يتمنى لو سلك طريق الرسول ﷺ يتمنى لو اتَّبَع سُنَّة نبيه محمد ﷺ، يتمنى لو كان من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، يتمنى أنه ابتعد عن جميع الشهوات والشبهات، عصمنا الله وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.



الأمنية والندامة لا تنفع صاحبها يوم القيامة

التمني رأس مال المفاليس كما قيل، ولا ينفع صاحبه يوم القيامة، وقد ذكر لنا القرآن الكريم جملة ممن صرخ وَوَلْوَلَ بالتمني والندم، يوم أن يبكي أهل النار بدل الدموع دمًا، كما ثبت عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه موقوفًا: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ الدُّمُوعَ حَتَّى تَنْقَطِعَ ثُمَّ يَبْكُونَ الدِّمَاءَ حَتَّى لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ**» «صحيح» رواه أحمد[1].

وقد ذكر الله لنا أمنيات هؤلاء يوم القيامة، ومن ذلك قول الكافر والفاجر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤].

يا ليتني قدَّمتُ في الدنيا من الأعمال ما ينفعني لحياتي في الآخرة.

لكن هل ينفع هذا التمني؟

الجواب: لا، وهذه نهاية من فوَّت على نفسه الفُرص وجعل أهدافَه في الحياة هزيلة، وقيمتَه في الوجود رخيصة، وقضَى حياتَه تلبيةً لنزَوَاته ومُتَعه ولذائِذِه، فأكَلَت الأيامُ الضائِعةُ حياتَه، والسُّنون التائِهةُ عُمرَه، سوف يقول بعد ذلك: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾[الفجر: ٢٤].

وقال تعالى عن هذا الصنف: ﴿ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، يا ليتنا نُعاد إلى الحياة الدنيا، فَنُصَدِّق بآيات الله ونعمل بها، ونكون من المؤمنين.

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (١١٠٣)، وله حكم الرفع، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة» تحت حديث رقم (٦٨٨٩).

تنبيه: حديث أنس رضي الله عنه المرفوع تراجع عن تصحيحه الشيخ الألباني رحمه الله، وانظر «السلسلة الضعيفة» (٦٨٨٩)، و«ضعيف الترغيب» (٢١٧٨).

لكن هل ينفع هذا التمني؟

الجواب: لا. قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله في الدنيا، فكنّا من أهل الجنة.

لكن هل ينفع هذا التمني؟

الجواب: لا. قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥]، يا ليتني لم أُعط كتابي.

لكن هل ينفع هذا التمني؟

الجواب: لا. قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]، يا ليت الموتة التي متُّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، ولم أُبعث بعدها.

لكن هل ينفع هذا التمني؟

الجواب: لا. قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، يا ليتني كنت ترابًا فلم أُبعث.

لكن هل ينفع هذا التمني؟

الجواب: لا. قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٨]، يا ليتني لم أتخذ الكافر فلانًا صديقًا أتبعه وأوده.

لكن هل ينفع هذا التمني؟

الجواب: لا. قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، وددت أن بيني وبينك بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين لي أنت، حيث أغويتني.

لكن هل ينفع هذا التمني؟

الجواب: لا.

إذًا إخواني في الله: والله وبالله وتالله، إنه يجب علينا أن نسارع فيما يقربنا إلى الله باغتنام الفرص في هذه الحياة، من قبل أن نهتف ونصرخ ونصيح بكلمة يا ليت، التي قالت عنها العامة: كلمة يا ليت ما تبني بيت، وصدقوا، ولكن يمكن إدراكها الآن طالما في الجسد روح، فسوف تبني بيوتًا وقصورًا، بإذن الله تعالى إذا انتهزت فرص الحياة، والحياة فرص.

والخلاصة يا عباد الله: أن الناس في استغلال الفرص على أربعة أقسام: ممتاز، وجيد، ومقبول ضعيف، وراسب.

القسم الأول: تأتي له الفرصة الأولى والثانية وهو ينتظر الثالثة، وعندما تأتي الثالثة ينتظر الرابعة وهكذا، تأتيه الفرصة الأولى على طبق من ذهب، وتأتيه الفرصة الثانية على طبق من فضة، وتأتيه الفرصة الثالثة على طبق من نحاس، وهو ينتظر الرابعة والخامسة.

القسم الثاني: ينتظر الفرصة تأتي إلى باب بيته، ويجب أن تكون مفصلة عليه تفصيلًا دقيقًا، كالثوب الجميل على الجسد، وإلا لا يهتم بها.

القسم الثالث: يرى الفرصة ويذهب لها مسرعًا ويستغلها.

القسم الرابع: يصنع الفرص بنفسه ثم يستغلها.

فلو نظرنا لحال الأول: نجد أن النتيجة الحتمية لما يقوم به أنه سوف يأتي اليوم الذي تنعدم فيه الفرص، ويتمنى عودة أي فرصة من الفرص السابقة إليه، فهذا الصنف نادم ومتحسر لا محالة.

ولو نظرنا في حال الثاني: لوجدناه أفضل حالًا من الأول، لأنه في حالة التأهب لأي فرصة قادمة لكي يستغلها، لكنه لم يكلف نفسه أن يمشي خطوات على اليمين

أو اليسار للبحث عن الفرص، لأن الفرص حوله ولكنه ينتظرها فربما لا تأتي له فيكون حاله قريب من حال الأول.

ولو نظرنا في حال الثالث: لوجدناه أفضل من سابقيه حيث أنه تحرك خطوات على اليمين، وعلى اليسار، وإلى الأمام، وإلى الخلف، بحثًا عن الفرص لكي يستغلها، ويتقدم خطوات نحو الأفضل وهذا مطلب جيد.

ولو نظرنا في حال الرابع والأخير: لوجدناه هو الطموح وهو الذي ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

وهذا مطلب شرعي، فأنا لا أنتظر غيري يصنع الفرصة فأستغلها، أو أذهب لها، بل أنا من يتسبب في إيجاد هذه الفرصة، ثم أستغلها في كل مكان، وفي كل زاوية أكون فيها، وهذه من صفات الناجحين عبر التاريخ.



كيف نستغل الفرص قبل فواتها؟

أولًا: بالاستعداد المسبق لها:

فالفرص كسحابات الصيف غنية بالمطر، جميلة في المنظر، ولكنها سريعة في المسير، فمن أراد منها الماء فلا بد له أن يبادر بالاستعداد قبل أن تأتي السحاب، فيهيئ وسيلته، متطلعًا نحو الأفق، منتظرًا أخباره، فإذا هطل المطر كان له النصيب الأوفر من الماء، أما من يبحث عن الوسيلة بينما السحاب يمر من فوق رأسه، وهو متثاقل في حركته، فإنه يضيع على نفسه أمرين: الوقت أولًا، والمطر ثانيًا.

فلو كنت صيادًا مثلًا، ألست تهيئ الوسيلة أولًا قبل الصيد، ثم تنتظر الفريسة؟ أم أنك تنتظر الفريسة فإذا جاءت قمت تبحث عن الوسيلة لصيدها؟ هذا لا يكون أبدًا!

إن الفرق بين الناجحين والفاشلين ليس في أن الناجحين يجدون فرصًا، والفاشلين لا يجدونها، لا، بل إن الناجحين أسرع من الفاشلين في الاستعداد لاغتنام الفرص هذا هو الفرق بين الفاشلين والناجحين.

لقد سئل أحد كبار الأثرياء من الذين يعملون في العقارات وسوق العملات: كيف تنجح في السوق وغيرك يفشل فيه؟

فقال: أنا أدخل في السوق حينما يكون غيري لا يزال مترددًا، وأخرج منه حينما يكون قد قرر غيري الدخول، فأحصد النجاح، ويحصد هو الفشل.

ثانيًا: القفز على الفرصة دون تأخر أو تردد:

إن الفرص لا تبالي بمن لا يبالي بها، وهذا يعني أن عليك أن تتصرف تجاه الفرصة وكأنها الأخيرة، ولا مجال لتكرارها، وتكون على علم أن إضاعة الفرصة غصّة، لأن الفائت لا يمكن لحاقه، وفي الحقيقة أن كل الناجحين في التاريخ كانوا

ممن يعرفون متى وكيف يستغلون الفرصة، فأخذ زمام المبادرة هي أصل كل نجاح واستراتيجية كل الناجحين في جميع المجالات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (١): «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا حَضَرَتْ لَهُ فُرْصَةُ الْقُرْبَةِ وَالطَّاعَةِ فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ فِي انْتِهَازِهَا وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، وَالْعَجْزُ فِي تَأْخِيرِهَا وَالتَّسْوِيفِ بِهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَثِقْ بِقُدْرَتِهِ وَتَمَكُّنِهِ مِنْ أَسْبَابِ تَحْصِيلِهَا، فَإِنَّ الْعَزَائِمَ وَالْهِمَمَ سَرِيعَةُ الِانْتِقَاضِ قَلَّمَا ثَبَتَتْ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يُعَاقِبُ مَنْ فَتَحَ لَهُ بَابًا مِنَ الْخَيْرِ فَلَمْ يَنْتَهِزْهُ، بِأَنْ يَحُولَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَلَا يُمْكِنُهُ بَعْدُ مِنْ إِرَادَتِهِ عُقُوبَةً لَهُ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ للهِ وَرَسُولِهِ إِذَا دَعَاهُ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَلَا يُمْكِنُهُ الِاسْتِجَابَةُ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وَقَدْ صَرَّحَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ».

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢): «يَا مَنْ عُمْرُهُ كُلَّمَا زَادَ نَقَصَ، يَا مَنْ يَأْمَنُ الْمَوْتَ وَكَمْ قَدْ قَنَصَ، يَا مَائِلًا إِلَى الدُّنْيَا هَلْ سَلِمْتَ مِنْ نغص، يا مُفَرِّطًا فِي الْوَقْتِ هَلَّا بَادَرْتَ الْفُرَصَ، يَا مَنْ إِذَا ارْتَقَى فِي سُلَّمِ الْهُدَى فَلَاحَ لَهُ الْهَوَى نَكَصَ، مَنْ لَكَ يَوْمَ الْحَشْرِ إِذَا نُشِرَتِ الْقِصَصُ».

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (٣): «المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحقه أن

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٢).

(٢) «التبصرة» لابن الجوزي (١/ ٣٩٧).

(٣) «فتح الباري» (٨/ ١٢٤).

يبادر إليها ولا يُسَوِّف بها لئلا يُحْرَمَها».

ثالثًا: استغلال الفرصة من دون وضع شروط لها:

إن الفرص هي التي تفرض شروطها، وليس لنا أن نضع لها شروطًا، وهذا يتطلب أن تقبل بواقع الفرص، وتستغلها سواء جاءت حسب توقعاتك أو مغايرة لها.

***

عشر حِكَم عن الفرص

الحكمة الأولى: يرى المتشائم الصعوبة في كل فرصة، أما المتفائل فيرى الفرصة في كل صعوبة.

الحكمة الثانية: عناصر النجاح ثلاثة: الرغبة والقدرة والفرصة، وإن البحث عن فرصة هو مثل البحث في منجم ذهب، وهناك مالا يحصى من الوقائع التي تشير إلى أن العثور على فرصة كثيرًا ما يكون بداية لمشاريع عظيمة.

الحكمة الثالثة: خُلِقَت الفرص لكي تُقْتَنَص على الفور.

الحكمة الرابعة: الفرصة تمر مر السحاب، فانتهزوا فرص الخير.

الحكمة الخامسة: في الصيف ضيعت اللبن «يقال للشخص الذي فوت الفرصة على نفسه».

الحكمة السادسة: اضرب حديدًا حاميًا لا نفع منه إن برد «تقال لمن يستغل الفرص».

الحكمة السابعة:

كم فرصة ذهبت فعادت غصة   تشجى بطول تلهف وتردد

الحكمة الثامنة: سُلَّم النجاح نصعد عليه بأن ندوس على درجات الفرص.

الحكمة التاسعة: الحزم انتهاز الفرصة عند القدرة.

الحكمة العاشرة: شُجَاعٌ إِذَا مَا أَمْكَنَتْنِيَ فُرْصَةٌ، وَإِنْ لم تكن لي فُرْصَة فجبان.

***

الخـــاتمة

وصايا ذهبية غالية في اغتنام الفرص من الموفق ابن قدامة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ ، ومن كبار علماء العصر

(الألباني، الباز، العثيمين)

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)]: «فَاغْتَنِمْ رَحِمَك اللهُ حَيَاتَك النَّفِيسَةَ، وَاحْتَفِظْ بِأَوْقَاتِك الْعَزِيزَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مُدَّةَ حَيَاتِك مَحْدُودَةٌ، وَأَنْفَاسَك مَعْدُودَةٌ، فَكُلُّ نَفَسٍ يَنْقُصُ بِهِ جُزْءٌ مِنْك، وَالْعُمْرُ كُلُّهُ قَصِيرٌ، وَالْبَاقِي مِنْهُ هُوَ الْيَسِيرُ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهُ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لا عَدْلَ لَهَا وَلَا خُلْفَ مِنْهَا، فَإِنَّ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْيَسِيرَةِ خُلُودُ الْأَبَدِ فِي النَّعِيمِ، أَوْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَإِذَا عَادَلْت هَذِهِ الْحَيَاةَ بِخُلُودِ الْأَبَدِ عَلِمْت أَنَّ كُلَّ نَفَسٍ يَعْدِلُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ عَامٍ فِي نَعِيمٍ لا خَطَرَ لَهُ أَوْ خِلَافَ ذَلِك، وَمَا كَانَ هَكَذَا فَلَا قِيمَةَ لَهُ، فَلَا تُضَيِّعْ جَوَاهِرَ عُمْرِك النَّفِيسَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَلَا تُذْهِبْهَا بِغَيْرِ عِوَضٍ، وَاجْتَهِدْ أَنْ لا يَخْلُوَ نَفَسٌ مِنْ أَنْفَاسِك إلَّا فِي عَمَلِ طَاعَةٍ أَوْ قُرْبَةٍ تَتَقَرَّبُ بِهَا، فَإِنَّك لَوْ كَانَتْ مَعَك جَوْهَرَةٌ مِنْ جَوَاهِرِ الدُّنْيَا لَسَاءَك ذَهَابُهَا فَكَيْفَ تُفَرِّطُ فِي سَاعَاتِك وَأَوْقَاتِك، وَكَيْفَ لا تَحْزَنُ عَلَى عُمْرِك الذَّاهِبِ بِغَيْرِ عِوَضٍ».

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في الحث على اغتنام الفرص[(٢)]: «عليك يا أخي المسلم أن تتقي الله عَزَّ وَجَلَّ وتنتهز الفرص، وألا تدع ساعة تمضي إلا ولك فيها عمل صالح».

---

(١) «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للسفاريني (٢/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٢) «لقاء الباب المفتوح» (٣/ ١٢٣).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ [١]: «ينبغي للإنسان أن يغتنم عمره بصالح الأعمال، لأنه سوف يندم إذا جاءه الموت إن أمضى ساعة من دهره لا يتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كل ساعة تمر عليك وأنت لا تتقرب إلى الله بها فهي خسارة، لأنها راحت عليك لم تنتفع بها.

فانتهز الفرصة بالصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، والتعلق بالله عز وجل، اجعل قلبك دائمًا مع الله سبحانه وتعالى، ربك في السماء، وأنت في الأرض، لا تغفل عن ذكر الله بلسانك وفي فعالك وبجنانك بالقلب، فإن الدنيا زائلة لن تبقى لأحد، انظر الأولين من سبقك من الأمم السابقة والماضية البعيدة المدى، وانظر من سبقك من أصحابك، بالأمس كانوا معك يتمتعون ويأكلون كما تأكل ويشربون كما تشرب، والآن هم في أعمالهم مرتهنون، وأنت سيأتي عليك هذا طالت الدنيا أم قصرت، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

فانتهز الفرصة يا أخي، انتهز الفرصة، لا ينفعك يوم القيامة لا مال ولا بنون ولا أهل، لا ينفعك إلا أن تأتي الله بقلب سليم.

أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يأتي ربه بقلب سليم، وأن يتوفانا على الإيمان والتوحيد، إنه على كل شيء قدير».

وقال العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في الحث على اغتنام الفرص**[٢]: «والمؤمن لا يدع فرصة إلا انتهزها».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٣]: «النصيحة في المجتمعات والمحافل ونحو هذا، مما يتيسر لطالب العلم إذا اجتمع بإخوانه أو في حفلة وليمة، أو حفلة عرس أو غير هذا من

(١) «شرح رياض الصالحين» (٥/ ١٥٣-١٥٤).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٠٨).
(٣) «فتاوى نور على الدرب» (٢/ ٦٢).

أنواع الاجتماعات، المؤمن يستغل الفرص، العالم يستغل الفرص حتى ينشر العلم، وحتى يوضح للناس ما أوجب الله عليهم، وحتى يشرح للناس ما حرم الله عليهم، وبذلك تبرأ ذمته، وينتشر العلم وتقوم الحجة، ويحصل له من الأجور مثل أجور من هداه الله على يديه، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)]: «انتهاز الفرص في الخير والحرص على الخير أمر مطلوب في المكتب، وفي السفر وفي الحضر، وفي كل مكان، كون المؤمن ينتهز الفرص بالتسبيح والتهليل والتحميد، وقراءة القرآن، وصلاة النافلة، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك، هذا هو الشيء المطلوب».

بهذا القدر أكتفي، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

❊❊❊

(١) «فتاوى نور على الدرب» (١٠/ ٣١٠).

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع | الصفحة

(الفصل الثاني)

(الفصل الرابع)

(الفصل الخامس)

(الفصل السادس)

الفصل السابع

الفصل الثامن

❊❊❊

تم

بحمد اللّٰه

الحياة فرص

تأليف

أبي عمار محمد بن عبد الله باموسى

القائم على دار الحديث ومركز السلام العلمي - اليمن - الحديدة